محمد النقاش

الثورة اللبنانيّة.. والغزو السوري

من العسير على المرء الا يعتقد أن مياها كثيرة جرت تحت جسور الاحداث اللبنانية في عامي ١٩٧٥ و ١٩٧٦ ، وأن قوى كبيرة من المنطقة وخارجها مدت اصابعها طي الخفاء الى خيوط المأساة بعد انفجارها ، بل ربما اسهمت في التمهيد لها واشعال فتيلها .

ذلك انه ليصعب على المرء ان يرى هول الفتنة واتساع لهيبها ، ويصدق أنها من فعل شعب اشتهر بالوداعة والمسالمة ، فاذا هو يتحول بين عشية وضحاها الى ذئاب جائعة تقتتل اقتتالا بلغ من العنف والشراسة والفظاعة مبلغا تجاوز كل حد وفاق كل تصور . واعجب ما فيه ان من بدأه وصعده منذ البداية الى أعلى درجات التصعيد كان الفريق السيد في النظام القائم ، وبالتالي المتمتع ـ او الاكثر تمتعا ـ بنعمه وخيراته وامتيازاته . فالمعتاد أن يثور المظلومون والمحرومون ويتهافتوا على ضرب المحظوظين وتحطيم دورهم وقصورهم . أما ان يثور هؤلاء على اولئك فيعملوا في رؤوسهم الرصاص ، ويدكوا أكواخهم وخيامهم ، فهذا ما لا نعرف له سابقة في غير احداث لبنان ، تلك التي شهدت ولادة « ثورة مضادة » قبل قيام الثورة .. وكأنما شاء أهل اليسر والثراء ان يشنوها « ثورة وقائية » على أهل البؤس والشقاء ...

●

بالطبع هناك نوع من التبسيط او من الرمز او من « الاختصار البرقي » ، حين نطلق على طرفي النزاع في لبنان اصطلاح اليمين واليسار . فالواقع أن النزاع ليس عقائديا صرفا ، ولا طبقيا محضا . ان عناصر اخرى تتداخل وتتدخل بقوة . ويمكن توضيح الصورة بالاتي :

اليمين هو اكثرية المسيحيين مع مركز ممتاز للطائفة المارونية . وهو الفريق الناظر الى القومية العربية نظرة تتفاوت بين الانكار والتنكر والقبول على مضض ، أي الترحيب « بالغنم » الذي تجلبه العروبة ورمي او تجاهل « الغرم » الذي قد تفرضه ظروف استراتيجية او طارئة .

أما اليسار ، فهو اكثرية المسلمين مع انتماء عربي يكاد يكون شاملا ناجزا .

وقد لا يعرف القاريء العربي ان لبنان هو القطر العربي الوحيد الذي يصح القول انه مركب تركيبا اصطناعيا . ركبه الاحتلال الفرنسي ، في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، بلسان القائد المحتل الجنرال غورو ، حين أعلن في ٥ ايلول ١٩٢٠ قيام « دولة لبنان الكبير » : وقصده من ذلك اقامة قاعدة ثابتة للنفوذ الفرنسي والولاء للغرب في الشرق الادنى . وكانت نواة الدولة الجديدة « متصرفية لبنان » التي تمتعت عام ١٨٦٤ باستقلال ذاتي ضمن السلطنة العثمانية . وضم اليها معظم مدن الساحل اللبناني من طرابلس الى صور مرورا ببيروت وكذلك الاقضية الاربعة في البقاع والشمال والجنوب . وكانت النواة ذات اكثرية مسيحية والمضموم ذا اكثرية اسلامية . ولعل الجنرال غورو اضطر الى تكبير لبنان بهذا الشكل «الخطر» الذي نقض غزل الفكرة الاساسية (وهي انشاء دولة مسيحية بأكثرية مارونية ترجع الى روما وتحفظ ولاء قديما لـ « أم الكثلكة » في اوروبا : فرنسا) نقض الغزل باضافة جرعة اسلامية كبيرة تؤلف نصف سكان الدولة الجديدة . اضطر الى ذلك بدافع اقتصادي . لان لبنان الصغير ؛ بضيق رقعته وافتقاره الى موانيء ، ثم بشح موارده الطبيعية ، ما كان بالكائن المؤهل للحياة .

وبفضل عطف الانتداب الفرنسي على الطوائف المسيحية ـ لا سيما الطائفة المارونية التي كان يعتبرها حليفا طبيعيا له ، وبفضل تفوق هذه الطوائف على الطوائف الاسلامية في حقل الثقافة الناجم اساسا عن تحرر الاولى عقائديا وعاطفيا ومن بعد سياسيا وعسكريا من السلطنة العثمانية وقيودها ثم بفضل تنكر معظم المسلمين لا سيما في اوائل سني الانتداب ـ للسلطة الاجنبية واحجامهم عن التعاون معها والاندماج في اجهزتها ووظائفها ، حقق المسيحيون ازدهارا نسبيا كبيرا . هذا الى جانب شعورهم بالاعتداد والاعتزاز لقيام اول دولة في الشرق (ولو تحت الوصاية الاجنبية) يحس فيها المواطن المسيحي انه سيد ، او قل على الاقل انه فوق المواطن المسلم بدرجة ...

وبديهي أن الانتداب حين قرر اقحام « الديمقراطية الفربية» على لبنان ، قذفه بنسخة من دستور الجمهورية الثالثة القائمة يومذاك ، بعد « تشويهه » ببضعة تجديدات وتعديلات تتنافى وطبيعة النظام الديمقراطي البرلماني ونهج تطبيقه . كما تخص الفريق المسيحي « الحليف » بامتيازات محسوسة ، وتسهل على سلطات الانتداب تصريف الامور على هواها ، عن طريق التعامل مع فرد « موثوق » .

هذا الفرد كان رئيس الجمهورية . وكان العرف يقضي ان يكون مسيحيا . ولم يلبث ان اصبح المنصب وقفا على ابناء الطائفة المارونية . لكن بينما رئيس

الجمهورية في كل نظام ديمقراطي برلماني «يملك ولا يحكم» كما يقولون أي أنه غير مسؤول ، وهو مجرد حام للدستور وحكم (بفتح الكاف) يشرف على الفصل بين السلطات الثلاث ، التشريعية والتنفيذية والقضائية ، فالدستور اللبناني « المشوه » خلع عليه جميع السلطات التي تتمتع بها عادة في هذا النظام رئاسة الوزراء . ولم يترك لرئيس الوزراء ، وهو مسلم بداعي العرف ايضا ، الا « شكليات » تنحصر في التوقيع مع رئيس الجمهورية على المراسيم ، وتلقي سهام المعارضة في البرلمان على أعمال كل نصيبه فيها أنه وافق عليها طوعا اوكرها ..

وورث العهد الاستقلالي هذا النظام بعجره وبجره ، ومه الجيش الذي كان « فرقة خاصة » في جيش الشرق الفرنسي . ولا داعي لتنبيه القارىء الى ان قوانين هذا الجيش وملاكاته كانت من طراز الدستور .. فهو يأتمر مباشرة بأوامر رئيس الجمهورية .. وضباطه باكثريتهم الساحقة من المسيحيين ، ومن الموارنة بوجه خاص ..

وثبتت التركة التي كانت تضمن للمسيحيين علاوة على ذلك اكثرية في البرلمان .. ربما كانت اكثرية واقعية او قريبة من الواقع في تلك الايام بتعهد يجعل هذه الاكثرية « أبدية » بنسبة ٦ الى خمسة (أي لو كان اعضاء المجلس ١١٠ اعضاء ، فيجب ان يكون ستون منهم مسيحيين وخمسون مسلمين) بصرف النظر عن أي تغيير في تعداد السكان .. وأدى ذلك الى الامتناع عن اجراء أي احصاء عام ، مما تعتبره الدول الحديثة ضرورة للتخطيط الاقتصادي في المستقبل القريب او البعيد .

بالرغم من جميع هذه العاهات والعلل في النظام اللبناني ، لا سيما من حيث التمييز الطائفي ، فقد يدهشك أن تعلم بأن الحس الطائفي راح يتقلص ويتناقص في اعوام الاستقلال الاولى . كان كل حزب بما لديهم فرحين .. الفريق الانعزالي رسخ قواعده في السلطة بدعامتين سياسية وعسكرية ، هما رئاسة الجمهورية والجيش ، واطمأن الى المصير .

واما الفريق اليعربي فرأى لبنان ينخرط في جامعة الدول العربية ، واطمأن الى استعرابه استعرابا تتسارع خطاه كلما اشتد ساعد « الاخوان والجيران » وكان هذا الفريق يفضل الجوار العربي ، ويفضل تاريخه في المنطقة، متحررا من كل عقدة خوف تتحكم عادة بالاقليات او مطمئنا هو الاخر الى فعالية التطور في المستقبل .

كان كل شيء يسير في تؤدة على ما يرام ، فقد حل محل النصوص الدستورية نوع من « لباقة اللاعبين » كما في الاصطلاح الانكليزي ، بين أهل الحكم ، وكلهم على اختلاف انتمائهم الطائفي من طبقة واحدة هي طبقة الجاه الموروث والبورجوازية الكبيرة . ويومذاك لم تكن الموجة الشعبية العارمة التي دفعت بها ثورة جمال عبدالناصر في الوطن العربي الكبير قد ارتفعت واتسعت وكانت السياسة « التقليدية » هي الراجحة . وكان للنظام اللبناني حسنة رافقته حتى اندلاع الحرب الاهلية التي نحن بصددها ، هي حرية القول ، لا سيما في الحقل السياسي . ففيها متنفس لما تضيق به الصدور وتبرم به العقول .

وكان فساد الحكم بانتشار الرشوة والمحسوبية في اواخر عهد المرحوم الرئيس بشارة الخوري ، وتجديد الولاية له رغم ذلك ، سببا في اول انتفاضة شعبية قادها ثمانية نواب من مجموع ستة وسبعين ، وكانت هذه الانتفاضة بقيادتها وجنودها بعيدة كل البعد عن الطابع الطائفي ، وقد نجحت في ارغام الرئيس على الاستقالة ، ثم انتخاب السيد كميل شمعون رئيسا جديدا للجمهورية في صيف ١٩٥٢ .

وكان السيد كميل شمعون معروفا بعدم التعصب وبشعبيته في المنطقة الاسلامية من دائرته الانتخابية ، والتصاقه بالعرب يدافع عن قضيتهم الكبرى « فلسطين » ويتنقل بين عواصمهم حيث يستقبل استقبال الاصدقاء الخلص .

ومع ان عهد الرئيس شمعون لم يثبت انه أقل فسادا من عهد سلفه ، فقد ظلت الامور تسير في لبنان سيرها الطبيعي الى ان وقعت حرب السويس عام ١٩٥٦ وخرج منها عبدالناصر منتصرا ، والغرب الاوروبي،ممثلا بفرنسا وبريطانيا مهزوما ، وعندذاك حدث « انقلاب » في نفس الرئيس شمعون وسلوكه ، فاذا به يحس وكأن الحماية الغربية التقليدية لمسيحيي الشرق قد تقلص ظلها وانتهى امرها . فسارع الى تبني مبدأ ايزنهاور (الرئيس الاميركي حينذاك) بملء الفراغ ... أي انشاء بديل في الشرق العربي عن النفوذ الغربي الاوروبي التقليدي ،عرف بحلف بغداد ، وألف شمعون مع نوري السعيد والملك حسين الثلاثي العربي الذي يدعمه ، فيما كان عبدالناصر يحاربه ومعه بقية الدول العربية ، بما في ذلك السعودية التي كانت تعارض الحلف المذكور ، لا كرها بأميركا والغرب ، بل خوفا من ان يستقوي به المحور الهاشمي بغداد — عمان .

ويعزو بعضهم تصرف الرئيس شمعون على هذا النحو ، اما الى رواسب مسقط رأسه « دير القمر » المتحدرة من مذابح عام ١٨٦٠ وهروع فرنسا لانقاذ الموارنة ، واما لكونه « صديقا » سريا لبريطانيا ، واما للامرين معا . المهم ان شرخا قد نشأ في اعقاب موقفه هذا بينه وبين القاعدة العربية اللبنانية العريضة التي آزرته وحملته الى رئاسة الجمهورية . وجرت انتخابات عامة عمل فيها الرئيس شمعون بالمشروع وغير المشروع على استبعاد معظم قادة المعسكر العربي في لبنان ، والاهم انه ، وهو الذي لم يعرف عنه تحمس لحضور القداديس في الكنائس ، راح يطوف على الكنائس في مختلف الارجاء ،

لابسا مسوح « بطرس الناسك » داعيا من طرف خفي لا الى حرب صليبية بل الى « وعي صليبي » ينبه الى « الاخطار المحدقة » بمسيحي لبنان وسائر الشرق من جراء المد الناصري « المهدد » بطابعه القومي العربي التحرري من كل نفوذ اجنبي ، التقدمي على الصعيد الاجتماعي .

وهكذا ، حدثت ثورة ١٩٥٨ على شمعون وسياسته في مؤازرة حلف بغداد . ولم تأخذ هذه الثورة أي لون طائفي ، لان كثيرين من التقدميين المسيحيين انضموا اليها أو ناصروها أو لم يحاربوها . ونجحت في تحقيق اهدافها ، رغم انتهائها بصيغة التسوية اللبنانية الشهيرة « لا غالب ولا مغلوب » ، فقضي على حلف بغداد قبل ان يبصر النور وحيل بين شمعون وتجديد ولايته في رئاسة الجمهورية .

●

كان القصد من رواية هذه التفاصيل اثبات شيء أساسي . هو ان المسلمين في لبنان لم يقوموا يوما بثورة من أجل الحصول على ما هو حق لهم في الحكم والادارة والجيش . وهذا على الرغم من استفزازات شمعون واستفزازات الكتائب التي استماتت في خلع الطابع الطائفي على ثورة ١٩٥٨ واظهارها بمظهر صراع مسيحي ـ اسلامي . فالمسلمون كانوا يتسامحون أو قل يتريثون في اثارة مسألة « الامتيازات » التي ينعم بها المسيحيون، لا سيما الموارنة ، بموجب العرف والدستور والميثاق . لكنهم لم يكونوا يتسامحون او يتريثون في شيء واحد ، هو ان يعود « لبنان » مقرا او ممرا للاستعمار .

ومع ذلك ، لا نستطيع ان ننكر ما ايقظ موقف شمعون والكتائب من حس طائفي عام في البلد ، وهو حس كان آخذا في التضاؤل . لكن موقف الرئيس فؤاد شهاب قائدا للجيش ، ثم خلفا لشمعون في رئاسة الجمهورية ، موقفه سواء في ممالأة السياسة العربية الناصرية او في اعتماد مبدأ «المناصفة» في الوظائف بين المسلمين والمسيحيين ، راح يعيد المياه الى مجاريها شيئا فشيئا الى الوطن الصغير . ولنذكر بأن الوجود الفلسطيني لم يؤلف في ثورة ١٩٥٨ عاملا بارزا بأي شكل اللهم الا على صعيد العواطف . فالفلسطينيون لم يكونوا قد تحولوا باعداد متصاعدة من لاجئين الى فدائيين . كانوا لا يزالون اداة طيعة للسلطة ... هذا ان لم تقل موضع نوع من انواع « الاضطهاد » .

على ان نظام الرئيس شهاب الذي كان فيه الحكم مقسما بين سلطة حقيقية للجيش « ـ بواسطة المكتب الثاني » ـ وسلطة رجراجة للواجهة الديمقراطية ، لم يثبت أنه افضل مما سبق ، لا من حيث محاربة الفساد ولا من حيث التصاقه التصاقا عضويا بالقضايا القومية العربية . فالفساد أخذ ينتقل تدريجيا من صفوف السياسيين الى صفوف العسكريين لا سيما بعد انتهاء ولاية الرئيس شهاب وحلول الرئيس شارل حلو محله ، مع بقاء النفوذ للمكتب الثاني . كما أن التعاطف مع القضايا العربية ظل مقتصرا بوجه عام على التأييد الكلامي . ولم يبذل أي جهد حقيقي لتعزيز الجيش بحيث يصبح قوة ضاربة أو قوة صمود مع سواه من الجيوش العربية المجاورة في وجه اسرائيل . وانما عزز بوصفه التقليدي « قوة قمع » أو شرطة خارقة لحماية النظام وامتيازات المستفيدين منه .

وغني عن البيان أن المجتمع اللبناني كان يتطور بفضل الايام والاحداث . وكان يساعده على مزيد من التطور هذا النظام نفسه ، بما فيه من حسنات وسيئات. كانت الحريات السياسية والصحافية النسبية تتيح له التفاعل بتبادل الاراء ، وكل انواع الصراع الفكري ، كما كان النظام الاقتصادي الحر ، بل « الفوضوي » بما يتيح من تكديس الثروات بالحلال والحرام ، وغالبا بالحرام ... (وهو تكديس ساعد عليه بقاء لبنان وحده تقريبا متحررا من نفقات الدفاع ، منفلتا من قيود التوجيه وطلائع الاشتراكية العربية ، الى جانب تزايد واردات النفط) قد بدأ يغير وجه لبنان الطبقي المألوف المتمثل في تقارب نسبي فيوسع الهوة بين الطبقات ، ويرفع مستوى العيش على الطبقات الفقيرة والمتوسطة حتى اصبح بدل ايجار البيت المتواضع يأكل نصف دخل العامل والموظف .

بالطبع ، كانت هناك جهود لتوفير الضمان الاجتماعي ، لكن هذه الجهود كانت أضأل من ان تسابق موجة ارتفاع الاسعار ، وموجة تزايد المطالب .

المهم أن اليسار اللبناني الذي أشرنا اليه انفا ، تكون تحت ضغط عوامل داخلية وعربية وخارجية . وكانت نكسة ١٩٦٧ بمثابة السوط الذي الهب ظهر العوامل جميعا .

ولئن كان العامل الطائفي (الاسلامي) يلعب دورا في صفوف هذا اليسار ربما في اعماق الحس ، فهو لم يكن يلعب دورا فاعلا على صعيد النضال . كان النضال عربيا صرفا ، تحرريا دون شك ، جانحا الى العدالة الاجتماعية ولون من الوان الاشتراكية ، متعاطفا في الخارج مع القوى الاشتراكية المناوئة للاستعمار بشكليه القديم والحديث . اما اليمين ، فعكس هذا كله .

وكان من طبيعة الاشياء وقوة الاشياء ، أن ينشأ تعاطف وتجاذب بين اليسار اللبناني والمقاومة الفلسطينية لان البنية واحدة ، والاهداف واحدة . فاليسار اللبناني يعاني على ارض الوطن ـ بسبب حكم اليمين المدني والعسكري على السواء ـ نوعا من الغربة . والمقاومة الفلسطينية تعاني على هذه الارض غربة مزدوجة . وكل غريب للغريب نسيب ..

وهنا لا بد من توضيح شيء مهم . وهو أن اليسار اللبناني لم يقم بأية حركة ، بل ولا بأي تحرك في سبيل الحصول على مزيد من النصيب في السلطة والوظائف ، لاغراض مادية . وان الفلسطينيين لم « يدفعوا » اليسار الى المطالبة بحقوقهم المهضومة ... كل ما حدث ان اليسار تضامن مع الفلسطينيين ضد السلطة حين حاولت مرتين ، مرة في عام ١٩٦٩ ، ومرة في عام ١٩٧٣ ، تصفية المقاومة . واستطاع اليسار ان يحبط المحاولتين .

وفي المحاولة الثالثة عام ١٩٧٥ ، استيقظ اليسار على حقيقة لا مفر من أخذها بعين الاعتبار . فنظام الحكم اللبناني القائم لم يكن مجرد نظام امتيازات لفريق من اللبنانيين ، في حقل السلطة والمنافع الاقتصادية والثقافية، بل كان اداة خطرة في أيد غير مأمونة على عروبة لبنان ، وعلى المصير العربي كله . ادرك اليسار أن لا بد من تصحيح هذا النظام لدرء هذا الخطر . لا سيما حين رأى السلطة المحصورة في رئاسة الجمهورية (المارونية) تتعاون مع قوى « شعبية » مارونية انخرطت في « ميليشيات » دربت وسلحت ضد الوجود الفلسطيني من جهة ، وضد الانتماء العربي والولاء العربي في لبنان من جهة ثانية .

هكذا انفجرت الثورة في لبنان . فجرها اليمين اما ليقطع الطريق على امكان تعاظم اليسار وعلى حرمانه بالطرق الديمقراطية ما تمتع به على امتداد خمسين عاما من امتيازات ومكاسب ، واما مدفوعا من قوة خارجية لتصفية المقاومة الفلسطينية واليسار دفعة واحدة . واما للهدفين معا . وبذلك ترسخ التحالف العضوي بين الفريقين المستهدفين لخطر الابادة ، وهبا للدفاع عن النفس .

وانه لمن الهزء بالحقيقة ، وامتهان الشعبين اللبناني والفلسطيني ، ان يصور بعضهم الحرب الدائرة في لبنان منذ حوالي ستة عشر شهرا على أنها « اقتتال طائفي » ومن أجل مكاسب مادية . وان حافظ الاسد حين وقف ذات يوم ليقول في اجتماع عام « ان ما يقتتل اللبنانيون من أجله لا يستحق ذبح دجاجة » ليؤكد أحد أمرين : اما ان الرئيس السوري لا يستحق المكان القيادي الذي هو فيه لجهله ما يجري حوله جهلا مطبقا ، واما انه مولع بالدجاج الى حد تفضيله على الوف ارواح البشر ..

ان اليسار والمقاومة قاتلا ويقاتلان في لبنان من أجل عروبة لبنان ، من اجل خرطه في صف الدول العربية المتحررة ، من أجل سلامة الوجود الفلسطيني الذي لم يتفتح ويزدهر سياسيا وعسكريا على أي ارض عربية تفتحه وازدهاره على ارض لبنان ، بفضل مؤازرة شعب لبنان العربي . فأن كان هذا كله لا يستحق ذبح دجاجة ... في نظر من يدعي قيادة جزء كبير من النضال العربي التحرري ، فما الذي في نظره يستحق أغلى التضحيات وأندر البطولات ؟

الواقع ان الدور الذي أدته سوريا في المأساة اللبنانية ـ الفلسطينية هذه ، قد تجاوز كل حدود التوقع والتصور . فمن كان يخطر له حتى في المنام ان سوريا تقف من هذه الاحداث العربية التاريخية موقف المتفرج ، ثم موقف الوسيط « المحايد » ، ثم تسفر فجأة عن وجهها ، فتصبح طرفا في النزاع ، يساعد الفريق الانعزالي الرجعي ويصب جام نيرانه من كل الاسلحة ، حتى سلاح الحصار والتجويع ـ على فريق العروبة والتقدم ؟

ان سوريا ، عند محاولة فرنجية وقائد الجيش اللبناني اسكندر غانم تصفية المقاومة الفلسطينية ، سارعت فأغلقت الحدود . كان هذا التدبير السريع عاملا بارزا مع بقية العوامل (رد المقاومة وتأييد اليسار لها) في وقف الهجمة الانعزالية وخنقها في المهد . فلماذا وقفت سوريا عام ١٩٧٥ موقفا ادهش الاعداء قبل ان يحير الاصدقاء ؟

ان موقف سوريا هذا جاء اخطر وأبشع من موقف الملك حسين نفسه في ايلول الاسود عام ١٩٧٠ . فملك الاردن على الاقل لم يحسب يوما على قائمة العروبة المناضلة التقدمية كما هي حال سوريا . وهو لم ينكر انه يقاتل الفدائيين ، ولو انه زعم مقاتلة الفدائيين «غير الشرفاء » .. وحركة المقاومة حينذاك لم تكن قد اتخذت المكان العربي والدولي الذي لها الآن . فما الذي دفع دمشق الى ركوب هذا المركب الخشن الى جانب التهافت على ابادة اليسار اللبناني، حليفها الطبيعي ، لو صح انها على الطريق الذي تدعيه ؟

سواء كانت هناك مؤامرة او انها قامت فيما بعد أو أنها لم تكن ابدا ، فلا مفر من تسجيل الوقائع التالية:

١ ـ ان الولايات المتحدة الاميركية « باركت » المبادرة السورية منذ البداية ، ولم تعترض عليها حتى حين أصبحت تدخلا عسكريا على اوسع نطاق ممكن .

٢ ـ ان اسرائيل نفسها وقفت موقفا مماثلا او مشابها للموقف الاميركي . وكانت تبدو فرحة بالغزو السوري للبنان .

٣ ـ ان نظام حافظ الاسد الذي اقام الدنيا على اتفاق سيناء ، لانه ضرب القضية الفلسطينية وطلق التضامن العربي ، أقدم « منفردا » هو الاخر على ضرب الفلسطينيين . فما فائدة تحرير الارض الفلسطينية ـ هذا في حال قدرة حافظ الاسد على ذلك ـ بعد القضاء على شعلة الشعب الفلسطيني وثورته ؟

٤ ـ ان دمشق حافظ الاسد قد امطرت العرب والعالم بوابل من الكذب قلما سبق له مثيل . فهي فيما كانت مدافعها وقاذفات صواريخها تصب حممها على معاقل الفلسطينيين واليسار اللبناني ، كانت لا تنفك

(معركة لبنان)

عدد خاص من « الآداب »

العدد القادم من « الآداب » ، الذي نرجو ان نتمكن من اصداره في شهر ايلول (سبتمبر) ، سيكون عدداً خاصاً ب « معركة لبنان » ، وسيضم أهم ما استوحاه الادباء والمفكرون العرب ، شعراً وقصة ودراسة ، من هذه المعركة البطولية التي التحمت فيها قوى الثورة الفلسطينية والثورة اللبنانيــة .

تؤكد أنها لم تأت الى لبنان لضرب الثورة الفلسطينية ، وانما جاءت بمهمة قومية انسانية ، هي حقن الدماء والحيلولة دون التقسيم . وبينما كانت قواتها تفك الحصار عن مواقع الانعزاليين وتوفر لهم ما تيسر من المؤن ، كانت تفرض حصار التجويع على مواقع الفلسطينيين والحركة الوطنية اللبنانية برا وبحرا وجوا. كما تزعم دمشق أنها مختلفة مع « بعض » الفصائل الفلسطينية ، فمع أي فصائلهم هي متفقة عدا «الصاعقة» التي هي صنيعتها ؟

٥ ــ تساءلت دمشق هل تكون جونيه (« عاصمة » الانعزاليين الموقتة) وغيرها من قرى الجبل الطريق الى فلسطين المحتلة ؟ فهل لنا أن نسأل دمشق : هل تكون صوفر وصيدا وبيروت الطريق الى الجولان أيها الاخوان؟

سادسا ــ تلوم دمشق المقاومة لانها « تدخلت » في شؤون لبنان الداخلية ، وناصرت فريقا على فريق . فمتى حدث هذا التدخل ؟ او لم يكن دفاعا عن النفس بعد اعتداء الفريق الانعزالي على الامنين وغير الامنين من الفلسطينيين ؟ وهل كانت دمشق تنتظر ان نقف المقاومة موقف الحياد والمساواة بين الذين يريدون تصفيتها والذين قاتلوا وقتلوا من اجل بقائها ؟ أهكذا نفهم دمشق روح الاخوة والتضامن ؟ الصحيح انها فهمتها على أسوأ من ذلك .. حين راحت تقاتل في صف الانعزاليين والمنحرفين والرجعيين وتقتل الاشقاء الحقيقيين .. مما تهتز له عظام شهداء سوريا في قبورهم غضبا وغيظا .

سابعا ــ حتى كتابة هذه السطور ، كانت مساعي جامعة الدول العربية ما انفكت تتعثر « لوضع حد للمأساة » العربية في لبنان . وذلك بسبب مداورات دمشق ومناوراتها . مع العلم بأن هذه المساعي هي اصلا في منتهى الميوعة والبطء ولم تتكشف لحظة واحدة عن رغبة في الحسم ،مما قد يفضي الى أوخم العواقب .

مهما يكن الامر ، فأن الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية وطليعتها اليسار اللبناني ، تقاتل في بسالة ما بعدها بسالة دفاعا عن حقها وبقائها . بل دفاعا عن كل ما هو نبيل وعظيم في تاريخ امتنا ومصيرها . ان قتالها على ارض لبنان ليس أقل شرفا وفعالية من قتالها على ارض فلسطين المحتلة . فالشعوب الحية طالما قاتلت حيث تستطيع وحيث تقضي الحاجة في سبيل البقاء . وهو قتال لتحرير الانسان العربي اولا . فما جدوى تحرير الارض ان كان هذا الانسان سوف يحيا فوقها في ظل نظام كنظام الملك حسين او حافظ الاسد ؟ هذا مع العلم ان الاحرار وحدهم هم القادرون على تحرير الارض وما عدا ذلك هراء ووهم ، والدليل ان من يعجز عن تحرير الجولان « يتلهى » بغزو لبنان !...

محمد النقاش

*** مقدمة الترجمة العربية لكتاب بيار فالو : « لبنان على فوهة البندقية » الذي يصدر عن دار الاداب هذا الشهر .**

حسين جليل

وطن كبير للحـــزن

« الى اصـــدقائي في بيروت ... والجـزائر ... والرباط . »

١ ـ سؤال :

من منكما القائل ،
والقتيل ،
حين تحرق الانهار ،
والاشجار ،
والبيوت ؟
من منكما ،
يولد في النار ،
ومن يمـــوت
ما أعظم السر ،
وما أحزنه سؤال
لو تنطق الابار ،
لو يسمعها الرجال .

٢ ـ الليـــل :

رباه ،
في ليل ...... يضيء سكونه قمر يتيـم
لـم يبـق ،
الا صوتك السري ،
تهمسه نجوم الخوف ،
عبر السور ،
في غسق الجحيم
وقصيدة للحب ،
يهديها .... الى الفقراء
ثوري قديم .

٣ ـ الرحله :

ـ١ـ

في زمن الخوف ،
في « الوطن الملعون » ،
لا يقتلُ النبيُّ ،
الا ....
حاكم .. يخاف ان يسقط في البئر ،
والا ....
«ثورة» .. تخاف أن تكون .

ـ٢ـ

في زمن الخوف ،
في « الوطن الملعون » ،
في ساعة ،
يرفض ، فيها ، الماء
أن يخون
تورق نار الحب ... في العيون
ويبدأ الرحلة ...... عاشقون
في غابة الحـــزن
يغنـــون
ويحلمون .

٤ ـ طيور الخوف :

الثائر .... يحلم ،
والخائن .... يحلم
لو أن الموت يموت .
وعلى أفق « الوطن التابوت » ،
تورق أشجار الدمع
تذوب سيوف الشمع
تنشق مرايا الاسرار ،
تقف الانهـــار
تتساقط أقنعة الصوت
يموت الموت
لكن طيور الخوف ،
تظل تدور ،
تدور ،
تدور .

٥ ـ علامه :

ـ١ـ

وطني ،
كان ، على الافق ، علامه ،
كان ، في القلـب ، علامه .

ـ٢ـ

وطني ،
كان ، اذا أطبق ليل الخوف ،
لاحت نجمة الحب ،
على الدرب ،
علامه .

ـ٣ـ

وطني ،
كان ...... علامه
وطني ،
صار ...... علامه .

٦ ـ الشعر :

في بلادي ،
في بلاد الحب والخوف ... وحزن الاغنيات
تتهاوى الكلمات .
في بلادي ،
في بلاد الثورة ـ الافيون ،
في ارض « يهوذا » و « المسيح »
يتوارى الشعر ،
في منفاه ،
في الحرف الذبيح .
في بلادي ،
يكتب الشعر :
فقير ،
وأسير ،
وجريح .

٧ ـ وطن الحزن :

ـ١ـ

وطني ،
طفل ،
في ليل العالم ،
تذرف عيناه
دموع يتامى الحرب .

ـ٢ـ

وطني ،
قمر العشاق الفقراء ،
يتألق ،
عبر الاسوار الصخرية ،
يسأل ،
في حزن « الغربة .... » ،
عن « وردة حب » .

ـ٣ـ

وطني ،
نسر مذبوح ،
في الشرق ،
جناه المقطوعان ،
وفي الغرب .

ـ٤ـ

وطني ،
جرح ينزف ،
سكين ... تقطر ،
في قلبي .

بغـداد

محمد القيسي

محمد الثاني يزف إلى سارا ..

وينفخ في الصور ، يطلع عشب من البحر ..
هذا هو الابيض الساحلي ، المدى ، والكتاب
هو الآن يأتي ويذهب ،
يغفو ويلعب ،
والسيد النبع ..
يلهج باسم الندى والتراب
ويحلم :
عرسك مشتعل ، وجوادك يركض
ان الطفولة تنهض
فاتحة للحساب

وكان على شاطيء ينتهي
أمام ارتعاش الغزالة شمسا وليلا
وكان محمد يصعد تلا
ويأتي الى المسرح البلدي ..
من الجوع والرق ، يطرح أسئلة ،
ثم يمضي وملء يديه الرياح ــ الجواب
فتأخذ منه الكهوف ، المسافات ، والانتظار المسائي ،
وجها وظلا
وقال محمد :
ماذا عن البصرة اليوم ؟
كان الخريف يجيء
ووجهك منطويا لا يضيء
وما كان يمزح
في يده النصل والجرح ..

ان محمد يشهد ان زمانا من النفط يأتي ..
على عشب البادية
وينفخ في الصور ،
لكنه يسأل الآن عن هذه الموجة الغازيه
عن الابيض الساحلي ،
عن النبتة الذاوية
لماذا تبالغ في حبها ..
أيها السيد المتأجج فهي بأصفادها لاهيه
وهم خلفك الآن ضد عرار الجزيرة ،
ضد الرؤى الفاعلة ؟!

ويا سيدي تمطر الان كل الجهات
وتنتحر القبرات
حدادا على قجمة ذابله
وتخرج من نومها الاغنيات
وأنت تواصل هذا الرحيل ، وتسأل عبر الليالي الطوال
عن الحب والشمس والبرتقال
وتجدل من ساحل الموت باقة ورد ،
لأيامك الآتيه
وتمتد افريقيه !

آه آسيا
هكذا أقطف التفاح
وأرمم مِحتوياتي
ما من عقار الا وقابل للبلى
ما من أحد عرفك الا وأحبك
ما من رجل احبك الا وقال آه
آه آسيا
البلاد تطلب أهلها ــ قال الغريب ــ
وانا آخذ في العدّ التصاعديّ حتى الطفولة
بلدا بلدا
ومدينة مدينه
من الخليج الى البحر
من المغرب الى المشرق
ومن مئذنة محدودبة ، الى سنة هجرية
حفلت بأسباب القيامة
أية رعشة تسكن خاصرة الجبل !
والارملة بلا ساعد
في حين
تأتي الطائرات السياحية اليها وتذهب
وانا آخذ في العدّ التشرديّ
من اللحد الى المهد
أية رعشة تسكن الغريب. !

وينفخ في الصور ، لا وجه تلقى
وتركض .. ها أنت تشقى

تشق العنان جيادك ، تدنو بلادك ،
هذا هو الابيض الساحلي ، المدى والكتاب
وبيروت ليست سوى فاصله
وما أنت الا المجلل بالشوك تمشي الى الجلجله
وبين يديك الحراب

– الى أين يمضي معلم قلبي ؟
● الى ياسمين الضحى .
– وما الياسمين ؟
● بلاد مهددة بالخريف ، محاصرة بالرغيف ،
بلاد تراوح أشجارها في دمي ،
واسمها في فمي ،
آه أمي ..
ولا شيىء الا كآبتها والغياب .

– وما يفعل الوقت ؟
● يدني خطاي اليها ..
– وماذا تقول الخطى ؟
● اسألوها
هي الآن واقفة ، عند حد المسافة والحلم ،
واقفة في ارتقاب انفجاري
وترصد موتي الجميل
هي الآن مهري ، وماء السبيل
أسجل موتي بعيد
وهذا طعاميَ عشب ، حصى ، وأريد
لهذا المساء نبيذا ولوزا
ليبدأ في ليلها الساحلي نهاري
وراح يعانق صفصافة عاليه
على باب افريقيه .

هي الآن في عرسها الاشتباكي
تحلم في ثوبها الليلكي
بعمر جديد
هي الان في عرسها
مطر من أمسها
وأرى غدها مهرجان

هي الآن في نومها
حلم من حلمها
راكض في الزمان
هي الآن في أسرها
جارة للنخيل تهزّ ، فيساقط الليل في
حجرها
بلحاً ناضجا وأمان
هي الساح والوثبة المقبله
وما قالت الريح السنبله
ولكن افريقيه !

وقال الاسير : اسجل موتي بعيد
وأحيا انتظاري .
وألقى من الكوة الواطئه
وشاح المرائي ،
وتابع :
ألقاك سيدتي في مساء جديد
وأنت مداري .
وغنّى لشمعته المطفاه .

سيدة الشجى الاصيل والرحيل
تطلعين من كل نأمة الي ، ومن كل فاصله
فكيف تقولي البعاد ، وكيف تقولي النهاية ؟
حاضرة أنت في الكلمة والدمعة والسيف
حاضرة في اشعاع الصبح القادم ،
في أغاني المساء
حاضرة في المراعي ، وحاضرة في البراري
الوسيعه
حاضرة في القلب
حاضرة في الغياب ، في التذكر ، وفي اتساع
الجرح
حاضرة في غرف الصدر ، وحاضرة في
الشجر الاخضر
حاضرة في الاعشاب والندى والسنابل
حاضرة في الحقول والفصول
حاضرة فيّ وحاضرة في اليوم الآتي
في هذا الشفق ، وهذا الافق ،
وحاضرة في الاشياء
ليس للفراق سلطان علينا ولا للرحيل
يا مبتدأي ومنتهاي .

ويبدأ في عز عافية الموت والاشتعال
ويبدأ من ساعة الصمت والبرتقال
ومن ساحة تغلق الآن أبوابها الحجرية ،
يبدأ من لغة لا ترى في الحصار
سوى أفق لاهب .
انه الآن ينشد اغفاءة هادئه

على صدرها الناحل العود ،
فوق سرير الرمال .

وما كان يمشي وحيدا
ولكن هذا الغفاري ،
يجمع اضلاعه من صحارى البلاد
مراكب جاهزة للرحيل ،
حقائب للقادم المستحيل ،
ويخرج من مزن الاضطهاد

ويعرف :
صفصافة النهر لا ترتدي خوذة ،
والمرابون لا يمهلون
فهم واحدا واحدا يكشفون القناع ،
البنادق تنفر مزدانة بطلاء السيادة ،
والبصرة الآن غافية ،
ليس هذا جلال الشهادة ،
ان محمد يمشي اليها ، يفجر لغم القفار
ويحلم في مهرجان التجول واللون ،
يحلم في لمسة دافئه

ولكن بيروت لا تمهل الزنج ،
بيروت لا تمنح الماء والخبز ،
لا تعرف الحب والعدل ،
بيروت قناصة ، وحواجز ضد الزهور ،
وضدّ العبور الى الشرفة الثانية
فياليلَ افريقيه !

سلاماً على اطفالنا المحاصرينْ
سلاماً على بناتنا الباكيات
سلاماً على الحجر والطريق التي مشينا
سلاماً علىَ البحر
سلاماً على الاغاني
سلاماً على اصطفاق الموج في الصدرين
سلاماً على أيامنا التي مضت والتي تجيء
سلاماً على الغابة والصحراء
سلاماً على الحديقة التي زرعنا في الحلم
سلاماً على الذاكرة التي تحفظ لنا هذا الحب
سلاماً على القلب
سلاماً على الفقراء والناس المنتظرين
سلاماً على تل الزعتر
وسلاماً على اشقائه المتناثرين في مدى
اللعنة والذبح

سلاماً علينا معاً .

وكان لنعناعة الدار يمشي ..
ويزرع نرجسه فوق خوذته ، حين دوّى المخيم
بالدّبكة الدموية ... كان يزف لسارا البعيدة
سارا الوحيدة ، كانت وجوه الصبّيات سارا
وكان المساء الرمادي ،
كان المدى الذهبي ،
إناء لازهار سارا ، وكان يجمّع أعضاءها
من أغاني الطريدات في حلقات المخيم ، كان
محمد يمشي لنعناعة الدار في يقظة ،
تصل النبعَ بالرمل
والدمَ بالفلِّ ،
كانت جميع البيوت
توقّع تهليلةَ الجرح ،
كانت تشكل حلماً الى القمح ،
يوماً الى الصبح ،
كان محمد يسبح في زرقة لا تموت . .

١٩٧٥ – ١٩٧٦م

عالية ممدوح

مقبرة الصور

الى « ج »

يستعد لاشعال شمعة بعد انقطاع التيار الكهربائي ، وكل شيء من حوله رطب ، غابة الصور الميتة تحيطه ، ورائحة الغرفة كانت اشبه برائحة حطب تعفن واحترق ، والات للتصوير كبيرة وصغيرة ، وكاميرات قديمة موضوعه على طاولة تشرح العهد الاول للصور البدائية، وبعض الاوراق وزعها على الجدران ، رسمها بيده لانه لم يكن بقادر على تصويرها ألبتة .

وكان وجه الرجل سخيا بهذه المسرة الصغيرة ، التصوير . عيناه شاسعتان لا تستقران في مكان . وشارباه متصلان بلحيته مع بعض فراغ في اعلى الخد ، وشفتاه ملسوعتان منفرجتان على اسنان متناسقة كبيرة بيضاء جميلة . كان وجهه يذكر بوجوه صعاليك اسبانيا القديمة، او مناضلي امريكا اللاتينية ، لكن الذعر كان يتوارى من بدنه وحركة عينيه عندما يمسك الة التصوير ، ويتجنب اطلاق الاوامر .

ظلت الشمعة تلقي ظلالا مختلجة على بعض الصور ، فتبرز الاذان كبيرة ، والانوف ممطوطة ، والعيون جامدة ، والشفاه مقلوبة ، وتظل هذه الخطوط عارضة نفسها حتى يهب الضوء فجأة في الغرفة وترتعد كل الموجودات دفعة واحدة .

(لماذا تأخرتم ايها الرفاق في الحضور ؟)

ذات يوم ، قال له احد الرفاق :

ـ عندما تصورني فأنت تدخلني في الفن وتخرجني من الحياة (ولكن) .

ـ صورك تغريني بالتجمد ، وانا أكره ان اذوب هكذا .

(لكني احب وجوهكم ، ابدانكم ، ذعركم .. و ..)

ـ في الصور يجد المرء نفسه وحيدا ، حتى لو كان داخل فيلق من الجند والاسرى والجنرالات .

كان يعاند هوسه بمزيد من الاوضاع للوجه / والعيون والايدي الاصابع / الملابس / الانحناء / والصمت ، الضحك / التجلي / الحلم / الخشونة .

(عندما أصوركم أراكم معبودين اكثر) ظل يحلم باحلامهم ، لكنه لم يقف عند هذا الحد ، صور المرأة التي يحب ، وصرخت به قائلة :

ـ انك تضجرني ، تك ، تك .

ـ اغضبي ، احب الصور الغاضبة .

وعندما يأخذها من يدها وهي لا تقاوم ، يضغط قليلا ثم ينزلها على السرير امامه ، يرفع ثوبها ، ينحسر الثوب عن ساقين سمراوين ، يرفع احدى الساقين الى اعلى ، ويترك الاخرى مستقيمة ، كانت المرأة تبزغ في تلك اللحظة ، والرجل يتناول آلته بسرعة قبل ان نستولي على المرأة نوبة سأم جديدة .

(الصيحة الاولى لا تشبه الصيحة الاخيرة ، اصرخي آلان ، نوجعي .)

ـ انك تتحدث بلساني في الصور ، تريد ان تحل الغاز جسدي، فماذا سيبقى لي ، كلما صورتني أحسست بالتحنيط ، وانت تعرف ذلك تماما .

هذه الكبرياء ، وتلك الشهية تتبددان من داخل رأسه ، الهمس الكتوم ، وصوت العويل ، وشحوب الوجوه ، ورعب الموت ، بعد كل هذا الايحاء ، الا تكفي ان تكون الصور فضيحة ايضا ؟

كانوا يتنابون على دعوته في الاعراس والحفلات والمواليد ، والمناسبات ، في الكوارث ، والصواعق ، والمفاجات ، لكن بعض الاستفتانات ما كانت لتصور ، ولما كانت آلته قادرة في بعض الاحيان على التصوير السريع فقد كان يدخل في نوبة من الكآبة .

لم يجد حتى الان الدور الذي يلائمه ، فلم يكن حفيد فنان ، كان التصوير والآلات والورق والظلمة والحماس الذي يصاحب القلب والمفاجاة من لعنات بعض الوجوه ، واشمئزاز البعض الاخر ، واللعب التي تهب نفسها وكل مظاهر هذا الكرم ، التصوير : انه كالغريزة . لما أخذه والده الى حديقة الحيوان ، وكان عمره ثماني سنوات ، رأى الاسود داخل اقفاص حديدية عالية وقذرة تماما . كانت اللبوءات في الداخل ، والاسود في الخارج وتخرج اللبؤة بخيلاء وتتمسح بالاسد ، الذي يظل عابس الوجه على الدوام . احس ان اللبؤة كانت تشعر بالذنب قليلا ، والاسد كان يعاني من الوهن . لكن حركة الاسد كانت مريبة ، انه يدور ويدور في حيز ضيق جدا لا يتسع لاهوائه ولقدميه ، وظل رأس الطفل يدور ويدور مع كل حركة من حركاته ، كان يرى نفسه اسدا داخل هذا القفص . وصرخ قليلا ثم هرب الى الشارع . في اليوم التالي اخبره والده قصة الاسد الذي مات كمدا ، بكى كما لو ان والده مات ، ومنذ ذلك التاريخ ناضل طويلا كي يحتفظ باحساسه ازاء الاحياء كي لا يموتوا .

لكن هذه الذكريات الفضة مجرد اغراءات تدوخه ، كان يتقبل التهاني بصوره وحده ، وكلما التفت في الغرفة خشي ان يسمع عويل احداها .

يوم ذهب الى المخيمات ، كانت الكاميرا على كتفه ، ووجهه لا يحمل أي اسف او مرارة ، لقد كان هناك من اجل الموت فقط ، صور اشلاء الفدائيين ، وبحث عن الحكمة من جراء هذه الصور .

لم يكن يفكر بالموت ، ولم يكن يخشاه ، كان الخطر الوحيد الذي يخافه ان تأتي الصور قريبة من الغموض .

في تلك اللحظات كان يفكر ، متى يتبول الفدائي . وكيف ، وفي خبث ونظرف كان يمسك آلته ويكاد يرميها قائلا : (أريد احدا يصور ما افكر به) .

عندما كانت الطائرات تقصف في الجنوب ، والفتيان يحركون ابهامهم للضرب كان هو يتجول في وجوههم ، وكانت الطبيعة كتومة الى حد الحياء . ظل يصور ويصور ، ليالي ونهارات ، الاضلاع المهشمة ، والرؤوس المحطمة ، والابدان المثقوبة ، والافواه المطفاه ، والاصابع المتورمة ، الا انه تردد في تصوير احشائهم ، كان يعلم ان هذا التردد قد اتاح له الانفصال الجديد عنهم ، امام تلك الابدان المصفحة

بالشمس ، الهادرة بالنبل ، كانت ترتج آلته عائدة الى كتفه تحت وقع نبضهم . وهو يصغي الى صراخ اولئك المحاصرين في الكنائس والجوامع والحارات والشوارع . كانت جميع الصور لا ترضيه في تلك اللحظات ، الا انه صور ، كما لو انه كان يحارب ، وكان يصرخ من بين مقابر الصور تلك : (هذا احتيال) .

(ان الاتكال على حل الالغاز لا يكفي في الوقت الحاضر) . لقد تعرف على نساء ورجال عديدين في كل سفراته ، في ارتيريا قالت له صبية زنجية حرة ورائعة ، عندما اخذ لها مجموعة من الصور :

ـ انت كئيب ، تتصور سعادتك في لحظة اخذك للصـــور ، وسعادتك بائخة في نظري .

لم يرد ، وانما صورها ايضا وهي تتحدث .

ردت عليه بنزق :

ـ اراك مثل الاخرين الذين يصادقون الزنوج وهم يؤمنون بالتميز العنصري ، صورنا ، صورنا فماذا يهم ، اننا لا نتملق هذا الاحساس بكوننا ما زلنا احياء .

يتجول في الغرفة قليلا ، يرفع بعض الصور من حوله . (في الصور لا تستطيع تميز الاخيار جيدا) .

(لو مت قبلك تعرف على غيري فورا ، ولكن لا تكلفها ذلك الوقت في الاصغاء والانتظار .)

يقرأ ذلك على أغلفة بعض الصور .

يسند ظهره على الجدار ، وينظر الى نفسه طويلا في المرآة ، رجل في الثلاثين ، هذه مخلوقاته ، وهو لا يسمع اوجاعها ، يتمشى على مهل ، ورأسه يبدأ بالاهتزاز ، ووجهه اكتسى بهذا النوع من الخوف الغامض ، كأنه يهرب من مطاردة ، منظار معطوب علق على الحائـــط كتب تحتـــه :

(من يرى الان جيدا يصاب بالعمى فورا)

وبندقية فارغة ، الصقت تحتها ورقة حمراء مكتوب عليها بخط دموي حار :

(لو دفنت معي لكان التنبؤ بما سيحل ادق) .

والسرير الحديدي الاسود العتيق كان يفصل الغرفة قسمين . والحيز الصغير المتبقي من الغرفة يوحي اليه الان انه داخل سجن ،

كانت تفوح من بعض الصور رائحة عرق قديم ، ودم مختثر ، وبصاق كثيف . وبول حيواني .

(هؤلاء وهبتهم للاله .)

يدخل المطبخ ويغيب قليلا ، يحضر كاسين ، وزجاجة نبيذ ، يصب في الكاسين معا .

يجلس على الارض ، يدفع بعض الصور ، يمدد ساقيه يرفع الكاسين معا ، يسكب بعض القطرات في فم المراة الحاضرة في الصورة، يتذكر انه يعرفها جيدا .

(انت ميتة الان)

(انني حي بعدك)

ولعنة الصور تتكدس في الذاكرة وعلى الارض ، لقد غير بعضهم مكان اقامته ، وتنكر الاخرون باسماء مستعارة ، وثياب جديدة ، ولحق البعض الاخر بالمخبرين ، وحصوروا جميعا بالكاميرا ، لقد اخـذت الصور الان الاقتراب من التنكر ، وهو يراهم الان وكأنه يراهم للمرة الاخيرة ، كان تأثيرهم نوعا من التبشير ، فهؤلاء استطاعوا فعل كل شيء وهو رجل اظهر لهم التفهم والادراك فحسب .

يمسك بلحيته قليلا ، والنبيذ عتيق ، ولكن باستطاعته ان يبتلع عدة زجاجات منه ، وليل الغرفة يبدو جافا ، وكل نوغل في احشائها كان يشعره بالاختناق .

صور ، صور ، بكل الاحجام والاوضاع ، جوارب عنيقة ، واحذيه بنصف كعب ، وثياب داخلية تحت السرير ، اغطية للرأس ، وامشاط مكسورة الحواف ، وزجاجات وكؤوس فارغة .

كان يجلس قريبا من السرير ، غير بعيد عنهم ، يمتد صمـت الصور ، ويخلف لديه شعورا بالشلل ، ها هو وجها لوجهه امـــام مخلوقاته ، يغتم طويلا عندما لا يسمع أي انين ، يفتح عينيه عـــلى اتساعهما ، ويعب كأسه الى اخرها ثم يتناول الثانية ايضا ، يشرق في وجهه هذا الاكتراث ، يرفع رأسه قليلا الى أعلى ، الى اسفل ، يتمتم كالحالم :

(ها انا اشرب نخبكم وحدي !)

اراد ان يصرخ ، ان يكذب ويصدق هنا على الارض ، لا في الصور، ولا مع الصور .

كانت صورة احدى التظاهرات الشعبية مخباة في غابة الصور ، لم ير الا زرا لسترة مدماة سقط صاحبها بين الجموع ، لم تستغرق تلك الصورة الا دقيقة واحدة ، وظلت الجموع تتابع سيرها ، واكثر ما كان يشقيه في تلك الصورة وجوه المتظاهرين الغضة ، في ذلك المساء ترك آلته ودخل معهم .

بغتة يقفز ، يبدأ في جمع كل الصور من على الحائط ، والخزانة، تحت السرير ، من الحمام ، والممر ، يجلب الاقلام الجديدة والقديمة، الالات والمنظار ، والملابس ، والاغلفـــة ، الكتب والصحف ، المجلات، المناديل ، والقطن ، وادوات التصوير . يقف في الوسط ، رجلا موثوقا به ، لا يطلب العفو من احد ، ويكل امر نفسه لنفسه ، لقد نجح في تمثيل هذه الصور ، وهو يعلم انه لن يعمر طويلا امامها ، فقد استمرت معارضه اسابيع ، وانتقلت الى كل عواصم العرب ، وحقق نجاحات خارقة ، وفي كل سفرة كان يودع صديقه يوسف قائلا له :

ـ لا تحزن طويلا اذا غبت الى الابد .

ظلت حروب العرب في ارض العرب ، مع العرب نضرب رأســه طويلا ، في عمان ، وظفار ، والاردن وارتريا . وراشيا الفخار ، تفصل لحظات نشوته ، وتدخله في الصحو ثانية ولاح في وجهه هدوء ، وبدأ بالابتسام في وجوههم جميعا .

وجوه البشر والمقاتلين ، المتظاهرين ، والبسطاء ، والدواب ، والعصافير ، الحيوانات والقرود ، والكلاب ، والاسود المستأنسه في الغابات ، والخيول ، والقطط ، والحشرات ، والنجوم ، والورود .

(هؤلاء الاحياء ، هؤلاء الاموات ، انا الحي ، الميت ، انننـي احبكم ، واكرهكم ، احبكم ، احبكم ، من يستطيع ان يطردني اليكم .)

ينظر اليهم مليا .

(يجب فك الحصار منكم)

يجلب زجاجة النبيذ ويسكب قليلا منه فوق السرير ، قطرات النبيذ تدخل اذن احدى الصور ، يضحك في السر .

(يسكر الان بأذنه)

يسكب كل القنينة ويخرج كبريتا ، ويبدأ باشعال كل شيء ، وهو ينظر الى هؤلاء . كانت النار تزحف ببطء الى كل الموجودات (هذه المرة لن تنجوا وحدكم)

يأخذ ورقة وقلما ، يبدأ بالكتابة ، لم تكن وصبة ، ولا نعوة :

« عزيزي يوسف .

كم اود لو كانت معي الان اقلام ملونة ، لكتبت لك كل كلمة بلون احدى الصور ، فالالوان هنا متداخله ، الدم والنار والنبيذ ، والماء ، والرطوبة ، والزهور البرية ، وتعاليم المسيح وسليمان الحكيم غير كافية لتقبل هذا الوضع ، انني ارهق نفسي بالتذكر والتوجع لانني قريب من الحياة بشكل مرئي تماما ، انا لست باسف لانني لا اجد احدا قادرا على تصويري وانا في وضعي هذا ، لكني انتظر معارك اخرى كي اصرخ بانني كنت احاول ، احاول فقط ان اعيش منتصرا ، او مندحرا ، ليس هذا المهم الان ، مبجلا او منحطا ، او منافقا ، فهذا ما عاد له اهمية لي في الوقت الحاضر ، انني انظر الى تلك الاكوام من الجثث والذكريات ، والان لا ابدو مشرق الوجه ، اقول لك فقط ، استطيع الان الوقوف على قدمي ولعن معظم الفلسفات ، لا اريد الاصغاء الان الى تلك الانفاس الطيبة التي كانت من حولي في المخيمات او في برك الدم تلك ، والتي غطاها التراب والدم والمطر بجنون الحياة، لا بحماقة الموت ، انني مصغ الان الى تعاليم هؤلاء فقط ، فلتسقط كل آلات التصوير ، فانا اكره ان يصورني احد وانا أموت ، يوسف سلاما . ارم قلمك والحق بي . »

وضع الخطاب في مظروف ، أغلقه بهدوء ، وضعه في جيبه وخرج مسرعا . لم يلتفت الى الوراء ، ولم يغلق الباب وراءه ، الا أنه نسي وضع الخطاب في صندق البريد .

اذار ٧٦ بيروت

علي الخليلي

لك المجد ولا أعطيك إسمي

يهجر القيد ساعداً ،
ام يساقون الى القول
هجعةً بعد جيل من ضياعٍ ،
واللاجئون متاع للمجاذيف .
أقبل الصيف موتاً . وجزافاً يستفحل الخَطب
في الناس
وفي النوم نسخة من كتابٍ جاهلي .
هل حوصروا ؟

أم تساوى في العيون البعوض والذلُّ
وَعداً أن تنوء الجبال ،
والرمل معفي من الزجر .
هذه هدنة الحرب ،
سلالات العشب ترفض أرضاً لا تباهيها ،
والهواء مزاج وعويل مُروَّض واعتزالٌ .

إنَّ صوتَ الانسان ميزته .
إنَّ سكوت الانسان ميزته .
أيُّ الدلالات يقطن اللاجئون ـ السيف مصداقهم ،
وفي الكتب تمحوه الليالي .
وليس في الرمل سيف أو كلام
وليس في القيد مأوى .

تبدأ الفجوة ـ الحصار حنيناً
يبدأ الماضي غيلةً .
قدَّس التجريد من ضجة الاكف وفاقاً ،
ومصدَّات الرياح تغزل ثوباً
أي ثوب ؟ !

كانت السروة رأساً
كانت الساعة ماء
كانت السبَّة رمزاً وشقوقاً

أبكم يحرس الشفاه . وفي العكاز ليل
يساقط الورد ،
تساقط فرسان .
أسرعوا ! أسرعوا ! انحساب الخسران ينتظر القادة ،
فانهض عن جثةٍ أيها البارد .

إنَّ البعوض منتشر في الحلق ، والموت سادن ونبيءٌ
يكبر الموت ، يكبر الحلم ،
إن الماء قتال والمراعي هروب .

لك أسم . لا أسميك .
لك المجد ، وما اعطيك أسمي .
أيها القابع في جفن الضباب
ترسم الحلم على كف الخريف .
أيها الطوطم . سميتك . ما سميتك ـ الافلاك
تخبو .

ستفر السقوف عن ميعة العمر ،
تفر الاوصاف من سدرة المال ،
وتندس الخلايا .. خلايا وخلايا تندس في الكفّ :
أقبلْ أيها السيد المطاع ،
أقبلْ ، لدينا قبة لا تنال ،
قوم بهاليل ،
وأعتاب قدَّستها الاناشيد .
فما أقبل النعاس ،
وما دقَّ النواقيسَ شارد أو شقي .

طرابلس ـ ليبيا

يحيى الطاهر عبدالله

حكاية بزخارف ...

كي تنام أيها الأمير

كان ابوه يملح اللفت ويلونه بزهر العصفر ويبيعه ـ تلك « اميري » أول ضربة على قفا عباس من دنيا ظالمة بنت كلب والت الضرب بغير رحمة :

طلق أبوه امه وكان اسمها أسماء بعد ان أنجب منها سبعةماتوا الواحد بعد الواحد ـ وبقى عباس ليرى امه العجوز ممزقة الثوب حافية تجمع وسخ البهائم وتبيع للكل وقود الافراد حتى للكارهمادامت نبيع ومادام يدفع .

وتزوج ابوه من بنت بائعة كرشة اسمها صالحة فكانت شديدة القسوة عليه لانه مولع بالحرب وفرقعة البمب ـ بينما البيت حجرة ضيقة وصالة ضيقة .

ومن بنت بائعة الكرشة ـ التي اسمها صالحة ـ انجب ابوه البنت وسماها غالية وكانت كأمها مليحة الوجه مدورة البدن حلوة لسان ، كلامها أثواب من حرير هفهاف مطرز بالترتر الغماز ناعم نعومة بطن حية خداعة تلدغ : لقد رضعت غالية من ثدي امها اللبن الاسود ـ اما عباس « يا اميري » فكان عليه ان يناديها يا اختي وان ينادي امها يا امي .

يا لها من حياة دون ، يا لتلك الايام من ايام ، كل يوم بليلة طويلة ونهار طويل ، وجلد عباس جلد ادمي ، وجلد الادمي لم يكن في يوم من الايام جلد جاموسة بليدة ، كما ان الآدمي لا يملك قوة ثور نطاح حتى يغضب غضبة ثور نطاح ، وأنت عليم بل أنت اعلم الناس « يا أميري » ان لكل ليل اسود نهاره الابيض ولكل النهارات السوداء لياليها البيض ـ كذاالصغار أبناء الفقراء يكبرون فيحطمون الزجاجات ويخرجون لدنيا الشوارع بملابس الحيوان رجالا يلتقطون الرزق بمناقير الطير : خطافون سفهاء جهلة .. يتجنبون النور الفضاح .. قتالون لا يقتلهم الا العشق .. غايتهم الفوضى واقلاق المدن الآمنة ـ لهذا نبغضهم الحكومات وتعاديهم الشرطة .

الى هؤلاء « اميري » كان لابد أن ينتمي عباس لما قال لنفسه « الشارع افضل من البيت ألفمرة » الا أن عباس اختار ـ بتوفيق من الله ـ ثوب الثعلب الذي يموت حين تريد منه أن يموت ـ بهذا : نال رضا حلواني فعمل صبي حلواني ، ولما انتهى اجل الحلواني مات الحلواني فبكاه عباس لينال عطف صاحب مقهى كان صديقا للحلواني ، وبالمقهى قضى عباس السنوات وتدرج من مرمطون الى صبي جرسون وعرف العاطل والباطل وصبية الورش والمخبر وشارب الكحل وباعة الصحف والصاحب الذي يشتم صاحبه من خلف ظهره وهذا الذي لو غضب لحطم الكراسي وقلب الطاولات .

من هنا ـ سيدي الامير ، من مقهى ببابين كل باب يطل على حارة صار لعباس ثلاثة أثواب : ثوب ثعلب ماكر وثوب قرد نطاط وثوب قط له سبعة ارواح ، يخلع هذا الثوب ليلبس هذا الثوب أو ذاك حتى جاء يوم وقفت ـ هناك بالشارع ـ عربة بحجم مركب وعلى شاكلة اوزة ، وهبط رجل بملبس حسن يخطر كأنه يمشي فوق ماء ودخل حارة أفضت به الى حارة الى ان بلغ المقهى وقد ادركه تعب فجلس وطلب كوب يانسون رغبة منه في ملاطفة الروح الشعبية ، جاء عباس ورحب واختفى بزعل واقبل ينقر على الصينية بالملعقة نقرات لو سمعتها راقصة طلقت الرقص لعادت للرقص غير أسفانة . قال الرجل المبتهج وكان غنيا لعباس « اترك المقهى وتعال معي .. » وصرخ عباس (انا) .

ذلك ما حدث « يا اميري » ولك ان تصدقني ولك أن تتعجب ، لكنها دنيا بنت هوى تدير ظهرها لسنين ثم تقبل بوجه ضاحك وجيد مثقل بالاجراس .

هناك ببيت الغني الغني تعلم عباس حروف الهجاء الثماني والعشرين ـ هكذا سريعا ـ لينظم من الحروف المقود من حرز يلونه ويزين عنق ومعصمي ولي نعمته الذي علمه كيف يمسك السكينة بيمينه والشوكة بيسراه . هذا بينما الغني بحق يتناول افطاره وغداه وعشاه ـ بصحبة عباس ـ بالنادي : لحوم مقلية ولحوم مشوية .. بطوديوك رومية وسمك ودجاج وفاكهة أيضا ونبيذ ، وما بين الغداء والعشاء من وقت يقضيانه معا ـ الغني وعباس ـ بحمام السباحة مع العراة من الرجال والاولاد والنسوة والشابات .

ما مر شهران « يا اميري » حتى تحول عباس الى شخص يجهله كل من عرفه : طبع رقيق ـ واصابع رقت ما شاء الله وصار لها ملمس الحرير ـ بروح شفافة تعشق كل فتاة بشعر مبلول .. وولع لاحد له بالتصاوير والرسوم والموسيقا وغناء المغنين ولسينما بحدائق الشرق تعرض الافلام بلون وصوت .

هنا « اميري » دعني أحكي لك حكاية فيلم شافه عباس تسع مرات واعجب به الاعجاب كله :

« ناس عراة يلبسون الريش يسكنون غابة يقتلون الناس بنبال مسمومة لانهم لا يسكنون معهم في الغابة (فجأة) ياتي ناس يلبسون الملابس ويركبون الخيل ويحملون البنادق يطلقون الرصاص من بنادقهم على العراة ليموتوا جميعا ـ الا كبيرهم صاحب الريش الكثير الذي راوغ الرصاص ونط (فجاة) فوق ظهر حصان اسرع من موتوسيكل واسرع حتى من نعامة ، وها هو الوغد (فجاة) يخطف الفتاة الرحيمة التي عالجت جروح الرجال من النبال المسمومة وطبعت على خد كل منهم قبلة ـ ما عدا الفتى الوسيم فقد اعطته فمها ليشرب منه ماء الحياة لان جرحه كان قتالا ، وها هو الوسيم يطارد بحصانه لابس الريش الكثير ـ ليرد الفضل لصاحبة الفضل ـ لكن ما كاد يلحق بالوغد حتى سقط حصانه (فجاة) في حفرة ماكرة ذات عين كبيرة سوداء ، والوغد يسوق الفتاة كمالو كانت معزة ، لا يدري عباس ان كان الوغد سيذبحها أم سيحلبها ـ الا ان عباس صرخ في الوسيم (هنا) واشار عباس الى كهف يختفي خلف شجر قصير مخادع تشابك ، هذا بينما الوغد مزق الثوب الطويل (فجاة) لتري كل العيون الراغبة في الوعد : شجرة انفلقت ـ بعد أن شبت فيها النار الحمراء ـ الى ساقين من جمر ، صرخ عباس في الوسيم (اسرع) وصرخ في الفتاة (قاومي) فأمسكت هي ببلطة ، وتقدم الوغد وواجه الكل بعيني مارد مخيف فقالوا « لا دخل لنا » لكن الفتاة رمز المقاومة ما تزال تمسك بالبلطة : عارية الفخذين ـ ولا ملامة عليها . (فجأة) دخل الوسيم الشجاع وقتل الوغد ـ حتى لا تصير الجميلة قاتلة .

انتهى الفيلم ـ يا اميري ـ بقبلة طويلة تحبب الانسان منا في الافلام وتجعل كل صناع الافلام أبناء زماننا ينهون افلامهم بالقبل التي تحببنا في الافلام ، بعد هذا الفيلم ـ وهذا ما جعلني أحكي لك « يا اميري » حكاية هذا الفيلم : أتقن عباس الحاذق صناعة الكلام ففتل من الكلمات حبالا تصلح لشنق أدمي وربط دابة وتقييد وحش واغلاق طريق ـ كما افلح في كتابة حكاية مشوقة عن رجال يعاركون الحيوان المفترس ويهزمونه ويصنعون من جلده النعال التي يلبسونها.

ذلك ما كان ، بينما ـ انا ـ سيدي الامير : نسيت اخبارك بخبر الرجل الفني الذي كان يسكن بيتا من اربعة طوابق بكل طابق اربع شرفات ، وكان بالبيت حديقة بها شجر لا يثمر واشجار ورد مزهرة تنشر العطر ، وكان الرجل الفني يحب مثله في عفة جعلته يلبس قناعا : لا يمس احدا ولا يدع أحدا يمسه ـ فقط يحب ويذبل كما تفعل زهرة النرجس المحبة لنفسها وللماء . تلك كانت حاله مع عباس حتى ادركه وادرك عباس اليوم الذي تحكى من اجله الحكايات وتنشد الاناشيد ويجن من يجن من بني الانسان :

كانت بالطابق الرابع للعمارة المقابلة ورآها عباس وقال « يا ايها النور » فاغلقت هي باب الشرفة وغابت ، وأشرقت في اليوم الثاني وكان يوم ثلاثاء فقال عباس « يا ايها النور » ومضت هي غاضبة ولم تغلق باب الشرفة واحتجبت يوم الاربعاء لتطل يوم الخميس وبدت كما لو كانت غاضبة ولما هم عباس بفتح فمه ادارت ظهرها وتكرر هذا منه ومنها وفي اليوم الذي يستريح فيه المسيحي اطلت بوجه هو الازاهير ومرت كفها على شفتيها ونثرت في الهواء زهرتين ثم اريجهما عباس فداخ وأفاق وطالبها بلقاء عاجل « في النادي » فهزت رأسها رافضة ورمت على جبينها من شعرها خصلة وقال عباس الملهوف « بسينما حدائق الشرق » فرمت هي رأسها للخلف رافضة وأعادت خصلة الشعر الى مكانها وفتح عباس فمه واغلقه لما حركت يدها وأشارت الى حديقة بيتهم ورسمت الشجر ورسمت الغروب (أخ ، ليت اللقاء ما تم تحت الشجر الذي يشتعل بالنور اذا ما داهم الغروب بيوت السادة . أخ ، يا اميري ، كان الرجل سيدا وكان فاضلا وكان كهلا احتاط لحماية عرض زوجته الخامسة الحلوة من طيش يتملك نفس كل شابة حلوة ومن ضعف قديم في طبيعة الانثى ومن أحابيل السفهاء من مثل عباس وغير عباس : سور البيت وحصنه بالحديد والسلك والشجر والاجراس والكلاب السود والطهاة السود والخدم السود).

وكان عند السيد الكهل « اميري » عصا من العاج يهش بها وبها يجلد ـ تجعل كل من يراه يخافه فيحترمه ويفسح له الطريق ان كان ماشيا يتريض أو راكبا عربته التي يسوقها سائق بسوط . هكذا « اميري » بات من القدر لعباس ان يقع صيدا يتوجع ويستنجد بالله في السماء وبرحماء الناس على الارض ، حتى قيض الله له ذلك الشرطي فجره للمخفر سارقا لا عاشقا ، وخرج من المخفر الى مستشفى يصحبه شرطي فقد ثبت أنه سارق لا عاشق ، ولما طابت جروحه وجد نفسه حيوانا في قفص من حديد ورجل هناك خارج القفص ـ لا يعرفه ـ يسبه . الرجال جادون بوجوه صارمة ليسوا الاسود كالقسس يسممون من فوق منصة عاليةفيهزون ادمغتهم ويهمهمون وكبيرهم امسك بمطرقة: قرع بها لما تجاوز الرجل الذي يسميه عباس الحد فسب أم عباس والحلواني وصاحب المقهى ، أحنى الرجل الشتام رأسه وقال انهم ـ ام عباس والحلواني وصاحب المقهى ـ زرعوا بذرة الشر السوداء في نفس عباس فلما مد له السيد الكريم يده الكريمة عضها عباسفأدماها ودمر حياة صاحبها الفني الخير الذي أصيب الان بصدمة قد تجعله ـ وقد كان عباس بالنسبة له بمثابة الابن ـ مطيعا لاوامر الطب حتى نهاية عمره : يشرب اللبن الساخن مخلوطا بالويسكي وحبالحبهان مطلقا هو الفني الفني كل طيبات الدنيا الزاهرة وهي كثيرة كما يعلم سيدي القاضي وسادتي القضاة الافاضل .

ومن عجب مولاي الامير ـ ان الرجل الشتام قص ادق التفاصيل في حياة عباس بما يدلل على نفوذه وسعة اطلاعه في الكتب والملفات السرية الكثيرة التي دونت فيها سيرة عباس وغير عباس من بنيالانسان.

وبعد « اميري » فقد بلغتك سيرة الكل ـ ها انا انهي علىالباقي من سيرة عباس : حمته سنه الصغيرة من عقوبة السجن فهو بعد حدث ـ كما قال القاضي ـ رغم ما شاف لا يفقه من امور الدنيا قدر خردلة ، ليوكل شأنه اذن لاصلاحية تربيه وتهذب روحه وتعيد خلق الانسان فيه من جديد .

تمالك عباس نفسه فلم يصرخ : سمع الحكم الظالم الصادر من ناس لا يعرفهم بايعاز من رجل شتام لا ريب ماجور من زوج المحبوبة الجميلة التي لن ينساها عباس ـ فالحب لا يموت هكذا سريعا كما ان مقادير الناس لا شكليست بأيديهم فها هو عباس الرجل يعامل معاملة طفل لتصير حياته المقبلة بالاصلاحية بايدي بشر في الغالب الاعم كالكل قساة لا يرحمون ، ويفرض انهم رحماء فلا نبيذ عندهم ولا لحم ولا تصاوير ولا موسيقا ولا شرفات ولا حمام ساخن ولا سينما حدائق الشرق تلك التي تعرض الافلام بلون وصوت .

نعم ـ لا انت ولا حتى انا كنت أتوقع تلك النهاية الظالمة لعباس ـ يا اميري .

القاهرة

جودت فخر الدين

أهازيج موت شتائي

– ١ –

هتاف الرصاص انتهى بي
الى ساحل البحر
اسلمني للرياح التي ارتحلت
ها هو الان ينشرني فوق متسع الارض
يجمع اشتات حلمي
اهازيج هذا الشتاء البعيد علت
فوق مرتفع الموت
واتسعت رقعة الدمع
واشتعلت خضرة ساحة القتل
وانبسطت بعد طول الحصار
جبهات المدى
وأنا لم أمت بعد
ناهزت سن السقوط هنا
فوق قارعة للردى
لم أمت بعد
ادركني قطر هذا الندى
وانا ماثل بين فاتحة للخراب
وبارقة قد اضاءت ملامح وجهي
الا هل يقدر لي ان اموت ؟
اذن لانحنيت على زهرة
شربت من جراح بلادي
فأشرب انفاسها
ثم اسكب فوق ثراها دمي
يتغلغل قلبي لديها
ويوغل في الارض
ينهل منها الرحيق
الى ان يبلله مطر الاغنيات
فينبت معشوشبا
طالعا ، طالعا للسماء
ومخضوضبا بالمنى
ضاربا ، ضاربا في النواحي
يسجل تاريخ هذا الوصول

– ٢ –

رأيت فقيرا
توسط مستبشرا باحة الموت
يرقص مغتسلا بالرصاص
ومبتهجا ،
ينتشي طلقة ، طلقة
فتمنيت لو ان لي بعض هذا الغنى .

– ٣ –

وجدت على وجه بيروت
وهو يلوح كالطفل
وجه الحسين الشهيد
وكانت شوارع بيروت مكتظة
بالحسين الذبيح
وتلك النوافذ مفتوحة
حاصرتها خيول امية
لكنها اشرعت باتجاه الشواطيء
واغتسلت بالدماء
فراودها البحر
هذي المدينة ادركها وابل الطلقات
على حافة الخبز
هذا زمان القبائل
من سيموت سوى الفقراء
ومن سيعود سوى الفقراء ؟
من الخبز يبتديء الموت
هذا زمان الشهادة
كل ذبيح شهيد
من الموت يبتديء الخبز
كانت شوارع بيروت مكتظة
بالحسين الذبيح
ولكن رأس الحسين الشهيد
يحوم فوق المدينة
يشرب احزانها
وتسيل مدامعه مطرا
وعلى غارب الماء
يرسم وجه الشهيد وقافلة للرحيل

– ٤ –

أيا أفق الذكريات
قرأتك طيلة ليلي
فهذا احمرار الشفق
وهذا دمي
ضالعا ، بالسنى ، والالق
كلما خرّت الشمس
أشرق في آخر الظلمات دمي

بيروت

بابلو نيرودا

عشرون قصيدة حب وأغنية يأس

ترجمها عن الاسبانية : ماهر البطوطي

– ١ –

يا جسد امرأة !
ايتها الروابي البيضاء ، ايتها الافخاذ البيضاء
تطلعين على الدنيا في حالة عطاء .
ويحفر جسدي الوحشي الريفي من تحتك
فيقفز الابن من اعماق اعماق الارض .
كنت وحيدا ، انبسط كانفاق الارض
تهرب الطيور من امامي
ويحقق الليل عندي اقوى انتصاراته .
وقد صغت منك اسلحتي التي اعيش بها
ووضعتك سهما في قوسي وحجرا في مقلاعي .
ولكن ، ها قد دنت ساعة الانتقام
وانا احبك .
يا جسدا من الجلد ، من الفطر
من اللبن الشره الجامد .
آه لكئوس الحنايا ، آه لالحاظ الفراق
آه لزهور الجسد ، آه لصوتك الحاني الحزين !

يا جسد امرأة بين يدي
سوف احيا في جمالك
لك كل اشواقي ، شجوني التي لا حدود لها
وطريقي الغامض !
الطرق الغامضة حيث العطش الابدي
والتعب ، والحزن المطلق .

– ٢ –

في لهيبه الفاني يلفك الضوء
غارقة في الفكر ، شاحبة ، عليلة
تجلسين في مواجهة دورات الشفق
التي تدور وتدور من حواليك .

صامتة يا صاحبتي
وحيدة في عزلة تلك الساعة الميتة
مفعمة بحيوات النيران .
يا ولية عهد النهار المحطوم
يساقط فنن من الشمس في ردائك الداكن
وتنمو الجذور الكبيرة في الليل
تنمو فجأة من داخل روحك
وتبرز خباياك الدفينة للعيون
لتغذي شعبا شاحبا مزرقا
من جسدك ولد حديثا .

آه ايتها العظيمة الفخيمة الخصبة
يا قنة دائرة يتعاقب عليها السواد والصفرة
ناهضة تنشدين فتحصلين على خلق مفعم بالحياة
حتى تتساقط زهورك وتظلي تغمرك الاشجان .

– ٣ –

اشجار الصنوبر الرحبة
وخرير موجات تتكسر .
تلعب الاضواء في بطء
والاجراس وحيدة .
ويسقط الشفق في عينيك يا عروستي
كالثعبان الارضي
وتغني الارض فيك .
فيك تغني الانهار
وتهرب روحي فيها
كما تنشدين والى حيث ترغبين .
دليني على طريقي في قوس آمالك
حتى اطلق سهامي في جنون وانطلاق .

أرى من حولي زنارك الضبابي
وصمتك يحف بساعاتي المتلاحقة

وانت هي انت بذراعيك الحجريتين الشفافتين
حيث ترسو قبلاتي وتسكن شجوني الرطيبة .
آه لصوتك الخفي ، يصبغه الحب ويثنيه
في الغروب الرنان المحتضر !
هكذا رأيت سنبلات القمح تتثنى للرياح
في الساعات العميقة على صفحة الحقول .

ـ ٤ ـ

انه النهار مليء بالعواصف
في قلب الصيف
ترحل السحب
كأنها مناديل الوداع البيضاء
وتهزها الرياح
بأذرعتها المرتحلة .
قلب الرياح لا يحصى
ويخفق على صمتنا المشغوف .

تئز بين الاشجار
في اتساق والوهية كاللغة الميتة
بالحروب والاناشيد .
الرياح التي تحمل الاوراق المتساقطة
وتسرقها في خفة
تميل سهام الطيور النابضة .
الرياح التي تتحطم في موجات بلا زبد
دعامات بلا قبلات
ونيران متثنية .
وقبلاتها تتكسر وتنغمر
منصرعة على اعتاب رياح الصيف .

ـ ٥ ـ

حتى ينفذ حديثي الى اسماعك
تترفق كلماتي أحيانا
وتصبح كآثار النورس على رمال الشاطيء .
كالسوار ، كالجلاجل الثملة
تحيط بذراعيك الناعمتين نعومة حبات العنب .
وارقبها بعيدة كلماتي .
اكثر منها كلماتي فانها كلماتك
تتسلق احزاني العبقة كحبائل اللبلاب .
تتسلق على الجدران الرطيبة .
انك انت وراء هذه اللعبة الدموية
انها تهرب من عريني المعتم
اما انت فتملئين كل شيء ، كل شيء .
لقد عمرن قبلك عزلتي التي تحتلينها الان
وقد اعتدن اكثر منك على احزاني واشجاني .

والان
اريد أن يقلن عني ما أردت أن أقوله لك
حتى ينفذ حديثي الى اسماعك كما احب وينبغي .
ما زالت رياح الشجن تسحبها
واحيانا ما تقهرها عواصف الاحلام
واوقات اخرى تنصتين الى صوتي المكلوم .
نواح افواه عتيقة ، دماء عذابات قديمة
فلتحبيني يا رفيقتي . لا تتركيني ، اتبعيني .
اتبعيني يا رفيقتي في تلك الموجة من موجات الشجن
ولكن ، ها هي كلماتي تمضي مصطبغة بغرامك .
تملئين كل شيء ، كل شيء.
وامضي اصوغ من كل هذا سوارا فريدا
لذراعك البيضاء الناعمة كأنما هي حبات العنب .

ـ ٦ ـ

تمثلين لمخيلتي كما كنت في الخريف الماضي .
كنت الدثار الرمادي والقلب الهادىء .
وفي عينيك تصطرع شعلات الشفق
بينما تتساقط اوراق الشجر في مياه روحك .
مضمومة الى ذراعي كافنان اللبلاب
تلتقط الاوراق موتك البطيء الهادىء .
يا شعلة الخدر الذي يحترق فيها كياني
يا صفصافة زرقاء حلوة تحنو على روحي
أشعر بعينيك ترحلان ،
وبعيد هو الخريف
ايها الدثار الرمادي
يا صوت الطيور ويا فؤاد البيت ،
الى حيث ترحل اشواقي الدفينة
وتتساقط قبلاتي الفرحة كأنها الجمرات

سماء ترقب من سفينة
ريف يرقب من تلال
ذكراك عندي نور ، ودخان ، وبحيرة هادئة
ومن وراء عينيك تشتعل الشفقات
بينما تلتف في روحك أوراق الخريف الجافة وتدور

ـ ٧ ـ

اطلق شباكي الحزينة وانا مائل في الاصائل
نحو عينيك المحيطيتين .
هناك تصطلي وحدتي وتتمدد
في شعلة جد عالية
وتلوح بذراعيها وهي تغرق .
ارسم علامات حمراء على عينيك الغائبتين
تفوح منهما رائحة البحر على شاطىء الفنار .
ما تحرسين الا الدياجير
أيتها الانثى القصيّة التي املكها .
واحيانا تنبجس من نظراتك
شواطىء الروعة .

القي شباكي الحزينة وانا مائل في الاصائل
نحو ذلك البحر الذي يهز عينيك المحيطيتين
تضرب العصافير بمنقارها النجمات الاولى
تبرق وتلمع كروحي الغارقة في حبك .
ويركض الليل في فرسك المعتم
ناثرا سنبلات زرقاء على صفحة الحقول .

ـ ٨ ـ

تطنين في روحي ايتها النحلة البيضاء
ثم تنثنين في دفعات حلزونية بطيئة
من الدخان .
اني انا البائس
كلمة ما لها من أصداء
انا من اضاع كل شيء
وانا من كسب كل شيء .
ايها القيد الاخير
تصطفق فيك اشجاني الاخيرة
في ارضي المهجورة .
وانت الوردة الاخيرة
آه أيتها الصامتة !
اغلقي عينيك العميقتين
هناك يرفرف الليل
آه ، فلتجردي جسد التمثال المرتعد .
لك عينان عميقتان يرفرف فيهما الليل
ذراعاك نديتان ندى الورود
واحضانك احضان الزهور .
نهداك نهدا القواقع البيضاء
ونامت على صدرك فراشة من فراشات الظلال .
آه أيتها الصامتة !
ها هنا العزلة التي تغيبين عنها
المطر . ورياح البحر تطارد النوارس الشاردة .
وتنساب المياه حافية عبر الطرق المبتلة .
ومن تلك الشجرة
تشكو الاوراق شكوى العليلين .
أيتها النحلة البيضاء الغائبة
ما زلت تئنين وتطنين في روحي
تعاودين العيش في الزمن
هيفاء صامتة .
آه أيتها الصامتة !

ـ ٩ ـ

ثمل أنا من عطر الزيوت ومن القبلات الطوال
أدير أشرعة الزهرات في الصيف
وانا منثن نحو موت اليوم النحيل
مثبت في جنون بحري وطيد .
وانا شاحب مشدود الى مياهي الشرهة
أعبر وسط الرائحة الحريفة للطقس العاري
مشتملا في ثيابي الرمادية والاصوات المرة
وخوذة حزينة من الزبد المهجور .
هكذا امضي ، صلب العواطف
امتطي صهوة موجتي الوحيدة
تحت القمر وتحت الشمس
ملتهبا ، باردا ، فجائيا ،
ناعسا في جوف الجزر البيضاء
السعيدة العذبة كأنها الارداف الطازجة .

ثوب قبلاتي يرتعش في الليل الرطيب
محملا في جنون بالتدابير الكهربية
منقسما بطريقة بطولية الى احلام
بينما الزهرات الثملات يجعلن مني منتهاها .

مياه مصطخبة وسط الموجات العرضية .
وذراعاي تقبضان على جسدك المتوازي
سمكة ملتصقة بلا حدود الى روحي
سريعة وبطيئة في تلك الطاقة شبه السماوية .

– ١٠ –

ها قد راح منا ذلك الشفق مرة اخرى
لم يرنا ذلك الاصيل وقد تشابكت ايدينا
بينما يسدل الليل الازرق استاره على الدنيا .

لقد رأيت نافذتي
أعياد الغروب فوق الروابي القصية
واحيانا تشتعل بين اصابعي
شذرة من الشمس
كأنها قطعة نقود ذهبية .

لقد تذكرتك وروحي كئيبة
يغمرني ذلك الحزن الذي تعرفينه عني
أين كنت آنذاك ؟
مع من من الناس ؟
ماذا تقولين من كلام ؟
لماذا يأتيني الحب كله فجأة مرة واحدة
حين اشعر بالحزن واشعر بانك بعيدة عني

لقد سقط الكتاب الذي ينفتح دائما في الشفق
والتف دثاري حول قدمي كالكلب الجريح .

دائما ، دائما تبتعدين في الاصائل
الى حيث يجري الشفق طاويا في ظله التماثيل .

– ١١ –

يلقى الهلال مرساته خارج السماء
بين اثنين من الجبال
والليل الضال الدوار
يحفر في العيون والمقل
فلنر كم من النجوم
تمزقت شذرات في البحيرة .

يرسم صليب الحزن بين جفني ويهرب
آه يا مصهر المعادن الزرقاء
آه يا ليالي الصراعات الصامتة
ان قلبي يلف ويدور
كعجلة مجنونة .

يا طفلة تأتي من بعيد
حاضرة من بعيد
احيانا تلتمع نظراتك تحت قبة السماء .
يعبر من فوق فؤادي
الانين ، والعاصفة ، ودوامات الغضب
دون ان توقفك
وتحمل رياح الاحداث جذورك الناعسة
ويمزقها ، ويشتتها .

انها تقتلع الاشجار الضخمة
على الجانب الاخر
ولكن ها أنت أيتها الطفلة الصافية
تطلبين الدخان والسنبلات
ان هذا ما تفعله الريح بالاوراق المضيئة .
خلف الجبال الليلية . زنابق النيران البيضاء
آه ، لا استطيع ان اقول شيئا !
انه كل هذه الاشياء .

يا لاشواقي ، فقد صدعت صدري
بضربات النصال
ها قد حان اوان اختيار طريق آخر
لا القى فيه ابتسامتها .
العاصفة دفنت الاجراس
واضطراب العذابات الكدر .
لماذا ألمسها الان ،
لماذا املأ قلبها بالاحزان .
اواه !
اني آخذ الطريق الذي يقصيني عن الجميع
حيث عيناها الساطعتان وسط الندى
لا تتقاطعان مع الشوق والموت والشقاء .

– ١٢ –

يكفي فؤادي صدرك الحنون
وتكفي جناحيّ حريتك .
ما كان غافيا فوق روحك
سيطير من فمي الى أعالي السماء .

فيك يحيا امل كل يوم
تهبطين كالندى على كئوس الازهار
وتحفرين الآفاق بغيبتك
تمرقين على الدوام كموجات البحار .

طلبت منك ان تغني في مهب الرياح
كأشجار الصنوبر وكأشرعة السفن
انت مثلها ، شامخة صامتة
وتتشحين فجأة بالحزن كالرحلات القصية

بشوشة انت كالطريق المألوف
تعمرك الاصداء والاصوات الحانية .
استيقظ احيانا فأرى
الطيور تهرب وتهاجر
بعد أن كانت تنام في احضان روحك .

– ١٣ –

اخذت ارسم صلبانا نارية
على تضاريس جسدك البيضاء .

كان فمي عنكبا يخطر متخفيا
فيك وراءك ، وجلا عطوشا .

قصص احكيها لك على ضفاف الشفق
ايتها اللعبة الحزينة الحلوة
لامحو عنك الاحزان . بجعة ، شجرة ،
شيء قصي بهيج ،
زمن الكرمات ، زمن النضوج والثمرات .

انا الذي عشت في الموانىء من حيث احببتك
والعزلة تخترقها الاحلام والصمت .
محصور أنا بين البحر والاحزان
موت ، محموم ، بين صاحبي الجندول الجامدين .

بين الشفاه والصوت ، يموت شيء ما
شيء له اجنحة الطيور
شيء من الشجن ومن النسيان
مثل الشبكة التي لا تصطاد الا المياه .
يا لعبتي ، ما انفكت قطرات ترتعد
ومع ذلك يغني شيء وسط تلك الكلمات الآبقة
شيء يغني ، شيء يتصاعد الى فمي المتعطش .

آه لو احتفي بك بكل كلمات الافراح
اغني ، أتوهج ، أهرب
كالاجراس بين يدي مجنون .
يا حناني الحزين ، ماذا تفعلين فجأة ؟
وحينما اصل الى الزاوية الجسورة الباردة
ينغلق فؤادي كالوردة الليلية .

- ١٤ -

ها انت تلهين طوال الايام مع اضواء الكون
ايتها الزائرة الشفافة
تجيئين مع الزهور ومع المياه .
ان ما بك هو اكثر من الشعاع الابيض
الذي يتفتح كالافنان بين ذراعي كل يوم .

دعيني اهدهدك وسط اكاليل الزهور الصفراء .
من هذا الذي يسطر اسمك باحرف من دخان
في وسط نجوم الجنوب ؟
دعيني اتذكرك كما كنت آنذاك
حين لم تكوني بعد موجودة .

وتزمجر الريح فجأة وتضرب نافذتي المغلقة
والسماء شبكة تزينها الاسماك المكتئبة .
ها قد اجتمعت الرياح كلها في هذا المكان
كلها
وأسقط المطر غلالاته .

وتمرق الطيور هاربة
للرياح . الرياح .
انا وحدي استطيع ان انازل عزيمة الرجال .
وتلفح العاصفة أوراق الشجر السوداء
وتفك اسار السفائن
التي أرسلت بليل حبالها في مرفأ السماء

وانت هنا . لم نبتعدي
تتجاورين معي حتى الصيحة الاخيرة
وتلتصقين بي كأنما بك خوف الدنيا .
وأحيانا يا حبيبتي
يمرق ظل غريب على عينيك الجميلتين .

والان
الان ايضا يا صغيرتي
تحضرين لي أقراص العسل
ويفوح منك العطر
بين ثنايا نهديك الثائرين .
وبينما تنحب الريح الحزينة
ويقتل الفراشات
احبك أنا
وأسعد بالتهام شفتيك البرقوقيتين .

لكم كلفك ان تتعودي على حبي
على روحي المنعزلة المتوحشة
على اسمي الذي يبتعد عنه الجميع .
لطالما شهدنا نجم المساء يتلألأ
وطالما انبسط الشفق على قمة رأسينا
كأنه مروحات دوارة .

كلماتي تسقط رذاذا عليك
وتهدهدك بين حباتها .
لكم احببت جسدك اللؤلؤي المضيء
فحسبتك سيدة هذا الكون .
سأهديك ورودا فرحة
من وراء الجبال
وزنابق فضية
وبندقا مسحورا
وسلالا برية من القبلات .
اشتهي ان افعل بك
ما يفعل الربيع باشجار الكرز

- ١٥ -

احبك عندما تصمتين
لانك تبدين غائبة

تستمعين لي من بعيد
وصوتي لا يلمسك .
كأنما عيناك تسبحان
وكأن شفتيك قد ضمتا بقبلة .

لان روحي تملأ كل الاشياء
تبرزين من الاشياء وأنت ممتلئة بروحي
يا فراشة الاحلام ، انك تشبهين روحي
وتشبهين كلمة الكآبة .

احبك عندما تصمتين
لانك تبدين قصية .
تبدين شاكية ، فراشة تهدل .
وتستمعين لي من بعيد
وصوتي لا يصل اليك .
دعيني اسكت في صمتك .
دعيني ايضا احادثك في صمتك

صافيا كالثريا ، بسيطا كالخاتم
انك تشبهين الليل ، صامتا مرصعا .
صمتك صمت النجوم
قصيا ، بسيطا .

احبك عندما تصمتين
لانك تبدين غائبة
قصية حزينة كأنما غابت عنك الحياة .
تكفي عندئذ كلمة ، تكفي ابتسامة
وانا سعيد ، سعيد ان ما من شيء اكيد .

— ١٦ —

« هذه القصيدة صياغة نثرية للقصيدة رقم ٣٠ من كتاب البستاني لربندرات طاغور »
في سمائي عند الشفق تعبرين كالسحاب
على اللون والشكل الذي أرغبه
انت لي ، انت لي
أيتها المرأة ذات الشفاه العذبة
تعيش في حياتك احلامي اللامتناهية .

مصباح روحي يصبغ قدميك بلون الورود
نبيذي المرير تزيد حلاوته بين شفاهك
آه يا من تحصدين انشودتي للغروب
كم تشعر احلامي المتفردة انك لي
انت لي ، انت لي
امضي هاتفا مع نسمات الاصيل
وتسحب الرياح صوتي المترمل .

يا من تصيدين اعماق اعماق عيني
ان غنيمتك تسد الطريق كالمياه
امام نظراتك الليلية .

انك سجينة شبكة موسيقاي
يا حبيبتي
وشباك موسيقاي رحيبة كالسماء .
روحي تولد
على شطآن عينيك المتشحتين بالسواد
وفي عينيك المتشحتين بالسواد
تبدأ مشارف بلاد الاحلام .

— ١٧ —

غارق انا في الافكار
اعقد الظلال في اعماق العزلة .
انت أيضا بعيدة
آه ، اكثر بعدا من الجميع .
غارق انا في الفكر
اطلق سراح العصافير
اخفي الصور
ادفن المصابيح في الغياهب .

يااللاجراس البعيدة
هناك في الاعالي يلفها الضباب !
اغرق النواح
أطحن الامال المكفهرة .
ايها الطاحن الحزين
يهبط عليك الليل فجأة بعيدا عن المدينة .

وجودك غريب لدي ، بعيد عني
افكر ، أسير مسافات بعيدة
حياتي قبلك
حياتي قبل الجميع
حياتي الكريهة .
الصيحات في مواجهة البحر ، بين الصخور
أجري طليقا ، مجنونا ، وسط ابخرة البحر
الغضب الحزين ، الصيحة ، عزلة البحر ،
جموحا ، عنيفا ، ممتدا جهة السماء .

انت ايتها المرأة ، هناك ،
يا لمفرق شعرك
يا لمروحتك الهائلة !
كنت بعيدة كما أنت الان .
حريق في الغابة !
يشتعل في صلبان زرقاء

يشتعل ، يشتعل ، يلتهـب ،
شرارات من اشـجار الضياء
تنهـدم ، تئـز .
حريق . حريق .

وترقص روحي جريحة من أسنة النيران .
من ينـادي ؟
ما هــذا الصمت العامر بالاصـداء ؟
انها ساعة الحنين ، ساعة الفرج ، ساعة العزلة
انها ساعتي بين كل السـاعات !
النفير الذي تمر به الريح منشدة
كل هذه العاطفة النائحة معقودة الى جسدي .
رجفة كل الجذور ، هجمة كل الموجات !
انها تحيط بروحي ، فرحة ، حزينة ، لا متناهية .

غـارق انا في الفكـر
أدفن المصابيح في غياهب العزلـة .
من انت ؟ من تكوبين ؟

– ١٨ –

هنـا ، احبـك
تنحل الرياح وسط اشجار الصنوبر العتماء .
والقمر يتألق فوق الميـاه الشـاردة .
وتسير متشابهات الايام في مطاردتك .

يتفكك الضباب في أشكال متراقصة
ونورس فضي يرتفع من جهة الغروب
وشـراع احيانا . انجم عاليـة ، عاليـة .
او صليب مركب اسـود .
لا غـيـر .
احيانا افيق في الفجر واجد روحي رطيبة
يـرن ويرن البحر القصي .
ان هنـا ميناء .
وهنا احبـك .

هنـا احبـك
وعبثـا يحجبك الافق عنـي
ما زلت احبك حتى بين هذه الاشـياء الباردة
واحيانا ارسل قبلاتي مع هذه السـفائن الجهماء
التي تمخر عبـاب البحر الى حيث لا وصول .

ها انـا قد اصبحت نسـيا منسيا
كهذه المراسي العتيقة .
تبـدو الارصفة اكثر حزنا عند مهبط الاصـيل

وحياتي متعبة من هذا الجـدب الباطل
أهيم بما ليس عندي ، وانت جد قصـية .
ويجاهد سأمي ضد هذه الشـفقيات المتراخية .
ولكن ها هو الليـل يأتي . واعـود الى الانشـاد
ويدير القمر عجـلات أحلامـه .
الانجم الكبيرة ترقبني من خلال عينيك
ولمـا كنت احبـك
فأن اشجار الصنوبر وسـط الرياح
تتـوق الى التغنـي باسمك باوراقها المرهفة .

– ١٩ –

أيتها الفتاة السمراء المرحة
ان الشـمس التي تنضـج الفاكهـة
الشمس التي تلتمع على السنبلات
الشمس التي تثني الطحالب
قد صاغت جسـدك الطـروب
وصـنعت عينيك اللماعتين
ورسمت شفاهك ذات بسـمة الميـاه .

عندما تمدين ذراعيك
تلفك شمس سـوداء مشتاقة
بين خيوط شعرها الاسـود المسترسل .
انك تلهين مع الشمس
كأنما تلهين مع النهر في وقت المـد
وتتـرك وراءها في عينيك
بحيرتين مسحورتين من المياه الساكنة .

ايتها الفتـاة السمراء المرحـة
لا شيء يقربني منك ، كل شيء يقصيني عنك
كأنما يقصيني عن وسط النهار .
انك شـباب النحلة المحموم
نشوة الموجات ، وفتوة السنبلات

ومع هذا فأن فؤادي المعتم ينشـدك
واهيم انا بجسدك الطـروب
وصوتك الطليق الاهيف .
انك لفراشة سـمراء ، عذبة ، نهائيـة
كالسنبلات والشمس ، كالزهور والميـاه

– ٢٠ –

أستطيع ان أكتب أشد الاشعار حزنا هذه الليلـة
اكتب مثلا : لقد ترصع الليل بالنجوم
وارتعـدت الكواكب الزرق ، على البعد .

رياح الليل تئن وتدور في السماء
وتغني .

استطيع ان اكتب اشد الاشعار حزنا هذه الليلة .
احببتها
وهي ايضا كانت تحبني احيانا .

كنت اضمها بين ذراعي في ليال كهذه
واقبلها تحت قبة السماء اللامتناهية

احبتني
وانا ايضا كنت احبها احيانا
وكيف لا أعشق عينين مثل عينيها الواسعتين

استطيع ان اكتب اشد الاشعار حزنا هذه الليلة .
التفكير بانني لا احوزها .
الشعور بانني قد اضعتها .

اسمع الليل الطويل ، يتزايد طولا بدونها
وتسقط الاشعار على الروح كما يسقط الطل على
الحشائش
ماذا يهم لو عجز حبي ان يحتفظ بحبها
لقد ترصع الليل بالنجوم وهي ليست معي

هذا كل شيء . احدهم يغني على البعد ، على البعد .
وروحي قلقة لفقدانها .

نظراتي تبحث عنها لتقربني منها
وفؤادي ينشدها ، وهي ليست معي .

تلك الليلة التي تغطت الاشجار فيها ببياض الثلوج
لم نعد نحن من وقتها كما كنا من قبل .

لم أعد بعد أحبها .
ولكن ، لشد ما احببتها زمنا .
يطالع صوتي الرياح لكي يطرق اسماعها .

لغيري . ستكون لغيري
مثلما كانت من قبل قبلاتي .
صوتها ، جسدها الصافي . وعيناها اللامتناهيتان .

لم أعد بعد احبها .
ولكن ربما اكون ما زلت احبها
كم قصير هو الحب ، وكم رحيب هو النسيان .

لانني كنت اضمها بين ذراعي في ليال كهذه
فان روحي قلقة لفقدانها .

فليكن هذا آخر حزن تسببه لي
ولتكن هذه آخر سطور اخطها لها في حياتي

انشودة اليأس

تبرز ذكراك في الليل الذي يلفني
ويتحد النهر والبحر في صرخة حزن عنيدة .

مهجور أنا كأرصفة الميناء عند الفجر
حانت ساعة الرحيل ، ايها المهجور !

تتساقط النوارات الباردة كالامطار على قلبي
آه يا كوما من الانقاض ، يا كهف الغرقى الضاري !

تتراكم فيك الحروب والطيران
ومنك تنمو اجنحة الطيور الشادية .

تلتهمين كل شيء ، كأنك الفراق
كأنك البحر ، كأنك الزمن
كل شيء يغرق فيك !

لقد كانت ساعة الهجوم والقبلات
الساعة الفرحة
ساعة الحذر الذي يتحرق كالفنار .

قلق القبطان ، غضب الغطاس الاعمى
نشوة الحب القلق .
وكل شيء يغرق فيك !

في طفولة الغمام
ترقد روحي مجنحة جريحة .
آه ايها الكشاف الضائع
كل شيء يغرق فيك !

لقد تمنطقت بالالم
وامسكت بالرغبة
ولقد قهرك الحزن
وكل شيء يغرق فيك !

لقد حسرت جدران الرغبة
وعبرت حدود الرغبة والفعل .

آه يا ايها الجسد ، يا جسدي
آه أيتها المرأة التي احببتها واضعتها
اناديك في هذه الساعة الرطيبة
واشدو لك .. بأغاني .

كأنك كأس بها حنان الدنيا .
ولقد هشمك النسيان الابدي
ما دمت كأسا رقيقة .

كانت العزلة السوداء ، السوداء
عزلة الجزر القصية

وهناك ، يا فتـاة الغرام
ضمتني ذراعاك الواهنتان .

كان العطش والجـوع
وكنت انت الثمـرة
كأن الحـزن والركـام
وكنت انت المعجـزة

آه ايتها المـرأة
لست ادري كيف احتويتني
احتويتني في ارض روحك
وفي صليب ذراعيك .

كانت رغبتي فيـك
اقسى رغبة واشدها قصرا
اشـد الرغبات ضراوة ونشـوة
اكثرها توترا وشراهة .

يا مقبـرة القبـلات
ما زالت الشـعلات تضوي في اجداثك
ما زالت افنانك تتوهـج
بنقـرات العصـافير .

آه أيها الفم الذي اعتصرته
آه ايها الجسد المنثور بقبلاتـي
آه ايتها الاسـنان الجوعى
آه ايتها الاجساد المتثنيـة

آه ايتها الوشـيجة الجنونية
وشـيجة الامل والجهـد
الوشيجة التي تربطنا وتسومنا عذاب اليأس .

والحنـان
الحنـان الرقيق رقـة المياه والدقيق
والكلمـة
الكلمة التي لا تكاد الشـفاه تلفظها .

كان ذلك هو قـدري
وقد طوفت به رغبتـي

حتى سـقطت فيـه
وكل شيء يغـرق فيك !

آه يا كومـا من الانقاض
كل شيء يسـقط فيك
أي الم يعتصرك ، أي موجات لم تغرقك ؟

تتوهجين من قبـر لقبر
وتنشـدين
تقفين كأنك البحار على صدر السـفينة .

ما زلت تتفتحين اناشـيد
ما زلت تتكسـرين امواجـا
آه يا كوما من الانقـاض
يا بئـرا مفتوحـة مريرة .

ايها الغطـاس الشـاحب الاعمـى
ايها المحـارب البائس
ايها المستكشـف الضائع
كل شـيء يغرق فيك !

حانت سـاعة الرحيل
السـاعة الجامـدة البـاردة
التي يخضـع فيها الليل كـل الازمـان لسـطوته .

زنـار البحر المضطرم يلف الشـاطىء
وتطلـع نجـوم بـاردة
وترحل طيور سـوداء .

مهجـور انـا كأرصـفة الميـناء عند الفجر
ولا غير الظـلال الراجفة يتثنى بين يـدي .
آه ، بعيـدا عن الجميع :
آه ، بعيـدا عن الجميع .

لقد حـانت سـاعة الرحيل ايها المهجـور !

ترجمة : ماهر البطوطي

اختلافات

علي جعفر العلاق

١ ـ تغيـر :

لم تعد شـجرات الطريق التي
نشتهيهـا سـوى شـجرات ،
وموعدنـا اليوم ، والبـارحة
لم يعـد غير معـذرة
جارحـــه .
لم تعـودي تجيئينني حيـة
مثل جمر جديد ، ولاذعة
مثل جمر جديد ،
تعيدين تشـكيل ايامنا ،
وانـا لم اعـــد
احسس طعـــم المكـان
فلنقل : اننا اليوم مختلفـان

٢ ـ هـواجس :

الطيور الكئيبة الآن تأتـي ،
تتحـرّى هواجسي ،
ثم تنـأى
أيّ جـرح اخفيه ؟ ان ثيابـــي
بلّلتها الهموم شـيئا ،
فشـيئا ،
قلت : شوفي كآبتـي ،
قلت : هزّي جذعهـــا ينهمـــر
بكـاء ، وضوءا

٣ ـ علاقة منتهية :

نـدم ام نـــدى
أنّ ما بيننا اصبح الان يا صاحبي
عرضـة للاذى ، والجفـــاء
نـدم او نـــدى
انني ، حين يختلط الاصدقاء المحبـــون
بالاصـــدقاء المعـــادين ،
أهجس أيهما الاصدقاء
آه يا صاحبي ،
كيف حفلـة تلك الســنين انتهت
ومضينا نشق تذكارنا
في غبـــار الطريق
ونغنـــي : ايا طـرق الليـل
أنا انتهينـا ،
وعدنـا بـلا جمـــرة ،
او صـــديق

بغـــداد

السيد حافظ

سيمفونية الحب

ـ في ثلاث حركات ـ

الحركة الاولى

عصام وليلى والبحر والنورس والقمر

تفوح رائحة البحر وتقترب اخر النجوم في الافق مودعة احلام الصيادين مودعة الشمس . تتهادى موجة فوق الصخر .تنفتت سمكة كانت تحلم بالغوص في القاع بجوار الشط . كانت هي وكنت انا وشريط طويل طوبة والبرد والمطر الخفيف والبحر والنجم والافق البعيد . الظلام . كورنيش البحر . كورنيش الانفوشي وقلعة قايتباي الكهلة العجوز تنظر الينا . بدانا متشابكتان . على جبهتها تتارجح خصلات صغيرة بريئة . ويدها الجريئة تضغط بحنان على يدي الباردة والبحر يبتسم لنا .

ـ الحب

ـ افهمك

ـ الحب

ـ اعرفك جيدا

قبلتها رغم ان امامي بخطوات محطة الاتوبيس واشباح الناس المنتظرة له كانه الامل القادم للانقاذ وكانت الناس منكمشة تحت المظلة تراقبنا بعيون مرتعشة . ضغطت عليها في احضاني تارجحت ، هي طفلتي البريئة تكتب الشعر وتكره نزار لاني اكرهه وتحب ناظم حكمت لاني احبه . تمزق الخطاب الف مرة قبل ان تكتبه لي لانها تخاف ان اضحك عليها . تقبل كفي .

ـ ابي

ـلست اباك

ـ حبي

خطونا ، مر الاتوبيس بسرعة من جوارنا . صرخ احد الركاب وهو ينظر من النافذة :

ـ يا اولاد الكلب اذهبوا للنوم . الدنيا برد .

ضحكنا . في نهاية الرصيف وعند المنعطف . شباك الصيادين ملقاة على الشاطيء . طفل ينتظر الصباح ليمرح ويلهو مع الاسماك في البحار . الجندوفلي . المرجان . الكابوريا . الجمبري .

ـ كنت اظنك لن تحضري اليوم .

ـ اخي لم يحضر من الجبهة . جاءت خطيبته . كنت اظنه سيحضر . خطيبته قالت لن يحضر .

اشعلت سيجارة (بلمونت) ونظرت لها ويدي على كتفيها

ـ أتشمين رائحة البحر ؟

ـ وجهك حزين .. لم انت هكذا ؟

« حزين .. لو تدرين ما حدث اليوم في الجامعة . مجلات الحائط تمزق .. ومقالتي تثير ضجة والعميد يطلبني للحضور . ما الذي كتبه هذا الطالب المغفل . لم اذهب للعميد . جاءت قوات الشرطة تضربنا . جرينا . سقط بعضنا . جريت انا . وانا الان معك حزين لم اعرف من قبض عليه ومن جرح .

قبلتها .. كوني لي . قبلتها . نمنا على الشباك وتعانقنا .همست في اذني » .

ـ انت مجنون . الناس . الطريق .

(البرودة لا تهم .. العالم دافىء معك . احتويني ايتها المجنونة الحمقى . احتوي جنوني . اجمعيني من تمزقي .. لمي حروفي التي تمزقت من نشرة المجلة والحائط . احبك . احب البحر احب النو رس احب اشعارك الساذجة ولوركا . اسمع صراخ الشرطة وصراخ الجميع .)

خلعت جزءا من ملابسي . خلعت جزءا من ملابسها

مر اتوبيس من جوارنا بسرعة . صراخ ركابه . لكنه لم يقف . كأن الله لا يريد ان يفضحنا . كأن الله يحمينا .

صرخ شاب من المنزل المواجه للبحر من الدور التاسع :

ـ يا مجانين .

ـ يا اولاد الكلب .

. . . .

. . . .

قال ناجي في القهوة عندالتاسعة مساء انت كنت تسير على البحر في وضع غرامي لقد شاهدتك .

ـ لقد شاهدتني .. اعتقد لا . اشعل سيجارة .

الحركة الثانيـة

عصام والمطـر ومها والتوحيد :

ــ غـدا ؟

ــ ربمـا .

ــ ارجـوك .

ــ احـاول .

(تغوص اقدامي تدوس في عنق الرياح العفنة . تعربد رياح افكاري على اجنحة المنازل القديمة ويتساقط المطر بشدة في الخارج وانا أهبط درجات سلم البيت القديم بوجهي المتعب بحنجرتي المجهدة من الحديث الطويل والشرح الممل : تقع امريكا في موقع متوسط . ومحاولتي الدائمة ان اخلق من لاجدوى الاشياء في تلميذتي الوجود . جيلي يتعثر في خانات الهزيمة . جيلي لم يمنح فرصة وانتن يا تلميذاتي في عيونكن شمس القدوم . (وقفت على باب الشارع لا يمكن ان اصعد مرة ثانية .. لا يمكن لقد انتهى الدرس وتلميذتي ودعتني على الباب وهي ترتجف من رياح ((كيهاك))) .

على باب الشارع . المنزل الكبير . على باب المنزل الكبير المطل على الشارع الذي اصبح مستنقعا كبيرا . عربات . رجال بمظلات وقائية للمطر . تحول البشر الى سلاحف تهرع تختبىء . ينهمر المطر فوق جبال الحبشة .. تهب رياح عكسية على المحيط الاطلنطي . يمر طفل من الشارع يسقط . تسقط امطار . تغني فيروز (حبيتك بالصيف) وصوت المحقق

ــ انت يساري .

ــ نعم . لا افهم

ــ نحن يسار وطني وانت يسار منحرف

ــ نعم . لا افهم !

ــ شرب الشاي اولا

حسونة المقهى وانا وحديث طويل .. انت الامل لنا .. تحت ابطي (الثورة الثقافية) وحيد النقاش ــ البرتو مورافيا ــ عيون الشرطي السري ــ الذي يجلس معنا في المقهى .. جاليري ٦٨ . ابحث عن الناشر ــ صبري حافظ يرفض ان ينشر لي .. قصيدة عفيفي مطر لا افهمها .. مات عم العمدة من (السعال الديكي) مع انه تجاوز السبعين .. عم العمدة بائع الطماطم .. كف الشرطي . صرخة ام في سيناء . رضيع يباع في الصمت .. مقهى الصعايدة .. لعل وعسى .. صلاح جاهين .. بكرة اجمل .. الحب المطر .. المطر .. المطر .. عربة تمر بسرعة ..

ــ استاذ

ــ مهـا

ــ انت تقف على البـاب ..

دخلت مهـا تجري وانا اقف على الباب .. مها خالة تلميذتي لم تتكلم معي ابدا .. دائما ابدا .. ازيك . تدخل الشاي لي ... نبتسم . في ابتسامتها شاهدت القاهرة تبتسم والمنارة تعانق قلعة قايتباي . حسن عقل يا غبي .. اتعرف الحب يا ساذج . المرأة لها عيون غجرية ... سوسن المرسم . من قبائل اسبانيا تحب . بينما كنا نأكل الفول يا حسن . كنت تأتي باشعارك الي تسألني ما رأيك . واليوم قبضوا عليك فجرا .

عيناك يا مها بألف لغة تتحدثان بثورة العشق الابدي ..حسن في السجن وانا في سجن عينيك ومدت يدها . صافحتني . تشابكت ايدينا .. ضغطت على يدي .. اقتربنا . اقتربنا تشابكت ايدينا واجسادنا ــ سعاد حسني وخلي بالك من زوزو ــ وقبلة دافئة تحت المطر ، وراحت يدي تكتب على جسدها اشعارا وردية على شجرة الياسمين ــ السيد بونيلا ونابعه ماتي : هذه يدي عرت الحروف من على جسدها وتحسستها وذاقت يدي لحم الحرف ولحم الانثى .

صرخ احد الاطفال من الدور الثالث ..

الدنيا ظلمة قوي يا ماما .

تفرقنـا

صعدت الى اعلى

خرجت الى الشارع

. . . .

لم نلتق .

الحركة الثالثـة

عصام وشادية واللحظـة :

قال الرقيب في المباحث العامة :

ــ احذف هذه الجملة من المقالة . وهذه الجملة وهذهالجملة :
قال الرقيب في الرقابة على المصنفات في وزارة الثقافة :
مسرحية ٦ رجال ممنوعة من النشر والتمثيل .
قال مدير شركة التوزيع :

ــ انت كاتب جديد على القارىء العربي ومسرحك صعب ولا استطيع ان اخرج كتابتك خارج مصر .
قال رفيق الصبان :

ــ وجهك وحركاتك تصلح لان تكون ممثلا معي في مسرحياتي .

قالت يقول .. يقولان .. يقولون .. تقولين ..

قالت الموظفة الرقيقة : انت انسان لطيف جدا .. سنتناقش في مسرحيتك الجديدة عندي في منزلي الساعة السابعة مساء . زوجي مسافر الى ايطاليا

يقول مدير الثقافة :

ــ وكيل الوزارة في جيبي .. ساجعله يطردك مهما فعلت يقولان :

ــلا تخرج يا استاذ .. في الخارج البوليس يقبض على الطلبة .. حاول ان نهرب .

يقولون :

ــ فتاة سمراء تنتظرك في الخارج ..

تقولين ...

ــ انا شادية .. موش سيادتك الاستاذ عصام المخرج ..

انا شادية بطلة مسرحية ((رأس العش)) التي ستقوم بأخراجها ..

مساعد المخرج اخبرني انني اصلح ..

هل ستخرج المسرحية ؟ ..

المظاهرات . لم تسمع ان هناك مظاهرات والنشاط ممنوع في الجامعة .. ممنوع التجمع .

ــ الدول الاوربية التسع ترحب بطلب اليونان للانضمام للسوق المشتركة .

الى اين ستذهب اليوم ! ..

اتصالات مكثفة في لبنان لتشكيل الوزارة نتوقع استمرار الازمة اسبوعا اخر .

الى قصر الثقافة .

الدول الصناعية والنامية تبحث دعم اقتصاد الدول الفقيرة .

بجواري .. تحدثنا . عن مجلات الحائط . عن الحرية عن الناصرية الاخوان المسلمين الشيوعيين . كيسنجر يصرح محادثات رابين وفورد لم تتوصل لنتائج محددة .

دخلنا محل فينوس .. أكلنا قطعتين من الجاتوه . شربنا الشاي خرجنا سرنا .. هل ستطيعين الحضور . لجنة تصفية الاستعمار تجتمع في البرتغال ..

في السادسة مساء .. عندي بروفة السابعة سأنتظرك امام مكتبة الاهرام في شارع النبي دانيال . ودعتني انا مشغول . سعيدة. لا اعرفها . لكنها انيقة .. رقيقة .. ربما انا احتاج الى اي أنثى الان . لكن معي ميعاد السابعة مع الموظفة الرقيقة . وعندي بروفة . وهل ساجد ورقة من البوليس السياسي تستدعيني . اين كنت اثناء المظاهرات في الجامعة ؟ لابد انك ؟ واين المفروض وأين أجد نفسي ..

ـ سعدالدين وهبة اليس هذا مؤلف « سكة السلامة » ؟

ـ نعم يا شادية .

ـ المسرحية دي مش زي « سكة السلامة » مش قوي

عندما جلست في التاكسي ابتسمت . قف يا اسطى . دفعت ١٧ قرشا ودخلت منزلا . انتظريني دقيقة واحدة . ضربت جرس الباب فتحت الباب لي امرأة في الحلقة الثالثة

ـ الاستاذ خليل

ـ خرج خليل

ـ اهلا عصام

ـ اعطيني مفتاح الانيليه بتاعك

ـ ادخل .

دخلت .. جلسنا في الصالون

خليل قال لي بلدي ماتت في داخلي وما زالت فيك تنبض يا فتى .

ـ معك أحد ؟

ـ معي انثى امام العمارة

ـ خذها . هذا هو المفتاح .

خليل كان يحلم بأن يكون شيئا .. سقطت احلامه في رحلة الرغيف .

اخذت المفتاح منه وهبطت سريعا . سرنا شارعين وعند شاطيء اسبورتنج . صعدنا ثلاثة ادوار ادرت المفتاح في الشقة ودخلنا . اشعلت مصباح الكهرباء في مدخل الشقة . وجلسنا في الغرفة المقابلة .

بالتأكيد كلمة رأسمالية ليست أنيقة

البلبل لفظها أعذب

ولكن رغم هذا سأقولها

كلما احتجت اليها .

دع القاطع نرن كالشعارات المتحاربة .

« عندما اقفلنا الباب تنفست بارتياح . جلسنا . شعرت بشيء من القلق . استرحت على كتفها . فجأة انقطع التيار . اشعلت عودا من الكبريت . ذهبت الى المطبخ . وجدت ثلاثة شمعات صغيرة في الاركان اشعلتها . نزلت من العمارة مسرعا الى البقال اشتريت شمعتين وصعدت الى اعلى مرة اخرى . اشعلت الشمعة لارى وجهها يبتسم في ضوء الشموع . مدت يدها لي تمسح عرقا يتصبب من جبيني . انت قلبك بيدق . »

خلعت قميصي رحت اضمها الي .

راحت ترمي برأسها على كتفي .

انت انسان غريب . متى ستنزل من هنا . عندما ننهي الشموع ...

في الثامنة والنصف .. هبطنا .. في الظلام . صرخت امرأة في الدور الثاني مين اللي نازل ؟

قلت : أنا الاستاذ خليل .

ـ ومين اللي معاك .

ـ المدام .

ـ معليش النور انقطع . كنا جايين نطمان على حاجة .

ـ هبطنا ....

الاسكندرية

طلال م ٠ مراد

الرغبة والفعل

توضأت بالحبّ ، صليت خمسا لغير حبيبي ، وهاجرت في حيرتي زمنا ، (فرصة للخيار) فقلت : الذي كنت اهوى ، فكان الحنين بحجم الصدى او بحجم السراب ، وكان التطلع مثل اتساع المدى حين ينبجس الضوء ، كانت بقايا التواصل ، ان الذي اخترته لم يسح في دمي .

* *

اذ هالان ينماز في اذني صوته ، رسموا باسمه صورة للغاية وانفرطوا ، (آه .. والنجم اذ يتناثر ما ضلّ صاحبكم وحده اننا قد ضللنا جميعا فهاتوا لنا لحظة للعناق وهاتوا لنا كلمة نتخذها طريقا) ، ولكنهم سكنوا رغوة الكلمات .. سكنت نسيجا من الحلم :

انتظر ايها الوطن المستباح فآتيك سعيا على فرس من دمي .

توضأت بالشمس ، صليت للوطن المشتهى رغبة في الخلاص وهذا دمي شاهد .

انه العشب مدّ اياديه واستقام على عوده . (دعوة للعشاء وقلبي الوليمة) قال لنا العشب (فابتدئوا) ، فابتدأنا وثمة رقص على النار ، ثمة خوف على شجر الخوف يلتف ، ثمة وجه يجرّرنا للغواية : حدثنا العشب : (هذا بيان فلا تبعدوا) . فبعدنا .

الموصل

زهور دكسن

سور لطائر الليل

— ١ —

رغوة الماء ...
ماء ..
رغوة
الماء
ماء ..
والنهايات .. عود الى البدء
يا ايها المنتهى
رغوة
الماء
ماء ..

— ٢ —

خلف سور الحديقة ...
اورقت كلّ عين على العشب
كفا .. وعينا ...
والدجى
ضارع ...
رافل بين مفرورق الكفّ .. والكفّ أثر العناء ..

— ٣ —

خلف سور الحديقة ...
طائر ....
مرّ ما بين كفين
مسترخيا
ناعسا
. . . .
فاستطاب النعاس
.... ثمّ ....
طار الهوينا ... !

بغداد

مسلم المجابري

قتيلة القمر

« ترى كيف عشقت وأنا بعد يافعة »
شـــاعر

اخشى ان يغدو بدرا هذا القمر الساكن في الصدر .
اخشى أن يكتمل البدر !
الزبد الابيض والرمل الداكن ، والعينان الزائغتان
ونحن اثنان
نبكي ونخبيء ظل الخيبة خلف الاجفان

البحر فوق كاحلي تدحرج
ورف مثل زهرة البنفسج
وفوق وجهي رفّ ثوبها
أأشتهيها أم أحبها !؟

ــ لا تتركني وحدي
تتشبث بي تبكي ، تركع تفتح ازرار قميصي
تجلس عندي .
اجلس فوق الرمل الداكن وحدي .
ــ لا تتركني وحدي
المسها تتكور تحت يدي يغمر خدّيها عرق ابيض
صاعقة ونجوم تنقض
ويغمر وجهينا برق ابيض
يرف في الضياء ثوبهـا
أأشتهيها أم أحبها !؟

ذات صباح ، اسرجت خيول الشوق
قلت : سأرحل !
قالت : رحماك ترجّل
قلت : سئمت العشق السري وهذا الوجد الممنوع .
قالت : صار البدر الكامن في الصدر حمامة
والليل شموع .
تغتسلين فينحدر الماء على الكتفين .
تبكين ، وتشتعل الضحكة في الشفتين !
عذبني الشعر المبتل بماء البحر
وهذي الحرقة في العينين .

قلت : ســأرحل
قالت : سوف تكون اللوعة اطول .

أرهقني الوجد ومعركة الحب السرّية طول الليل
فنمت في سريرها طويلا
رأيت فيه حلما جميلا

كانت زهور ثوبها الحمراء
قافلة تسير فوق الماء !
وقلبها المحترق الحزين
منــارة
تضيء في الظلماء .

قال البرق الساكن في عينيها : انهض
فنهضت
قال : اقبل ...
اقبلت
عانقني البرق وحين استيقظت
فاجأني بسيفه مسلولا
فنمت في سريرها
قتيــلا :
(قتلتني لاني
كنت يوما أحبها
ايها القلب ضمّها
وليدثّرك ثوبها)

ذات مساء
كنت تخافين نمو الاقمار
واخوك فتى كالسروة بين الاشجار
يدرأ عنك الريح
ويحميك من الامطار
((أغنيــة)) :
« يأتي البحر رويدا
يأتي الزبد الملح رويدا
يتشبث بالشعر المشبع موتا ودما
يحمرّ الملح وينحسر الموج رويدا »
وهي فوق الجسد الملقى على الرمل
عروس .
شبكت في مشطها العاج
غصون الابنوس .

بغداد

دكتور سيد حامد النساج

بطاقة تعريف لشاعر مغربيّ شاب!

تظل كل محاولة للتعرف على ملامح الحياة الادبية والفنية في المغرب الاقصى ، محفوفة بكثير من جوانب القصور ، ولا يمكن ان ينظر اليها الا في اطار كونها قراءة في بطاقة تعريف محدودة الهدف ، محدودة المعلومات ، بشكل لا يتيح لقارئها ان يستكشف الاعماق ، ويستبطن ما وراء الظواهر ، ويدرك الابعاد الحقيقية وراء تلك البيانات

ونحن في المشرق اكثر ما نكون حاجة الى مثل هذه البطاقات التي يجهلها اكثرنا : ادباء ونقاد وفنانين وقراء . وبعدها طبعا ، وليس قبلها ابدا ، يصبح لزاما على من قام بدور التعريف : ان يعمل فكره النقدي ، وقلمه التحليلي ، مستندا الى رؤية واعية لامكانيات من تصدى لهم ، واحاطه تامة بملابسات انتاجهم ، ثم يكون قد اطمأن الى ان قارءه – في المشرق – مهيأ فكريا وثقافيا ، لتقبل وجهات نظر مختلفة ، وآراء متباينة ، حول ادباء وانتاج له بهم وبه دراية ، ولديه عنهم وعنه سابق معرفة . وهنا يكون النقد والتحليل والحكم منطقيا ومقبولا . اما حين يبدأ الناقد باستعراض عضلاته النقدية ، وفرش تعقيداته المستوردة ، وحشر معلوماته المترجمة ، مطبقة على انتاج وانباء يحتاج القاريء اولا الى ان يسمع بهم ، ويفهم ظروفهم ، بل وان يحدد موطنهم الجغرافي ، فان المسالة – عندئذ – تصبح في حاجة الى اعادة نظر . اذ الامر هنا مختلف تماما عن تناولنا النقدي لامثال طه حسين او الحكيم او نجيب محفوظ او يوسف ادريس او غيرهم ممن لم يعد القاريء العربي معهم يشعر بانه مشتاق الى مزيد من الدراسات حولهم .

كذلك فان اختيار ادباء بيئة لم يعايشها الكاتب معايشة كاملة من شانه ان يؤكد ما سبق . وهو امر طبيعي بالنسبة لانسان يعيش بعيدا عن المغرب ، مما قد لا يتيح له فرصة الاتصال بالكتاب ، ودقة المتابعة ، وسهولة تجميع الانتاج او حتى الاطلاع عليه كله : ان في المكتبات العامة او في دور الصحف ، او في بيوت اصحابه ، او جيوبهم الخاصة ، نظرا لما تتعرض له منازل البعض من تهجم وتفتيش ، فضلا عن معرفة الاتجاهات الحقيقية للكتاب ، وادراك ابعادهم الاجتماعية والنفسية والفكرية والعقدية .

يضاف الى هذا ان الادب المغربي المعاصر يمر بظروف جد صعبة : سياسيا واجتماعيا ونضاليا ، جعلت الادباء يعانون الوانا من العذاب ، بعضها فكري ، وبعضها نفسي حاد ، واخطرها جسدي ، وكلها نتاج اوضاع لها خطورتها وحساسيتها في الوقت الراهن . وهي تنعكس بالضرورة على كتاباتهم غير المعلنة . فان لهم كتابات لم ينشروها ولم يذيعوها ، وانما يخبئونها ويختزنونها في ادمغتهم هم وحدهم .

ازاء هذه الملابسات وتلك الاوضاع تبقى كل محاولة مماثلة لتجربتنا هذه لا تعدو كونها اطلالة من بعيد على مشارف ادب يناضل في ارضه ، ويلعب دورا في حياة شعبه ، ويعايش قضاياه ، ويصور الامه ويجسد مشاكله ، ويستشرف الطريق القويم لمستقبله .

والشاعر الشاب الذي نريد ان نقدمه الى القراء هو «محمد بنيس» الذي اصدر ثلاثة دواوين حتى الان ، اولها : « ما قبل الكلام » ١٩٦٩ ، وثانيها « شيء عن الاضطهاد والفرح » ١٩٧٢ ، وثالثها « وجه متوهج عبر امتداد الزمن » ١٩٧٤ . الى جانب قصائد متنوعة نشرتها له بعض المجلات العربية . ثم اخيرا اصدر مجلة جديدة تحمل رؤية الشباب المغربي المثقف الجديد ، ومحاولته الجاهدة في التعبير عن نفسه ، ومشاكل مجتمعه ، ووجوده ، وحركته ، من خلال تصوير « الثقافة الجديدة » تمييزا لها عن غيرها من المجلات الرسمية التقليدية . (١) بالاضافة الى انه يعد اطروحته للحصول على درجة الماجستير في موضوع : « التجربة الشعرية المعاصرة في المغرب – من البدايات الى الامتداد » .

ولا يقف « محمد بنيس » وحده – كشاعر – يبذل الجهد في محاولة تعرية واقع بلاده ، وتحديد معطياته في مختلف الميادين والاتجاهات ، وانما يعتبر جزءا من كل ، وواحدا من جماعة كبرى ، ضمت وتضم : مصطفى المعداوي الذي توفي وهو في الرابعة والعشرين من عمره ، بعد ان قدم في ميدان الشعر والنضال نموذجا يعتبر – في نظرنا – التجربة الرائدة في هذين الميدانين . والفرقاني محمد الحبيب . ومحمد بن دفعة . واحمد المجاطي . واحمد صبري . واحمد المعداوي . احمد

---

(١) مجلة فكرية ابداعية . مجلة كل المثقفين التقدميين المغاربة . من اجل المساهمة في خلق فكر مستقبلي دافع للتاريخ نحو الامام .. تتجه نحو البحث الجماعي عن الحقيقة .. وتعتمد المنهج العلمي .. منطلقة من واقع ثقافي مأزوم .

ابن ميمون . عبدالكريم الطبال . مفدى احمد.حسن الطرينق .هناوي احمد . محمد الشمرة . غبنة الحمري . ن.الملياني ادريس . الطيب الرياحي . محمد القماص . محمد بن طلحة . عبدالله راجع .حسن الغرفي . عبدالعلي الودغيري . بنيحي عبداللطيف . احمد الجوماري. ابراهيم السولامي . بشالم الدمناتي . محمد السرغيتي . ابراهيم الهلالي .محمد البحتوري .عبداللطيف زروال . محمد الخمار الكنوني مالكة العاصمي . رشيد العبيدي . ومجموعة الشعراء الذين يكتبون بالفرنسية أدبا يتسم بالثورية المنبثقة من شعورهم وتعبيرهم عن سخطهم وانفجار عواطفهم ، امثال الطاهر بن جلون ، وعبداللطيف اللعبي والنسابوري ! ولعل كثرة عدد الشعراء في المغرب ترجع الى ادراك الشباب بخطورة الدور الذي يمكن ان تلعبه القصيدة الحديثة في التعبير عن الواقع المعاش ، اذ تعد بذلك المنظار الاكبر شفافية الذي يستطيع المرء ان يرى من خلاله جذور الواقع المتحرك للمجتمع المغربي في مستوياته المختلفة . ومن ثم تستكشف المعطيات الدقيقة للواقع النفسي والاجتماعي والسياسي والفكري للانسان المغربي ! ويجب الا ننسى ان المغاربة يطربون للموسيقى والانشاد . وولعهم بالموشحات الاندلسية والمغربية قديم . كذلك فان الصراع ضد القوى المؤيدة للتنفرنس ، كان يستدعي ان تكون اسلحة المعربين قوية صارمة . ولقد كان الشعر العربي هو هذا السيف المصلت في وجههم . ثم ان المعربين كانوا يتهمون المتفرنسين بانهم يتمسكون بلغة وحضارة لا علاقة لها باللغة والحضارة العربيتين . بينما الشعر العربي يستند الى تراث شعري أصيل ، والىبيئة عربية وحضارة عربية كانت لها سطوتها وامتداداتها القوية . وثمة سبب آخر ، ينبع من كون العلماء المغاربة والفقهاء وائمة المساجد ، لهم تأثيرهم اليومي على عامة الشعب ومتوسطي الثقافة ، وهؤلاء لا يخلو حديثهم من « الشعر » الوعظي الحكمي الارشادي . وهو ما يجعل الاذهان مهياة دائما لسماع الشعر وقراءته . ولا يخفى ان الشعر يقرأ بسرعة ، ولا يستغرق وقتا ان اذيع بواسطة المذياع . كما ان القصيدة تعبير عن شعور مركز مكثف ، موجه الى القلب ليحدث تأثيرا مركزا وسريعا ، ومن ثم تكون الاستجابة الفورية .

ولا يحتاج الشاعر الشاب « محمد بنيس » الى لف ودوران ، كي يصوغ فكرته ، وليقول كلمته ، وليعلن موقفه من خلال بعض القصائد التي تؤكد شهادته التاريخية ازاء واقع فاسد ومناخ مسموم . وقد ضحى من اجل هذه الشهادة التاريخية بالكثير من خصائص الفن الشعري . فقد وضع الهدف نصب عينيه : ان يفضح المساويء ، ويعري الاوضاع ، ويكشف الزيف ، وان يسجل بهدوء مراحل التعذيب النفسي والبشري المسلط على الانسان المغربي ، منذ ان تكشفت له مظاهر الزيف والخداع التي تغلف واقع الحياة المزري الذي تميزت به فترة ما بعد الاستقلال . الواجهة . ان الامال العريضة التي كانت تختلج في نفوس الجماهير المغربية سرعان ما بدأت تتهاوى واحدا بعد الاخر ، بفعل ما حفلت به سنوات ما بعد الاستقلال من خيبة امل اخذت تطبع ، يوما بعد يوم ، كل مجالات الحياة المغربية اليومية للجماهير العريضة . وهكذا وجدت هذه الاخيرة نفسها تبتعد شيئا فشيئا عن المضمون الحقيقي للاستقلال الذي ناضلت من اجله ، فداء منها للحرية والسيادة ، وصونا للكرامة المغربية .

وبعدما تداعى حلم الديمقراطية السياسية والاجتماعية ، صودرت الحريات ، وفرضت رقابة صارمة على كل انواع التعبير ، وابعد الممثلون الحقيقيون للشعب عن ساحة الممارسة اليومية في حظيرة الدولة ، وتبعا لذلك ابعدت قضايا الجماهير الاساسية المتعلقة باحوالها الخاصة والعامة ، لتحل محلها قضايا ثانوية ، تتسم بطابع المصلحة الفردية . بمعنى ان الاستقلال اصبح ، في نظر الجماهير ، اسما بدون مسمى ، واطارا فارغا من اي محتوى ايجابي من شأنه ان يوازي نضال الجماهير صانعة الاستقلال . وكان انعكاس ذلك على الواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي اسوأ بكثير مما قد يتبادر الى الذهن

وقد اراد الشاعر الشاب محمد بنيس ان يكشف عن هذا الواقع المنهار الذي يقود الى السقوط الحتمي . وان يركز تسليط اضوائه على بعد جديد في حياة الشعب المعاصرة ، يتمثل في محاصرة الافراد . وفي الرقابة المشددة على المثقفين . وفي مصادرة الاحلام والتطلعات والافكار . وكنتيجة للاحساس الحاد بثقل التبعة وعبء المسئولية ، لم يتخلف محمد بنيس عن تقديم شهادته ، كوثيقة ادانة ضد القمع الذي يتضخم يوميا في اطار سياسي لا ديمقراطي .

لا اكتب شعرا او نثرا
« لا اكتب ما يبقى محفوظا في المتحف
يكفيني ان يرميني منفجر

مثلي
في الساحة

مثلي
في الواحة
وليسمح لي نقاد الشعر
وهواة النثر
يكفيني اليوم

عشاق الجنة والنار
والفرح المسفوح على شباك الدار
هذا تقرير عام
او منشور خاص بالمطرودين
من قاعات التكبير
والتصفير
من حمى الجبناء » (1)

ومما يحمد لهذا الشاعر الشاب انه اتخذ موقفا جادا وجريئا من شعره الذي كان قد كتبه في بداية حياته الفنية ، وبالذات في ديوانه « ما قبل الكلام » ، معلنا رفضه لما فيه ، وكانه لم يعد يناسب المرحلة التي يمر بها المغرب ، والتي تحتاج الى الشاعر الثوري الواقعي ، الصادق البسيط ، لا الشاعر الفانتازي ، او الانتهازي ، او الرومانسي . فكتب في صحيفة (العلم) مقالا بعنوان :

« طلقت ما كتبت ! » . وقد فطن الى ان الشعر لا يتغذى من الذاتية الحرة المفرطة ، اذا اريد ان يكون ناجحا ، كما يقول جورج لوكاتش . اذ ان نقطة انطلاقه هي الحياة نفسها . وان موجودات الواقع في اي مجتمع وفي اي عصر ، كانت وما تزال تشكل المادة

الخام والينبوع الثر ، الذي يستقي منه كل فنان مادته الفنية والفكرية اللازمة . لذا فان نجاح الفنان محكوم بمدى قدرته على وعي واستيعاب كل ما يفرزه الواقع الانساني خلال تفاعلاته الدائبة والمستمرة ، وبالتالي قدرته على التعبير عن معطيات ذلك الواقع تعبيرا فنيا صادقا ، تتحقق معه لحظة الانعكاس المطلوبة في كل عمل فني اصيل ، يبتعد عن كل ابتذال او تشويه .

ويزداد تقديرنا لموقف هذا الشاب اذا عرفنا ان ديوانه الاول صدر ١٩٦٩ ، وانه طلقه في اغسطس ١٩٧٢ ، واضعين في اعتبارنا انه شاب لم تاخذه العزة بالنفس والتضخيم من الذات الى طريق

---

(1) من مقدمته للعدد الاول من مجلة « الثقافة الجديدة » ـ خريف ١٩٧٤ .

برفض فيه « المواجد » و « المنازل » و « الفعل » ، وانما الذي حدث كان على العكس تماما : تحمل مسئوليته من نفسه بنفسه ، لانه التزم التزاما واقعيا بقضايا شعبه . فوقف من شعره ومن نفسه هذا الموقف الذي يذكرنا بموقف مماثل في الصين الشعبية يوم ١٤ ابريل ١٩٦٦ ، مع بداية الثورة الثقافية الكبرى هناك ، حين صرح كاتب الصين الاول ورئيس اكاديمية العلوم الطبيعية (كيومو ـ جو) بان جميع ما كتبه جدير بان تلتهمه النيران . ولئن دل هذا على شيء فانما يدل على ان شاعرنا الشاب قد ازداد وعيا بواقعه ، وادراكا للتناقضات المدمرة في كل جوانبه ، وتحديدا لموقفه هو من هذا الواقع ، ومن الفن ، ومن الانسان المغربي . بل انه غدا اكثر وضوحا في ابراز دوره واعلانه دون مواربة . فقد عرف طريقه ، واصبح عليه ان يعرف الاخرين مثل الذي عرف . وان يوسع من افاق الرؤية امامهم ، وان يحدد لهم معالم مستقبلهم ، والوسيلة الى تحقيق هذا الغد .

ويصرح محمد بنيس بأن الثقافة المغربية المعاصرة ، فكرا وابداعا ، تعيش في أزمة ، خلقتها هي بنفسها كنتيجة طبيعية لانفصالها عن الواقع . فهي لا تنطلق منه ، ولا تتفاعل معه . ومن ثم غدت ثقافة شقية بوعيها الزائف ، تدور حول نفسها وتجتر انهزاميتها وشقاوتها ، مما دفعها الى ان تقف ضد سير التاريخ واندفاعه المتتالي نحو تحرره المشرق . (وكل عمل لا يحبل بالمستقبل يبقى مقطوع الاطراف ، يعيش الوهم ولا يتجاوزه ، يتواطأ ولا يغير ، يتذكر ولا يحلم) (١) اذ المطلوب من الثقافة في المغرب المعاصر ان تعمل جاهدة على تغيير الانسان المغربي وخلقه من جديد ليدخل حدود انسانيته المقاتلة .

ومن خلال ربطه الماضي بالحاضر ، نراه يستشرق للمستقبل . وبدراسته الواقع المعاصر ، يتبين القوى صاحبة المصلحة في التغيير ، وتلك التي تسعى الى ان تعود بالمجتمع الى الوراء . وكنتاج لادراكه الظواهر ككل متكامل ونظرته اليها في شمولية لا تقبل التجزئة ، جاء وعيه بالدور الذي ينبغي ان يلعبه الشعراء والفنانون ، وكذا موقفه من الاداب والفكر والفن السابق ، وكان انكاره لما ابدعه هو . ونحن نتنبأ له مستقبلاً فنيا لا بأس به ، ان سار على نفس الدربالذي اختاره هو ، وان جهد مناجل تطوير فنه ، وتثقيف نفسه ، والمشاركة الايجابية الفعالة مع بقية القوى المناضلة في مجتمعه . وفيما يبدو انه قد اختار جانب الانحياز للقوى الجديدة الثائرة ، التي تستهدف التغيير الجذري الشامل .

قد يدل على هذا من بعض الوجوه ، قصيدة (معلقات الرفض والفجع) التي يهديها : « الى الصديق عبداللطيف اللعبي » ، وهي مؤرخة ٢٥-١٢-١٩٧١ . وكان اللعبي في السجن آنذاك . وذلك هو قدر الانسان الذي جعل الكلمة النقية الشريفة هدفه في الحياة . انه قدر محدد منذ البداية : فاما السجن واما الموت . واذا كان من الثوار ، فانه يسعى الى ذلك بنفسه ، لانه لا يتوانى لحظة عن ان يجعل الثورة الدموية في كل مكان : على الجدران ، وفي محاكم التفتيش ، وفي شرف المنازل ، وفي كل صقع وركن وزاوية وشق . ويبدو لي ان شاعرنا متأثر الى حد كبير بعبداللطيف اللعبي ، مناضلا وثائرا وفنانا . . وتبلغ قصيدته هذه ستة عشر مقطعا مطولا ، لم تتبلور فيها التجربة الشعرية بعد . ويلاحظ انه قد تسربت اليها ملامح نزارية وبياتية وسيابية . وان حظيت بالوضوح والبساطة والسهولة .

(١) في مقدمته للعدد الاول من مجلة « الثقافة الجديدة » ـ خريف ١٩٧٤ .

وهو يبدأها في المقطع الاول على هذا النحو :

فررت في بداية الصباح
وفي بداية الخريف
وفي بداية الربيع والشتاء
وفي بداية الحياة
قررت ان اكتب في مشنقتي وصية بسيطة
قصيدة
او صرخة من الدماء والصدى
تنشدها معي السجون
في لحظة او لحظتين
ثم اموت
فوق جزيرتي البعيدة القريبة (١)

وهو يربط بين هذا القدر ، وبين هدفه من فنه وشعره وبين الثورة الدموية كأداة ضرورية وحتمية لتحقيق الغايات والاهداف بالنسبة للمجتمع كله ، وعلى قمته الفلاحون والعمال وابناؤهم من المثقفين الثوريين الذين يرتبطون ارتباطا عضويا بمشاكل هذه الطبقات المغلوبة والمطحونة اجتماعيا واقتصاديا ، والمقهورة سياسيا وديمقراطيا ! ونراه في المقطعين الرابع والخامس ينادي معشوقته الحمراء ، التي يريد لاعلامها ان ترفرف ، بدلا من ان ترفرف اجنحة الظلم وعلامات الاضطهاد وتجاعيد الغضب على كل بيت ومبنى وشارع ، لا سبب يدعو الى الانتظار في نظره . فالغيب الراحل لا ينتظر ان يرحم شعبا مظلوما ، او يحمي امة من زمن الموت الموشوم . والجماهير لم تعد تأخذها سنة النسيان او تخيفها مشنقة الانسان الحاكم ، ففيصمتهم الممتد خيوط غاضبة ، وابصار حافدة تتسلق سوار النار ، حتى اصبح ملايين التعساء على الارض المغربية لا يحلمون الا احلاما حمراء .

حمراء
يا ايتها الخفاقة في اعراسي
ايتها المنشورة فوق حدودي
يا حلمي
حمراء
تنمو في صمت الانواء الفقراء
تتوهج عبر اغاني الفلاحين
وشعارات العمال
ايااما آتية
عذراء (٢)

ثم ينتقل الشاعر في المقطع السادس الى الحديث عن المناضلين النموذجيين الذين يربطون بين عقيدتهم وبين عملهم ، بين النظرية والتطبيق ، الفكر والواقع ، اولئك الذين ينضم اليهم امثال عبد اللطيف اللعبي الذي اهديت اليه القصيدة . ونرى الشاعر واقعيا الى ابعد الحدود ، يصور حركتهم وتجمعهم وخططهم ، وتضحيتهم من اجل الغير ، وكأنما يريد ان يضرب للناس المثل بهم ، كنموذج يجب ان يحتذى في هذه الفترة بالغة الحساسية ، والتي تتطلب من كل ابن مخلص للمغرب ان يفعل ما يفعلون ، وان يضحي بمثل ما يضحون .

(١) ديوان « شيء عن الاضطهاد والفرح » ـ مطبعة النهضة ـ فاس ١٩٧٢ ـ ص ١٢٩ .

(٢) نفس الديوان ص ١٣٣ .

انهم يؤمنون بالمستقبل . يرفضون كل المواصفات القائمة . يريدون ان يخلقوا ويبدعوا من الثورة اغنية نضالية ، وممارسة حقيقية فعلية ، للنساء والاطفال والرجال والشيوخ والشباب قبلهم . ان يعلموها الفلاحين والعمال والعبيد والجياع والتعساء والمحرومين والاشقياء ، لانها مخلصهم الاوحد من السادة الحاكمين والمالكين والمستبدين .

ومع الالتحام الكلي بالجموع المطحونة ، ومع الالتزام بقضاياها ، والارتباط بقادتها ، يصبح على الانسان ان يحمل في يده كفنه ، ما دام قد ارتضى السير مع الذين يعبرون سلما من الورود والاشواك ، يمشون امام الليل عراة ، وامام الصبح حفاة . يمشون في صمت ، ماخوذين بفد الانسان وخانمة القهر . يمشون من نهر الموتى حتى انهار الاحياء ، يعلمون الناس الجهر الممنوع ، وجنون الرفض ، ليجعلوا من السجون والاعدام محطة ينسف نصف عمرها مع العبور ، ونصفه مع الوصول ، وليربطوا بين المعلوم وبين المجهول . كل منهم يرتضي لنفسه ان يخرج من بيته القديم مع الصغار الفقراء ، يصحبهم الى الحقول او المعامل او الشوارع ، يشق بهم قبر المجهول ، وينفض كفنه ، ثم يعود !

ولنا ان نتوقع سيطرة الدعوة الى « الرفض » على شعر شاعرنا الشاب . فحين تجتمع الكلمة الثائرة والشباب الهادر في مزيج واحد مركب علينا ان ننتظر حدة الصدام والرفض التام لكل شيء تعلمه من اهله واقاربه ، او تلقنه من المدرسة والاذاعة والجامعة والصحافة . وهو رفض مستند الى اساس موضوعي ، والى دراسة الواقع ، مما جعله يؤمن بالرفض وسيلة اولى من اجل التغيير . وايمانه به يدفعه الى ان يحض الاخرين عليه . والى ان يصرخ فيهم باستمرار كي يتنبهوا الى المؤامرات التي تحاك باسمهم ، والحفلات التي تقام على اشلائهم ، والذئاب التي تنهش عظامهم ، والوسائل الدنيئة التي تمتص بها دماؤهم وعرقهم .

نرفض
يا مقتسم الحفلات
في حضرتنا
في غيبتنا
ان تسرق منا حب المحرومين
علم التغيير
نرفض
من باع زمانا فرحتنا
اهدانا لعبة اطفال
ومضى

يتربع فوق السيف وفوق الاوراق الصفراء
ويحاكم حلم المرتدين
نرفض
هذا زمن الرفض المنشور
في مزبلة الموتى
هذا صحو المعدوم
خلف الخطب الجوفاء
نرفض
ان تولد باسم الكادح
غرف الاسرار
وصكوك التوبة والغفران
في فاتحة الانوار
نرفض

هل تعلم انا نرفض . بيعتك الاولى
ونبارك بيعتنا
للقادم من قلب الشارع
نرفض
نرفض
نرفض » (1)

المفروض : سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وفكريا ، مرفوض . والشاعر لا يخشى الافصاح عن رفضه . كما لا يخاف من اعلان بيعته الحقيقية لذلك المناضل المنتظر ، الذي يفرزه الشارع المغربي ، وتصوغه الجماهير ، وتلده ازمة وحواري المشاكل اليومية . لقد نعلم الشاعر من الكادحين ومن القوى الشعبية الفاعلة . ومن ثم فان ايمانه بهم لا يقف عند حد . فهم انبياء المستقبل . والرواة الصادقون . والاصدقاء المخلصون . وهؤلاء لم يبايعوا احدا بعد . لم يختاروا الحاكم المتربع على العرش ، فوق السيف وفوق الاوراق الصفراء . والشاعر من بداية البداية يمحو كل - الذي حفظه من الاخبار الكاذبة في موسم الطفولة وموسم الكهولة . انه لا يجب ان يروي فقط الا عن احبائه الفقراء . وفيما يبدو ، فان حبه هنا ليس حبا رومانسيا ، ولكنه حب مصحوب بالتعقل والتدبر والتخطيط للثورة حب انبتته وحدة التناقضات ووحدة المعاناة ووحدة الاحساس بمرارة الواقع المتعفن . وللحب هنا هدف محدد هو ضرورة القضاء دمويا على الاسباب والمتسببين في سرقة حب المحرومين ، وفي بيع الفرحة لازمان وازمان .

ولما كان الشاعر يؤمن بان التغيير الجذري من اجل المحرومين لا يكون الا بالثورة الشاملة ، فانه في شعره اتخذ موقفا جادا وحادا من السلطة ، لانها هي التي اودت بالمجتمع الى ما هو فيه ودفعت به الى الهاوية . هي صاحبة الفضل الاعظم في خلق الطبقة ، وفي تركيز الثروة التجارية والزراعية والمالية في ايدي قلة تخدمها ، وفي اخلاء السبيل امام القواعد الاجنبية ، وفي اتاحة كل الفرص لرأس المال الاجنبي ، وفي صنع التخلف المادي والتدهور الفكري والاضمحلال الثقافي ، وفي شنق الحريات ، وخنق الاصوات ، ومصادرة الاحلام الشابة .

وفي نهاية هذه القصيدة الطويلة ، تتجسد قمة المواجهة بين الشاعر الشاب ، صاحب الكلمة الفوارة ، وبين السلطة المقيمة استاذة القمع والاضطهاد . وهي قضية الكاتب الجديد في العالم المتخلف ، حيث لا يواجه مشكلة الكاتب والسلطة التي هي من الملاحم التاريخية في حياة الانسان ، وانما يواجه معها مشكلة كونه شابا يعاني مرحلة التفجر العنيف . ومحمد بنيس لا يأسف اذا القيت جثته على الطريق ، مرفوعة ، عارية ، يمزقها الرصاص ، لانه مستعد لذلك متأهب للخطة ، مادام قد اختار طريقه وسط الجموع ، ولانه

رفض ان يكون صوته المتميز الخلاق بوقا للحاكم ، مصفقا مطبلا مهللا مكبرا . عندئذ ايضا تتخذ السلطة وسائل غير انسانية لكتم الاصوات الجديدة . ابسطها اعمال التجسس ، ومنعهم حتى من التنفس والحركة الطبيعية المشروعة .

عزيزتي
تمنعنا السلطة هذه الايام
من الصراخ والغضب

---

(1) ديوان : « شيء عن الاضطهاد والفرح » - ص١٣٩ .

ومـن اعـلان الاحتجاج

تريـد منـا مقمريـن

ومخمـريـن

او قاتلين مجرمين

لاننـا عزيزتـي

نقذف مـن صرختنـــا

احتجاجنـــا

معالـم التفجـير

تنفـذ مـن وجه لـوجه

ومـن لســان للســان

لاننـا نرهبهـم

بحبنـا وحلمنا

نرسـم في حضرتهم

بقطـع الفحـم والجير

مدينـة لنهـاية (١)

واحساسا من شاعرنا الشاب بوجـود « الآخر » في الحيـاة المغربية وبخاصة بعد احداث الصخيرات ، ثم اضطرابات وقلاقـل فبراير ومارس ١٩٧٢ ، كتب قصيدته « الى الواقفين وراء الباب » في ١٥-٧-١٩٧٢ ونشرتها له صحيفة « لعلم الثقافي » في ٤-٨-١٩٧٢ وهي قصـيدة لا يمكن ان يغفل قراءتها اي متصفح للصحـف اليوميـة والاسبوعية في مغرب ١٩٧٢ ، الذي كان يمور ويفور باحداث متتابعات . وقد كتب محمد بنيس قصيدته هذه بعد ان تبلورت باحداث للحياة المغربية بصفة عامة ، وبعد ان آثر ان يكون واحدا في الكل ، موجة في التيار ، نقطة صغيرة في بحر هادر ! وبنفس البساطـة لتي لمسـناها في قصيدته السابقة ، تتسم هـذه القصيدة . وهي في الحقيقة ـ وان عبرت عن احساس صادق وواقع كائن وموجود : ـ متاثرة بقصيدة نزار قباني « هوامش على دفتر النكسة » ، وبالذات في المقطع الذي يتناول فيه وسائل السلطان في حرمان الناس حرياتهـم الشخصية ، ومراقبتهم ، وتتبعهم لحظة بلحظة ، ومعرفة اخبارهـم بطرق التجسس والمطاردة . واذا كان نزار قباني قد صور ذلك ضمن قصيدة ، فان محمد بنيس يصوره في قصيدة طويلة كاملة . ولا يمنع ان يكون مثل هذا التاثر والتاثير ، خاصة وان الشاعرين يتعرضـان لظاهرة متفشية في العالم المتخلف ، وهي في المغرب اشـد قسـوة وتطرفـا . فكان لزاما على الشعراء الشباب ان يسجلوا احساسـهم نحوها ، على اعتبار انهم اول من يتعرض لذلك قبل الناس العاديين .

ويصور لنا الشاعر موقفه من حراس السلطة وعيـون الحاكم ، وببساطة ووضوح يتتبعهم ويذيع اسرارهم على عامة الشعب . كيـف يقفون وراء لباب بالساعات ، او خلف مفارق الطرق بالسيارة ، او في الازقة المعتادة يلقون في وجهه كمائـن الفـزع ، ثم يختفـون واحدا فواحدا بعد مرور فترة الحراسة . وعندما يزوره صـديق ، يأتـون اليه جملة ، ليضعوا له اقفاصا بعيونهم . عرفوا عنه كل شيء ، ملابسه ، وقامته ، وزوجته ، وهوايته ، وسيجارته ، وكتبه المفضلة ، واسماء لزوار الاصدقاء والاعداء ، حجم نوافذ المنـزل ، والـوان الستائر ، وطول الباب ، الا ذهنه المليء بالاسرار والقصائد . ويجمـع الشاعر بعض الصور الصغيرة التي تحدث يوميـا لكل المطاردين فـي

الوطـن ، وينتهي الى ان هذه الوسائل لن تمنع الشاعر من الكتابة ، ولا المؤمن من الصلاة ، ولا الفلاح عن ارضه ، ولا العامل عن منجمـه ، ولا البسمة عن الشفاه ، ولا حب النضال عند الثائرين المناضلين :

الحب فـي اصابعي
والشعـب فـي قصائدي
والجـوع فينا سـنة
فلتقفـوا
اذا اردتم الوقــوف
ولترهقــوا انفسكـم
اذا اردتـم الارهــاق
نخبركـم
باننــا نفتح السقف ونطـير
فلتقفــوا
حتـى مرور فترة الحراسـة
معــذرة
ســوف اجـدد ثيابي واطـير
مـع جمـوع الطائريـن

مهما فعلت السلطة والشرطة ، ومهمـا تفنن رجـال الـدرك والبوليس ، ومهمـا ضيق القصر على الناس الخناق ، فانهم سـوف يجدون لهم مخرجا ، باختراق السدود ، وتحطيم الحصون ، وفتـح الاسقف لعالية المرتفعة ، من اجل الانطلاقة الجماعية ، والحريـة الجماعية ، والعمل الجماعي ، والعدل للجماعة ، والمساواة بين افـراد المجتمع كله . ومحمد بنيس الشاعـر الطائر مع جموع الطائريـن ، الرافض مع كل لبائسين المحرومين ، الثائر مع كثير مـن المتمردين ، متفائل غاية التفاؤل بما سوف تحققه الجماهير . لقد خلع ارديته القديمة ، وجدد ثيابه ، وينفض عن نفسه وعن شعره غبار الماضي . انه الان في مرحلة « الكلام » الفعال ، المؤتر ، الواء ي، لفطن . وكانمـا كان يرجيء كلامه الفعلي الحقيقي الى ما بعد . انـه فـي « مـا قبل الكلام » غيره في « شيء عن الاضطهاد والفرح » وفي « وجــه متوهج عبر امتداد لزمن » . هناك قبل اكتمال التجربة ، ونضـج الادراك ، والتعمق الاجتماعي ، والالتحام الموضوعي والمباشر بالواقع الخارجي . كان شاعرا ذاتيا وجدانيا حينا ، رمزيـا تجريديا حينـا ، معبرا فقط عن احاسيسه وخلجات نفسه في كل الاحيان ، كما كانت فاس تحتل من قلبه وشعره ارفع مكان . لكنه مع ذلك كان يؤمن بالحرف وبالانسان . وكان يرجو لنفسه ان يمشي فوق التراب ، بيده اليمنى الحرف ، وبيسراه شجر الانسان . ومع نمو وعي الجماهير ، وحـدة التناقضات الطبقية وخطورتها ، وبتردي الحكم في كثير جـدا مـن المساويء ، بـدأ « لكلام » الصارخ ، وخرج الحرف السافر ، واخذت مخارج الكلمات والحروف تتضح ، وطفق الصوت يمشي فعـلا فوق التراب لا في السحاب او في الغيوم .

واذا كنا قد رأيناه يحدد المنبع الذي تنبثق منه القيادة ،والزعامة فانا نلاحظ انه في ديوانه الثالث « وجه متوهج عبر امتداد الزمـن » ١٩٧٤ لا يطلق السمات هكذا ، ولا يمعن في العمومية ، وانما يختـار بالفعل نموذجا للزعيم او للمخلص ، الذي يضمن ان الجماهير سـوف تلتف حوله ، وتلتقي على حبه ، وتنفذ اوامـره ، بوعي وارتبـاط اصيلين . وكان لزاما ان يأتي هذا الثائر من لارض المغربيـة ، وان ينبع من صفوف الجماهير الشعبية ، وان يكون له فـي وجدانهـم الجمعي مكان طيب . يكون هو الشعب ، والشعب هـو . وقد انتهى الشاعر الى ان ملامح النضال ، والثورة ، والزعامة ، لا تكمن فـي شخص يمثل مـا تتجسد كلهـا لـدى عبدالكريم الخطابي . الوطـن

(١) الديوان السابق ـ ص ١٤٨

المحموم . المناضل الثائر . المثال الذي ينبغي ان يحتذى . هو الذي ترسب في خلد كل طفل من اطفال المغرب . وهو الذي هرع ليـــه الفلاحـــون في الريف المغربي ليقود نضالهم . لا احــد ينكـــر دوره وبطوليته ، ولا احد يجهله : الاطفال في مدن القصدير . عمال المناجم . معطوبو حرب التحرير . الشهداء وابناء الشهدا ء.

لم يبق لنا في العالم الا نت
لم يبق لنا في الشـــارع الا انت
فلتخجل اصوات الجبناء
وليـــدرك كـــل مغامـــر
ان الســـــاحة
اكبـــر مـــن كف واحـــد
وليدخل مـــن شـــاء الراحـــة
وسكـــون البـــال
ابراج التأمين العـــام
حتى يأتـــي دوره
فالجنة في ارض حمـــراء
والراحـــة في عين عرجـــاء
والنـــــار
لا توجـــد فيها قاعات الشاي
او حافلـــة التطعيـــم
ضـــد المسكونين الاحياء
بأمـــــير الريف

الكل مسكون بامير الريف « عبدالكريم الخطابي » ، فانه الوجه المتوهج دائما نارا ونورا ، ثورة وتقدما ، فعلا وايجابا ، عبر امتداد الزمن . وجه المقاومة الشعبية ، وصورة النضال الحر ضد كل القوى المستبدة . وبثورة مماثلة ، ولتكن اكثر تقدمية واستشراقا لبناء غـــد جميل ، يمكن القضاء على عوامل التخلف والقهر والاستبداد والظلم . وثمد اعداد غفيرة تنتظر قدومه ، لتعانق مبادئه وتؤمن به . تتمثل هذه الجموع في : كل من جاع في السر والعلن . او وشم الجبناء رصاصا . او خاض حرب الخروج عن الصمت والصمد . او حمل النار في كفه وعاد اشتياقا الى المشنقة . او حط في يده الصحو والفرح . او من كان غده على كتفيه ، وفي صدره حمام وحلم واروقة مشرقة . او من تعلم كيف يشق القميص ويجعله لافتة . او كان واحدا ممن حضـــروا طقوس الخيانة فاشتعلوا وعادوا ليحترقوا . او من كان يرتد كل صباح فيصرع قبل المساء وحيدا ، ويمنع دفنه في المقبرة . المعذب من اجل قضية وطنه . الذي يقبل على الموت طائعا بسبب « الجموع » وقضية « الجماعة » ليخلصها مما هي فيه . الباحث عن الفرد الحر في اطار مجتمع حر . الداعي الى اليقظة . الباعث حب الكفاح والوطن .

هذه هي العناصر القيادية التي تتزعم القاعدة العريضة مـــن العاطلين والمشردين والفلاحين والعمال وابناء الطبقـــــة المتوسطة الصغيرة ، وحتى الذين اضطرتهم ظروف مجتمعهم الى الهجرة بعيدا عن اللا امن واللا عمل واللا عدل واللا ديمقراطية ! والشاعر يصور لنا حركة مجتمعه في امتدادها وتواصلها . رابطا الماضي بالحاضر بالمســـتقبل مجسدا القوى المتصارعة في كل مرحلة . وهو وان ادان كل الذيـــن لم يؤمنوا بالثورة وبحركة الجماهير ، ولئن كان قد فضح لا اخلاقيـــات والاعيب المخادعين الذين فتحوا ابواب الهزيمة الاجتماعية والحضارية والانسانية ، فانه لا يتمرد على سابقيه ان كانو اقد التزموا طريـــق المقاومة والنضال ايا كانت وسائلهم ومهما بلغت بهم النتائج التـــي توصلوا اليها فيما بعد . وهو على عكس التيارات الجديـــدة التي ترفض كلية ما سبقها متذرعة بدعاوى واسباب تبدو من وجهة نظرهـــا منطقية . والامر عند محمد بنيس مختلف . فهو يحترم الرافضين على وجه الارض ، لانهم جميعا ينطلقون من منطلق واحد ويستهدفون غايـــة مشتركة ، وان تباينت درجات النجاح والتوفيق ، بتباين الظـــروف والملابسات والعوامل الخارجية والموضوعية المحيطة :

ابناء الارض
يمشون على اعتاب الارض
هذا حلم في الكف
وحروف تنمو في احداق العين
وترود مدار الوصل

يرى الشاعر في الرافضين محاولات مستمرة لتفتيت الجمـــود والرتابة ، ولاحياء ملامح ذلك الوجه المتوهج ابدا : وجـــه عبدالكريم الخطابي . وايمانه بالحركة والصيرورة والاستمرار يفضي به دائمـــا الى رفض كل عوامل الثبات ، وتأييد ما من شأنه ان يدفع الى امام او يكسر حدة التوقف والتحجر . ومن ثم نراه متمردا على مألـــوف الحياة اليومية العادية في شتى صورها واشكالهـــا ، في محاولـــة لتحطيم الضوء العالقة بالزمن الماضي ــ الحاضر ، لتجاوزه الى الزمن القادم بما ينبيء به . واحيانا ما نجده يتخذ « الســـاعة » بوجودها المادي ودقاتها الرتيبة المعتادة وعقاربها الدوارة ، رمـــزا ، يذكـــر بواقع ، ويرهص بزمن آت ، وكشكل من اشكال عدم الاعتراف والتسليم يشعر ازاءها بنوع غريب من الاحساس . اذ يشعر برغبة عارمـــة في تحطيمها ، لادراكه القوي بانها تدفع الى الاعتراف بالحاضر الـــذي سوف يصبح هو الاخر ماضيا . وهو ــ في داخله ــ يستهدف تطليق ايام زمان واناس زمان ، اولئك الذين باعوا عهد الله وعهد الناس . تلك الايام كانت اوهاما ، او جيفا تتورم فـــوق النخل ، حين تمت اللعبة بين العاشق والمشوق .

اكسر ساعتي
وادور في حزني وفي فرحي
اطوف مشاهد الاطفال ترفعني
عيون الرفض نحو مساحة الموتى
وعند لوائح الاحياء
اكسر ساعتي
فتعود تحرقني عناوين
تذكرني بقامة انبياء

لكن رفض الشاعر للماضي وللحاضر الذي هو نتيجة لـــه ، لا يخدره ، ولا يجعله يستكين للذة الرفض في ذاتها ، اذ سرعـــان ما تتكشف له تلك الجوانب المضيئة ــ ان في الماضي او في الحاضـــر المقاوم ــ التي تشكل ملامح الصحو واليقظة : تنسرها اخبارها ، تنمو اصداؤها في شجر الزيتون ، تسطع انوارها من حـــب القمح ومـــن اعراس المنجل ، تأتي من قلب الشرق ــ الغرب ، من ايـــام الريف ، ايام عبدالكريم الخطابي ، البطل ــ الرمز ، الـــذي لا يذكر اسمه الا وتذكر ثورة الريف للشعب المغربي . كذلك فانه لا تكـــاد ثورة الشعب المغربي تذكر الا ويذكر اسم البطل عبدالكريم الخطابي قائـــد ثورة الريف العظيمة ، وما قامت ثورة بعده الا وتمثلته ، وما كـــان زعيم بعده الا وحفظ دروس نضاله . ولهذا وقفت السلطة في وجه كل من يتحدث عنه او يشير اليه او ينادي به .. لانهـــا تريد ان تستبقي

الاوضاع كما هي دونما تغيير أو تبديل ، ومن هنا كان حرصها على ان تنتزع صورته من خيال الناس ، وان تصادر السنتهم حتى لا تتفوه باسمه . كل من يتساءل عنه يعدم قهرا او يتعرض للتشريد . تريد السلطة بالعنف ان تسحب الشعب منه ، أو ان تسحبه من حدقة عين الشعب ، ليبقى بين الشك والحان ، مقطوع الرأس ، غريبا في غربته . بيد ان كل هذه المحاولات لا تفلح .

نخفي في معطفنا صورا ممنوعة
نرسمها سرا
في الاول نحفر في الحائط
خط العينين
وتجاعيد الجبهة
وتقاسيم الشفتين
وثقوبا بين اللحية والاذنين
فتداهمنا قوات الامن
نتراجم بالاحجار
تتسرب اخبار عن حرب الردة والعصيان
تتسرب اخبار عن ماضي الريف

عبدالكريم الخطابي باق وسيبقى ، خالدا وسيخلد ، ثائر وسيظل ثائرا طالما بقيت الاوضاع على ما هي عليه ، وظل المجتمع ينحدر من سيء الى أسوأ ، وسيظل ارتباط الشعب المغربي بزعيمه وقائده باقيا متجددا ، رغم كل الجهود المستميتة لاحلال صور اخرى محله ، او لمحو ذاكرة وتلهية الشعب عنه ، اذ كيف ينسى الشعب قواه الكامنة فيه !! وكيف يمحو صورة مخلصة وقائدة ؟ وكيف ينفصل عمن لم ينفصل عنه ويستند اليه ، ويعتمد عليه ؟! ان ارتباط الشعب المغربي بعبدالكريم الخطابي ارتباط تلازم ووجوب . وقد اشار الى شيء من هذا « روبرت فوز و» في (عبدالكريم امير الريف) حيث يقول : (... وحاول جندي ريفي في اللحظة الاخيرة ان يلحق بالركب ، لكن الضباط ردوه على اعقابه ، ونهضت بعض الاشباح من بين الادغال ، وانطلق اتباع عبدالكريم صوبه ، وراحوا يقبلون ركابه وثيابه ، ويرمون بانفسهم في طريقه ، واستحث عبدالكريم حصانه قدما وعيناه مرفوعتان الى العالي ..)

سلاما لمن جاءنا
تسلل بين الستائر
وبين السجائر
ليشعلنا
ليخبرنا
بان حبيبنا ـ شعبنا عبدالكريم
تظاهر أمس
توهج عبر الشوارع
وحطم أمن الحواجز
سلاما
سلاما ... »

وهكذا نرى ان الديوان الثالث لشاعرنا الشاب محمد بنيس عبارة عن قصيدة واحدة ، يسميها هو القصيدة المضادة ، ويهديها الى الوطن المحموم عبدالكريم الخطابي ، ليست بالفعل الا كلمة حب صادقة في عبدالكريم ، لا لشخصه ، ولكن لما يرمز اليه ويدل عليه ، ولافعاله ومقاومته ومبادئه وارتباطه القوى بشعبه . وهي كذلك دعوة مفتوحة للشعب المغربي كله كي يكون جميعه عبدالكريم في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخه . ولعلها صرخة مدمرة موجهة ضد كل من يريد ان يمنع صورة عبدالكريم ـ الثورة ـ النضال ـ الرفض ، او يمسحها من الاذهان والعقول والقلوب والافئدة وكتب التاريخ واناجيل الثورة . والشاعر لم يستورد مناضلا من الخارج، ولم يستلهم اساليب مقاومة من بيئة اخرى ، وانما كان مغربيا في تمثله القائد المخلص ، كما كان مغربيا في تصوره حركة الواقع ، وتعريته المساوىء ، واستلهامه ادوات التغيير ، ولئن كان في ديوانه الثاني صريحا الى ابعد الحدود ، مبتعدا الى حد عن خصائص الفن الشعري ، مفضلا الهدف على الوسيلة والاداة ، فانا نرى انه في ديوانه الثالث سعى الى الجمع بين الحسنيين : الغاية والوسيلة ، الشكل والمضمون ، وجهد في ان يوصل كلمته ، ويبلغ رسالته ، ويقود شعبه ، بالكلمة الشاعرة ، الصادقة ، الموحية ، وهو بالتأكيد في دواوينه القادمة سوف يحقق لفنه الكثير ، لعقيدته الكثير والكثير ، لانه يطالب الانسان العربي في المغرب الاقصى ان يظل كذلك .

لن تصمت بعد الان
ايها الانسان
حدق في وجهك قبل النوم
سترى خيلا من طين الريف
تتفجر في الساحات
في اشجار الواحات
في خارطة العالم
حدق
سترى صوت الجبناء
موصولا بالقطع الساكن بالموت
حدق
سترى عبر التاريخ
رقعا ممنوعة
او ممسوحة
حدق ساعات ان امكن
سترى اسراب الهدنة وهما
حدق
حدق
سترى في وجهك اعراسا
سترى في عينك اسيادا
سترى في كفك امواجا
حدق
فالعالم في كفك
لا يبلى
لا يبلى ... »

القاهرة

الصَوْت

عيسى ح . الياسري

– ١ –

« قريبة شواطىء الجنوب »
« بعيدة شواطىء الجنوب »
واركب المساء زورقا
اخترق الجدار .
ثم انشر القلب جناحين
لأدرك الدروب

– ٢ –

المطر المسائي يدق باب الدار
والريح .. والوحشة
كان آخر الطيور عائدا
من زمن الاسفار
وكانت القرى
البيت .. والمزار

– ٣ –

النهر هادىء عند عشية الصيف
وانت تسرعين الخطو
اذ تبكر القرى في النوم
فلا ترى توهج النجوم

– ٤ –

« قريبة انت »
« بعيدة انت »
ورملة الطريق
تسخن في ذاكرتي
كالشجر العريان تحت الشمس
كوجهك الملقى على وسادتى
لحظة استفيق

– ٥ –

« قريبة انت »
وعبر صوتك المثقل بالاحزان ..
مرّ طائر جريح
نقّر في الزجاج نقرتين
أيقظ بي مساءك الممطر ،
صوت امرأة .
ترافق الانهار ..
من نبعها الازرق
حتى الشاطىء الفسيح .

بغداد

فلاديمير ليدن

الشيخ والغليون

كاتب القصة

فلاديمير ليدن هو احد ابرز الكتاب السوفيات المعاصرين،له العديدمن الرواياتوالقصص والحكايات، وقد ظهرت اولى مجاميعه عام ١٩٠٨ ، ونشر قصته المترجمة هذه وهو في الثمانين من عمره . وقد كتب دراسات نقدية عن مشاهير الكتاب السوفيات امثال غوركي وتولستوي وفيرساييف وبرشكفين ، كما كتب عن بعض الكتاب الاوروبيين امثال هنري باربوس ورومان رولان وستيفان زفايغ ..

وقد حاضر طويلا في اكاديمية غوركي للآداب في موسكو فأسهم في تكوين الكثيرين من الادباء الشبان .

وقف فاسلوك عند المدخل فخرجت ميلا وليلي .. وحيتاه « صباح الخير يا فاسلوك » .

تناول الغليون من فمه وأجاب : « صباح الخير ايتها الطيور الراقصة » .

ضحكتا واخذتا تركضان وتقفزان برشاقة ، ثم التفتت احداهما لتقول « الى اللقاء » .

بعد انتهاء الدوام ، كانت ليلي هي الكبرى فهي في الصف الثالث ، وميلا في الصف الاول .

كان تيكون فاسلوك في شبابه صانعا للسفن في الحوض البلطيقي في لينينغراد ، ولكن احيل على التقاعد فذهب الى موسكو ليعيش مع ولده المهندس في وزارة التجارة البحرية ، كان الولد اعزب طالما الح عليه فاسلوك بالزواج لكنه كان يرفض باصرار..فماشا وحيدين. وكان الكسي (الولد) قريب الشبه بوالده ، فهو طويل ، مندفع وجريء .. يفيض حيوية .

وصل تيكون فاسلوك موسكو فاخبر ولده بانه اشترى بيتا ريفيا من احدى الارامل . وكان البيت جميلا ، وتيكون لا يحب السكن في المدينة لانه اعتاد على حمل الخشب . اما العمل بالاحجار والكونكريت فانه لا يروق له .

عاش فاسلوك ست سنوات في البيت الريفي وسط الغابة . كانت الاشجار ترتدي لباسها الاخضر في كل ربيع وتنزعه في الخريف لاجله لانه كان يعيش وحيدا في الغابة . وفي الشتاء يقوم بنفض طبقات الثلج على الاغصان ، فتبدو اكف اشجار التنوب ممتدة نحوه .

لم يهتم فاسلوك بسيقان الاشجار واوراقها اكثر من اهتمامه باجزائها العجيبة التي تمتد تحت التربة والتي لم يرها الانسان قط . الجذور التي تزود السيقان بالغذاء والحياة،وكان لكل جذر خصائصه التي تميزه عن غيره . فجذر شجرة الصرع يشبه الافعى أو ربما الغول الخشبي ، ذلك المخلوق الذي لم نقرأ عنه الا في الكتب القديمة . لكنك تستطيع تخيله اذا أعملت فكرك واستطعت ان تخلق في عالم الخيال على ان تضع في ذهنك العينين الجاحظتين لمخلوق يعيش في الغابة .

يحمل فاسلوك عصاه الغليظة ، ويرفع حقيبته فوق كتفه العريضة ، ويبدأ جولته في الغابة .. بقامته الفارعة الطول وعينيه الزرقاوين وشعره الرمادي كالتاج حول بقعة الصلع في منتصف رأسه ، كثيرا ما ظنه البعض باحثا نباتيا يبحث عن بعض الوصفات الطبية .. ومرة سألته فتاة جريئة بين فتيات كن يعملن في مصنع للغزل :

- عم تبحث ايها الجد ؟

- عن عشب سحري ، دواء للحب .

سألته بعد ان تملكها الفضول :

- كيف يعمل هذا الدواء ؟

- تصوري انك احببت فتى جميلا لا يحبك ، تخلطين جزءا من مسحوق هذا العشب وتضعينه بالحليب او البيرة ، فاذا شربها اصبح ملكك والى الابد ، ويلصق كما الارقطيون ولا ينفصل ابدا .

ضحكت الفتيات وسرن ، وبقيت الفتاة التي سألته برهة ربما كانت محتاجة لمثل هذه الجرعة . ضحك تيكون بعد ان انصرفن، واذ شعر بوحدته ، مد يده الى حقيبته يتحسس الاداة الصغيرة التي يستطيع بواسطتها استخراج نبات الوعر مفتشا عن الجذر الذي يروق له .

كانت غرفته الكبيرة مليئة بالهياكل الصغيرة للغيلان الخشبية وبعدد كبير من مخلوقات أخرى كجنيات البحر ذات الشعر المتدلي والذراعين المفتوحتين كما لو كانت تسبح وتوقفت فجأة . في تلك الفترة قصد تيكون كثير من الناس ليتعرفوا على ما يصنعه في الغابة . وزارته اخيرا امرأتان في منتصف عمرهما .. كانتا متحجبتين قالتا انهما من اعضاء « جمعية الحفاظ على الطبيعة » . رأتا اعماله فأعجبتا بها ودعتاه للاشتراك في المعرض .. سألتاه عن جذر حارتا في معناه .. فأجاب « الحب » الا تريانه انتما ؟

تمتد من الجذر اسهم في كل الاتجاهات ، تشبه الى حد بعيد

قلبه ومشاعره .. فلم تبديا اي اعتراض على الاسم .

يبدأ العرض في بداية الشتاء .. وكان تيكون منهمكا يتجول في الغابة مع حقيبته .. وبدأت الغابة بالانسلاخ وتساقطت الاوراق ، فبدت خلال الافق الازرق اكثر جمالا .. لان الاوراق قد تساقطت تماما.

ـ أأنت ساحر ايها الجد ؟

ـ اني امبراطور الغابة ، ومملكتي الاخلاد (جمع الخلد) والجذور التي تعيش في التربة ، ماذا لو اعطيتك خلدا ؟ ما عليك الا ان تطعميه رقاقة بسكويت كل صباح فتكون وجبته الوحيدة .

رحبت الفتاة بالفكرة . لكن امها اخذتها ومشت قائلة ان الخلد سوف يأكلهم مع كل ما في البيت ، لكنها ظلت تتلفت الى الشيخ بعينيها الفيروزيتين . لم ترغب الانفصال عن امبراطور الاخلاد والجذور الارضية ، لكن امها ارغمتها على ذلك .. كانت تعتقد ان تيكون مصاب بمس في الجنون .

ذهبت الاختان الصغيرتان الى تيكون عند عودتهما من المدرسة ، فوجدتاه جالسا على المنضدة وسط مناشير صغيرة وادوات أخرى مع عدد كبير من الجذور الجديدة التي تنتظر اعادتها الى الحياة بفضل مخيلته الفاتنة كما يحيي بعض الازهار والحيوانات الصغيرة . كانت فروع احد الجذور ممتدة بصورة مستقيمة وبزوايا حادة اطلق عليه « الحنان » لان الفروع تشبه الى حد كبير ايدي المخلوق الحنون ، التي تمتد بصورة مستقيمة الى الخارج لتحتضن مخلوقا يحتاج الى الحنان والعطف .

قالت ليلي :

ـ جئنا .

تقدمنا نحو المنضدة ، كان يرتدي نظارات طبية شدت بطوق في مؤخرة رأسه ، فقد ضعفت عيناه بتوالي السنين . أمسك جذرا وراح يقلبه بيديه الكثيرتي العقد ، محاولا ايجاد الاسم المناسب له ، فسأل الطفلتين عن طبيعته وعن اسمه .

درستا الجذر بدقة ثم قالت ليلي بتمرد « طير صغير » .

فاجاب :

ـ لا ، فارة تمر .

لم تر ليلي فارة نمر في حياتها .. لكنها قالت « ربما » ...

اخذ الجذر واجرى عليه بعض التعديلات بسكين حادة الشفرة ، فبدا كفارة تمر حقيقية . كان على المنضدة زوج من العيون الزجاجية لهما بؤبؤان بنيّان . فأحدث خدشا صغيرا ليضع فيه احدى العينين . وقال :

ـ انكما لا تعرفان الكثير عن الطبيعة ، ولكن يجب ان تعلما بان الطبيعة حية ، والاشجار تتحادث ولديها ما تقوله ، ومن الممكن ان تتشاجر ، ليتقرر عند نزع الاوراق ، اذ يأتي الحور في المقدمةوبعده القيقب ثم الحور الرجراج ثم البلوط .. تبدأ اوراقها بالتساقط مع حلول الصباحات المتجمدة ، وتستطيعان رؤية علامات اسنانها .

ـ ليس مؤكدا ؟ سألت ليلى متشككة .

ـ بالطبع ، عندما تأخذان ورقة ، لنفرض انها للحور الرجراج والبلوط ، سوف تريان انها قد اكلت من الاطراف ، فالجماد له اسنان صغيرة كأسنان السنجاب .

قالت ليلي بثقة « ان الاشجار لا تستطيع ان تتكلم .. انها لا تملك لسانا واذا فقدت لسانك فلن تتكلم ابدا » .

ـ ماذا تقصدين باللسان ؟ هل استطعت ان تنظري ما بداخل شجرة ؟ اؤكد لك ان لسان البلوط اكبر بكثير من لسان البقرة ، والفرق الوحيد بين الاثنين هو ان شجرة البلوط لا تحرك لسانها ، وهي قليلة الكلام . اما الحور الرجراج فهو ، على العكس ، مهذار ، كثير الكلام كأنه طائر العقعق .. وبهذا لا يحترمه الناس . اما البلوط فيستطيع البقاء عشر سنوات في الماء يزداد قوة ، فيصبح بصلابة الحديد ، ولهذا يستخدم في صناعة هياكل السفن في القطبالشمالي. ان هياكل سفن مقاطعة فوكاس تصنع من خشب البلوط والا فان الثلج يحطم الخشب ، ولذلك هلك سيدوف لانه قام ببحث في القطب الشمالي ماشيا على الاقدام ، ولو بقي في مقاطعة فوكاس لما هلك، ورغم تحطم السفينة بالجليد ، وصلت سواحل المقاطعة .

تحدث تيكون للفتاتين كما لو كانتا تعلمان كل شيء عن بعثة سيدوف وعن هياكل السفن والقوارب الشراعية التي بناها .. رغم قدم هذه الاشياء لان الملاحين الصغار تدربوا في الخارج على سفن كبيرة تحتاج عدة ملاحين .

قال تيكون :

ـ هنا تعيشون ، ثم استطرد ، اذا اصبحتم اصدقاء للطبيعة فسوف تعاملكم كالام الحنون ، اما اذا تجاهلتموها فسوف تصفعكم بقوة .

ضحكتا ، لانهما لا تعرفان اين موقعهما ولا تعلمان عمن يتحدث ، لكنهما تجدان ان الاصغاء اليه جد ممتع ، حتى ولو لم تفهما كلماته ، وقد وقفتا جنبا الى جنب تتأملان بقعة الصلع الوردية في رأسه وتاج الشعر الرمادي الذي يحيطها ، والطوق الذي يمنع نظاراته الخضراء من السقوط ، والجذر الذي دبت فيه الحياة ، بعد ان اصبح فارة تمر طبيعية رغم انهما لم تربا قط واحدة حية .

ناشدته ليلى :

ـ ارجو ان تأخذنا الى الغابة ولو مرة واحدة (واضافت) لا نستطيع المجيء صباحا ولكن بعد انتهاء الدوام .

رفع تيكون نظاراته ، ثم نظر اليها ، بوجهها الصغير البريء والفضولي ، وانفها الصغير وقد انتشر عليه النمش الذي يكثر في الصيف ، ولكنه كان موجودا رغم انهم في الخريف ، ونظر الى ميلا وجسدها الممتلىء ووجنتيها المتوقدتين وحاجبيها الجميلين وقال :

ـ الظلام دامس بعد انتهاء الدوام ، وسوف تكتسي الغابة بالجليد وهو امر محزن لي ، لانني لن ارى الجذور تحت الثلج ، لكن عندي من الجذور الكثير ، وبعد شهرين يفتتح المعرض في موسكو ، وآخذكما اذا وافقت والدتكما .

فأجابتا معا :

ـ ستوافق ، ستوافق .. امي تعرفك وتقول انك ساحر .

ـ لست ساحرا ، لكني غول في الغابة ، هذه الوظيفة لا تعطي أي مرتب ، لكن متطلبات الحياة ممكن الحصول عليها من الغابة ، وبدون مساعدة المقاطعة ، مثل جوز البلوط والفطريات .

قالت ليلى :

ـ غير صحيح .. انك لا تستطيع العيش بالفطريات والجوز

لوحدهما . فأنت تحتاج الخبز كما تحتاج مرقة اللحـم .
ـ من الممكن عمـل المرقة من الجوز ، كمـا ان جوز البلوط الذ من اللحـم بكثير .

وقفتا مشدوهتين .. وكانتا منسوفتين لرؤية مرقة الجـوز .. واكل البلوط .. وبنبرة ملؤها الحذر سألت ليلى :
ـ هل انت جاد ؟

ـ طبعا ، انه لذيذ .. ستأكلين اصابعك وسترفضين كل أنواع المرقـة الاخرى . كمـا ان البسكويت ممكن صنعه من الاشنـات استعاضة عن الخبز .

اخترع نيكون كل هذه المأكولات .. وبينما كان يتكلم كانتا تتخيلان بلهفـة اطباق مرقة الجـوز وبسكويت الاشنات وتعتقدان انها حكاية ملذة واستطرد قائلا :

ـ اقترب الشتاء ويجب ان اجمع الاوراق الساقطة في الغابـة كي اجعل عريني اكثر دفئا .. لاني اقضي الشتاء في العرين ، فهو هادىء ، وانام فيه حسب رغبتي فلا تلفون يزعجني ولا احد يوقظني.
سـألته ليلـى :
ـ ماذا عن ابنـك ؟

ـ انه ولد ذكي ، لما علم ان والده قد احيل على التقاعد لـم يحلـم بازعاجـه .

سـألته ميـلا :
ـ هل ستقضي الشتاء نائمـا ؟
ـ هل سمعتما غطيطي في الشتاء ؟ . لانه يزعج الجيران .. وقد كتبوا الى المجلس السوفييتي المحلي .. وقالـوا اني القب بعفريت الغابة واغط غطيطـا مزعجـا .

بقينا مدة طويلة ترقبان يديه الكبيرتين وعقدهما الكبيرة ، يـدي صانع السفن الذي بنى الكثير من السفن وهي لا تزال تمخر عبـاب البحار .. تلك السفن التي تعمّد بمراسيم عظيمة من حيث تسحق على هيكلها قنينة شمبانيا ثم تبحر بهدوء الى اسفل كي تنغمر بالمياه بعـد اجتياز البر ، ثم يطلق على هذا العمل الانساني اسم جميل ويبـدأ التنقل من ميناء الى اخـرى .

كان الكسي مهندسا بحريا برتبة ملازم يزور والده ايام السبت.. ويقومـان بنزهـة في شوارع المدينة ، ويستطيع المرء ملاحظة الشبه الكبير بينهما مع فرق واحد هو العمر .

كانت الاختان تعرفان الابن وتحترمانـه كثيرا .. وهو بين الفينة والاخرى يقدم لهمـا الحلوى يخرجهـا من جيب معطفه الاسـود ذي الازرار المذهبة والمقابض الكثيفة .

اخذ نيكون ولده ليريه مملكته ومسحوراته الجميلة ، غرفقصره الملكي ، المشرق في الصيف والمظلم في الخريف لان ثرياته تحتـوي شموعا قليلة .. وقد تصدع البلور الاخضر واخذ يتساقط فـوق رأسيهما ، ووقعت على قبعـة الابن ذات الشريط الابيض والعقـدة الفضية ، رأتهما ليلى وهمـا ذاهبان فصاحت :
ـ ايها العم نيكون .. اجلب لنا جنية خشبية .
ـ سأفعل ، اذا رأيت واحدة .

مرة لاحظ نيكون زوجا من هذه الجنيات ، فهي مخلوقات ذات نظرات شيطانية وزوج من الاذرع معدة لكل من يحاول ايذاءها ، لـم تحلم الفتاتان الصغيرتان بايذاء هذه المخلوقات . لذا ادرجتاها ببطانية .. انها شبيه الى حد طفيف جذور شجرة الوعر .

ذهبنا الى الغابة مع نيكون وولده ، كان الطقس باردا والاشجار تستقبل فصل الشتاء ، تغيرت اوراق شجرة البتولا الى اللون الاحمر الناري لكنها لم تسقط . قالت ليلى لاحدى الاشجار :
ـ مرحبـا ايتها الشجرة !

فتحرك جزؤها السفلي .. وقد يكون هذا اصطلاحا متعارفا عليه ـ من يعلم كيف تحيي الاشجار من يمر بها ؟ ثم قالت ميلا لشجرة تنوب:
ـ مرحبـا ايتهـا الشجرة !
فمدت الشجرة احد اكفها كالزغب .

قررت الفتاتان الرجوع الى البيت ، وفي طريقهما التقطتـا بعض المخاريط لتصنعا منهـا ديكورا في عيـد الميلاد بعـد صبغهـا باللون الفضي أو الذهبي . بينما كان نيكون وولده يتوغلان في الغابة الجرداء ، قال نيكون :

ـ عندي قطعة من البتولا (شجرة القضبان) احب تحويلها الى غـول خشـبي .
ـ لا تقل مثل هذه الاشياء للطفلتين ، لانهمـا سوف تنذهـلان تمامـا .

ـ انا صائب فيما افعل ، لاني احقنهمـا بمحلول يجعل خيالهما اخصب واوسع .. فالخيال هـو الذي يجعلنا نحلق بعيـدا ونتأمل الاشياء ، أو نُحلق في الجو كي نقطع شعاع احدى النجوم لنـرى كيف تبدو الاشياء التي يشبهها ، بعضهم قال انه يشبه الايس كريم .
ـ لو سمعك معلمو المدارس لمـا وافقوا على افكارك .

ـ معلمو المدارس يحبون مخلوقات الغابة لكنهم لا يرغبون البـوح بذلك .. كما انك لم تصبح بحارا لو لـم اطعمك محلول الخيـال . انا لا اتكلم عما انت عليه الآن حيث تجلس الى المنضدة في الوزارة .. لانك كنت بحارا يومـا مـا ، وبقيت طوال الحرب تبحر خارج الوطن .. وقد استضافك نبتون(1) اكثر من مرة .
ـ صحيح كل الصحة .

وبينما كانا يمشيان في الغابة تكلم الوالد عن المعرض ، وأمـل ان يذكر الناس بأن الطبيعة تزودهم بكل شيء ، ونحـن لا نضـع الا اللمسات الاخيرة على معطياتها .
قال نيكون :
ـ انا لا املك حفيدا ، وهذه غلطتك ، ولهذا اعتبر كل الاطفال احفـــادي .

مشيا الخطوات الاخيرة في الغابة الجرداء ، ووصلا الى حقـل خال من الازهار ، ما عـدا بعض الزهرات المتفرقـة هنا وهناك ، كأزهار الربيع والقنطريون العنبري ممتدا ليأخذ الدفء من الشمس الخريفية ، ازهاره زرقاء فاتحـة كالسماء .

* * *

بعد شهر ، اغتسلت الغابة بزخة مطر ، وبدت الاشـياء نقية ومتشابهة . واسراب الكراكي كسهام عديدة متجهة نحـو الجنـوب

---

(1) نبتون : اله البحر عند اليونان (المعرب)

تطير تحت السماء الرمادية ، ووفى تيكون بوعده فدعا الطفلتين وامهما الى المعرض الذي قصدنه صباح يوم الاحد ، وكانت الام شديدة الاعجاب بأعمال تيكون الذي قلب افكار الطفلتين رأسا على عقب .

وقف تيكون في المعرض قريبا من معروضاته التي كانت معلقة على الجدران والموائد وكان بين المعروضات جنيات البحر ذات اليدين المفتوحتين للاطباق على كل من لا يعرف السباحة . وغول الغابة القديم ذو الوجه الحصاني المغطى بالبثور ..

كان على كل منهن ان تقف وتنظر ثم تستغرق في النظر الى قطعة الجذور ذات الفروع الشعرية لتفهم كم هي قريبة الشبه بعواطف الانسان ، تفرجن على كل اعماله ، فاتبهرن لما يتمتع به من خيال خصب ، كما ان الضوء الخافت في المعرض اعطى معروضاته نوعا من الغرابة . لكنها تبقى واضحة ومفهومة لكل من يستطيع ان يحيي شجرة بأن يقول لها « صباح الخير ايتها الشجرة » وتجيبه الشجرة بحركة خفيفة لاحد اغصانها ، أو حتى امتداد احد اكفها الذي يشبه الزغب .

في اليوم التالي ، رأت الفتاتان تيكون كما اعتادتا ان ترياه في المدخل ، واقفا والغليون بين اسنانه .. انه يبدو للناس العاديين شيخا يدخن غليونه .. لكنه بالنسبة للفتاتين امبراطور الغابة مع مملكته المتكونة من الطيور والارانب الوحشية والغيلان الخشبية وجنيات البحر .. كان يقف كما لو كان واقفا في مستهل حياتهما ممسكا بابريق ذي محلول خارق .. وكانت الدهشة عظيمة لمن يأخذ جرعة من هذا المحلول .

قالتا معا :

ـ مساء الخير يا تيكون !

اخذ الغليون من فمه واجاب :

ـ مساء الخير ، ايتها الطيور الراقصة .

ذهبتا وهما تتلفتان وتنظران اليه ، فلوح لهما بيده

في هذه المرة لم تكونا تركضان وتقفزان كما تفعلان دائما ، بل لوحتا بأيديهما برزانة ووقار .. لا احد يفهم ما عمله تيكون للفتاتين ما عداهما (١) .

ترجمة حلمي نجم
كلية الطب ـ الموصل

(١) مترجمة عن مجلة « الادب السوفياتي » ، العدد ٤ سنة ١٩٧٤

المثنى الشيخ عطية

عشتار في بقعة ضوء

(١)

تسنين ـ بيني وبينك ـ
دربا من الشوك دنسته بالشرائع ،
وأضفيت همّ الوصول اليك .. الجنون
والقاك لافتة فوق كل الجهات
تراودني للتلاشي بها الخضرة الدائمة ..
تسنين ـ بيني وبينك ـ
نهدا تكابر ،
خصرا تكابر
وعبنين زاغت بقلبيهما القشرة الآسرة ..

(٢)

تلوحين لي في رحيلي اليك
طمأنينة ،
دعوة للتلذذ بالطيبات .
وصولي اليك
احتراق المراحل
تلوحين لي ثم ها حلل الدمع
قصر الدروب اليك
النجاة ممات
مداعبة اللغم لا تمنع الانفجار
البحار التي تمنح الحبّ ،
لا تمنح الحب الا بسبي الشواطىء ..
تلوحين لي ثمّ
وجهي تقسّم
او قاسمته الدروب اصطفاءه ..

(٣)

وبيني وبينك ..
بيني وبين الدروب اليك
الحكاية ..
ثور من الذهب العالمي
الحكاية .. نفط من الذهب العربي
الحكاية .. قهر الجموح ،
مكابرة الرأس
أن يُسلم الحجم للخوذة الحرب ،
بيني وبينك
حرب بحجمي . وحرب بحجمك
حب بحجمي . وحب بحجمك
حلم تساقط ، جمّدته ثم امسكته ..
أنت ...
لن تقهري داخلي ..
داخلي شهوة الانسنة ..

حلب ـ سوريا

جميل ابو صبيح

رؤيا الظلام والشمس

١ ــ رؤيا :

أ ــ في المستقبل ــ والمستقبل يعدو مثل النمر ويلهث
مثل الثعلب ــ

يأتيك تراث المجد واسراب اللقلاق
لكن اليوم إله دموي ، وغد صار رفيق الامس
هل تنتبه الاشياء القاتمة لنا ؟
نحن الاثنين نسجل ما تبنيه الشمعات المنتهيات
نحن الاثنين لنا اربعة عيون وفمان
الا ان لسانينا مهران جسوران
وطيران من اللقلاق يجوبان الآفاق البشعة
ثمة عصر يأتي تتورّد فيه الكلمات
وعصور عشناها انتحل الناسك فيها اسماء مختلفات
تتراوح بين النار وآلهة الدم التتريّ
سبقناها قبل طلوع الشمس : الشمس مفسولة بالطلّ
تلك الشمس المطلولة شمس أريحا
وأريحا سمفونيات رحيل ودمٍ اسبارطي
لو جبل يحمل حزن اريحا
لو اشجار نخيل
وذوائب عين السلطان اغتسلت بدم الملك الكنعاني

ب ــ جالوت يحمل نعش اريحا
واريحا تحمل حزنك يا جالوت

٢ ــ ظلام :

أ ــ لحمي عرش الله
وحولي يصطف ملائكة سماوات سبع

ب ــ التهمي يا حبّات الرمل بدنّي.

فأنا عوسج هذا العصر
ولكي لا انسى اني مدهون بالنابالم
ضميني في لحد أبدي
كانت ازماني تنبض بالفسفور
فماذا حطم عظمي ؟!
الآن أغني الحان جنازات بلهاء
الان انازع وحدي
لاموت بعيدا عن عين الله

٣ ــ شمس :

في بيتي شمس وإلــه ودنان
وأنا حزن الانسان

دمشــق

خيري منصور

الشمس بوابتي

« هذا قبري ،
واشار قفوا ..
كانت مثقلة بالصمت سلال الريح .. وقفنا
انحنت الاشجار حوالينا
وتيممنا بتراب القبر قرأنا ..
فاتحة العشاق الغرباء ..
وصلّينا
ــ هذي آخر شاهدة في أقصى الارض
بلغناها
مات الموت هنا .. أو عاد
فهذي شاهدة لا تفضي لسواها
نرجع .. أو نودع فيها اسرار هوانا
ــ أشتمّ دمي من هذا القبر
تبوح الاعشاب برائحتي
(هل ينكر قبر صاحبه في الغربة
أو تخذل شفة توأمها ..)
عودوا ،
ودعوا مقتولا عثر على جثته
يبكيها دون حياء .
كنت قليلا ، انكرني الاحياء ..
وها أنذا أتكاثر ميتا
أتوزع في الارض جذورا
أثداء ...
أمنحها سرّ الماء
كانت مثقلة بالنّوح سلال الريح
انحنت الاشجار حواليه رأيناها
تتوضأ بالضوء سمعناها ..
تتقصف وهي تصلي
« مرّت النائحات على قبره
واستراحتْ على قبره
ثم .. على قبره
واستدارت الى عرس قاتله النائحات »
ــ هي الارض قبري ،
وكل الشواهد واحدة
وتواريخ قتلي واحدة ..
كذب النجم .. انّ التقاويم زائفة ..
منذ اول موت توّقف عندي الزمان
وان بدّل الوقت ألوانه ..
لأني ان شئت اطفأت شمسي ،
وان شئت اشعلتها ،
كلّ سيف ترصّد رأسي ،
وكلّ الرصاص تشهّى دمي ،
وان اخطأتني السيوف .. الرصاص ..
لأني كثير ...
أموت فأصعد ثانية ،
وأموت لأصعد ..
كانت لي الارض قبرا ،
وصيّرتُها لي مهدا
ابديّ يسيجني الموت والشمس بوابتي .. »

بغـــداد

برهان شـاوي

قصـائـد

١ ـ **انكفـاء :**
تنكفيء الظلال
ما بين اشجار البكاء المر
والمحـال
اواه يا ذاكرة الدمع
ويا صارية الآمال
احمل وجهي
موقد الرماد
والجنون
احمل وجهي
عالما تملأه العيون
احمل وجهي
شارة اليقظة

*

٢ ـ **تشنج :**
يطالعني الحزن
ها انني الان لافتة للتوجس
ها انني سفر للمخاوف
ها انني ...
آه ...
فلتسقط اللافتات

٣ ـ **هوامش طبقية على مسالة شخصية**
الا يا مدار القناعة
سأحتاجك الان تأشيرة للشجاعه
فهذا زمان التواجد
بتأشيرة للمرور
الا يا زمان العبور
وتنأى المسافات ما بيننا
ايها الوطن المستباحة احلامه
كل يوم
وتنأى المسافات ما بيننا
ايها الوطن المر .. والحلو ...
والمر .. والحلو ..
والحلو ..
والحلو مثل العسل

*

ولكنا حين نهوي
يعاودنا وجهك القرمزي
فنلبس احزاننا معطفا تتريا
ولكننا حين نهوي
نحمل وجهك تذكرة
وجواز السفر
ولكننا حين نهوي
نحمل وجهك تذكرة
ديوان شعر ..
مطر
ولكننا ...
آه يا وطني ...
لا تعاملني كالغريب

*

٤ ـ **سقوط الطوطم :**
تسقط النجمة في عينيّ ماءً آسنا
انها تنسل مثل الرمد ...
وانا مثل طيور الماء ابكي
حاملا حزني ..
وحزن الطرق

*

انني أردي النجوم المطفأة
مثلما آوي الى صدري الشجر
انني اندب آلاف الليالي
ثم أرثي ..
سمك القرش ..
وآلاف السحالي
والخيول الهرمة
. . . .
يا عيوني
يا كهوفا من حنين ونعاس وضجر
يا عيونا من حجر
سقط الطوطم في الطين
فمن يصبح ربا للقبيلة
سقط الطوطم
من يفتح للماء الجداول
من يلم الشجر المحروق ..
عن وجه القتيلة
انني اعبر نهرا من هواء

العراق ـ واسط

عبدالجبار عباس

«معالم جديدة في أدبنا المعاصر»

– ١ –

بين نقادنا الشباب ، يتميز الناقد فاضل ثامر بأسهامات نشطة متجانسة الفكر والمنهج ، متباينة الموضوعات والمستويات ، فهذا الناقد الذكي الصبور ، التقدمي المثقف ، الجريء المتسامح ، النشط الكسول ، يواصل في كتابه : (معالم جديدة في أدبنا المعاصر) ما بدأه في دراسته (معالم جديدة في القصة العراقية) وبالمنهج النقدي ذاته المنبثق عن رؤية ماركسية مجسدة في تعاليم وتقاليد المدرسة الواقعية الاشتراكية في الادب والنقد ، فهو ناقد ذو هاجس أدبي سياسي أجتماعي حضاري يحتشد له بمتابعة طيبة لتأريخ وعيون ومشكلات الادب التقدمي والاشتراكي عالميا وعربيا ، تظاهره ثقافة عامة وأدبية ممتازة منفتحة ، بقدر نسبي لكن واع مستفيد ومتحفظ ، على عيون ومراحل الادب والنقد العالمي ، أوربيا وأمريكيا وعربيا .

للنقد الادبي عند فاضل ثامر وظيفة التوعية والرصيد والتعجيل بدفع البذور الجديدة رغم تعقيداتها في الطريق المشمسة دون بيروقراطية أو أستاذية ، فعلى قدر تعاظم أهمية وتأثير الادب في المسيرة السياسية والاجتماعية ، يتعاظم دور الناقد وتأثيره في تعزيز رؤيا ما ، أو رفض أخرى ، مستندا ، عبر منهج واضح متجانس متكرر أو معدل ، الى قاعدة ايدبولوجية ثقافية تتخذ الادب موضوعا لهدف سياسي ، فتتجاهل قوانينه الخاصة حينا ، وتعترف بها متفهمة حينا اخر .. وينتهي ذلك الى مقررات مدرسية جاهزة تخدم الهدف والمرحلة مرة ، ونضج جمالي ينتهي الى (علم جمال ماركسي) مرة أخرى . وبين البدء الساذج والنهاية الصحيحة المقبولة ، يرسم الخط البياني لرحلة نقد الواقعية الاشتراكية متلازمة ومتفاعلة مع رحلة الفكر الماركسي ، ومسيرة المجتمع الاشتراكي الحضارية ، ومشكلات الثقافة الاشتراكية في كل مكان .

ولكن الماركسية ذاتها تؤكد دور (الظروف النوعية الخاصة) رغم وحدة المنطلق والفكر في صياغة الملامح القومية للادب والنقد . ان وحدة الهدف السياسي والقاعدة الايديولوجية لم تحل دون تجدد المشكلات الثقافية والنقدية ، وعلى نحو اكثر تعقيدا أحيانا ، بسبب العزلة الحضارية ، وظروف الكبت السياسي ، وطبيعة النشأة الجديدة الصعبة ، ومرحلية الاهداف وخصوصية المشكلات القديمة الموروثة دون حل أخير ترفضه الماركسية ذاتها ، والمشكلات الجديدة الناجمة عن اللقاء اللامتكافيء أو السهل أو الساذج مع الموروث القومي والادب المحلي أو العالمي . ان الحصيلة ـ الخليط هي ما طبع في الاغلب نتاج أدباء الواقعية الاشتراكية في العالم الثالث المستعبد والمتحرر والاشتراكي ، وما بدأت به الواقعية الاشتراكية في الادب العربي والعراقي المعاصر ، وما زالت تجاهد بنجاح أو تعثر لدفعها في طريق الانسجام والتجدد والانفتاح والابداع الذي يغني الاصول ، عبر محاولات مخلصة أو توفيقية مشدودة ، ولكن بخبرة اكبر ، الى الاساس ذاته ، والاهداف الايديولوجية والسياسية ذاتها . ان أية خطوة موفقة للامام ما تزال تكتنز الخطوات القديمة أو تتعثر بها هنا وهناك . ان مشكلة الواقعية الاشتراكية في الثقافة البرجوازية وثقافتنا هي مشكلة الموروث والمعاصرة ، تلك التي وفق النقد السوفيتي ، في ظل ثقافة مجتمع اشتراكي مستقر ، الى حلها عبر اسس علم الجمال الماركسي ، وبجهود (نقاد) كبار أساتذة منظرين ، وشباب أذكياء مخلصين . لكن نقد الواقعية الاشتراكية في أوروبا وبعض البلدان الاشتراكية الشرقية ، وبسبب اللاانجانس الاجتماعي والثقافي وتجدد مشكلات الادب المعقدة قديمة وجديدة ، ما زال يستقبل الاجتهاد والمراجعة والاضافة ، مما بعد ارتدادا وانسلاخا مرة ، واغناء ثريا يسهم فيه ادباء ونقاد ماركسيون لا مذهبيون مرة أخرى . ان الواقعية الاشتراكية في روسيا لم تعد ملاحظات وتعاليم ماركس وانجلز ولينين ، تلك التي تختلط فيها اللقطة الذكية بالمراجعة النقدية بالحلم الرائد المتطلع صوب ما يمكن ان يحققه الادب والنقد ، والخاضعة لرؤيا فلسفية وهدف سياسي ، وانما هو يبدأ من القاعدة الواسعة في نقد غوركي فيبنى فوقها معالجات مستفيضة تغني المباديء الفلسفية الثابتة بأجتهادات موهوبة مستفيضة منفتحة تنكر (الطريقة الوحيدة الرديئة) . انه نقد بورسون وكراولين ويرميلوف ، وجيل من المخضرمين والشباب الماركسيين ... انه النقد الذي يبدأ من مقولة غوركي المرنة : الادب قلب العالم ، كل أفراحه واحزانه واحلامه وآماله ويأسه وسخطه ، كل انفعالات الانسان اذ يواجه جمال الطبيعة ، كل مخاوفه اذ يواجه اسرار الطبيعة . انه نقد الواقعية الاشتراكية الرومانتيكية ، يستعيد ملاحظة انجلز عن الطريق المعقد للحركة الاقتصادية بوصفها حركة ضرورية عبر كثرة لا تعد من (الصدف) ويستثمرها لرسم الطريق الاكثر تعقيدا للأدب بوصفه ضرورة اكثر خصوصية وتعقيدا ، عبر كثرة لا تعد من (الصدف) المسعفة والمعوقة لانها صدف الظروف والموهبة في تفاعلهما الشائك . ان رحلة هذا التراث النقدي ليست فقط رحلة العودة الى نقد الديمقراطيين الروس ، لكنه ايضا رحلة الماركسية الخصبة في ظل المجتمع الاشتراكي النامي والمستقر ، من نقد ـ السلاح المكافح ، الى نقد الاضاءة الموضوعية والمراجعة المتأنية المجتهدة ، حيث الادب ليس انعكاسا ثابتا ، لكنه نقد وحلم واقتحام . انها رحلة الاجتهاد الفلسفي الادبي المبدع من (التماثل الكئيب والامتثالية المقيتة) الى قانون التعدد والتنوع في أطار الفكر الواحد والمرحلة الواحدة ... ولكن لنقد الواقعية الاشتراكية عندنا شأن آخر . .

* * *

فتيار الواقعية الاشتراكية في ادبنا بدأ خليطا متجانسا فكريا ، غير متجانس منهجا او جذورا او معالجة ، يقتبس من كل مصدر ، ويذهب صوب اية جهة ، ليجعل الادب الثوري في خدمة متطلبات حركة ثورية تصارع اعداء قدامى وجددا ، هدفه سياسي ، وقاعدته حياة الجماهير ، وثقافته موزعة بين شذرات تقدمية من تراثنا ، ومن اعمال بليخانوف وطومسون وهاراب ، ثم عرف تراث النقد الروسي عبر غوركي ومترجمات (الشرق) و (الثقافة الوطنية) وسواهما .. وانفتح فيما بعد على مرحلة اكثر تقدما من النقد الواقعي الاشتراكي الاوروبي عبر أعمال كتاب يساريين اشتراكيين لبراليين (لويس عوض عمر فاخوري ، رئيف خوري ، سلامة موسى) ، ومباشرة من كتب : أرنولدكتل ، أيان وات ، رالف فوكس . . دون ان تعدل اعمال هؤلاء طبيعة المعالجات والمستويات ، لا تنظيرا ولا تطبيقا ، بسبب سيادة الضرورات السياسية المرحلية وثبات الهدف الواحد غير المتحقق . واتيح لكتاب يساريين عرب ان ينهلوا من ثقافة اوربا ما خطا بحركة نقد الواقعية الاشتراكية خطوة اكثر نضجا وانفتاحا تجسدت في محاولات قضايا الشكل والمضمون ومراجعة التاريخ العربي الادبي بنظرة ماركسية جدبدة على الدراسة الاكاديمية (مقالات الدكتور صلاح خالص) .. وتجسدت في ملاحقة الاثار الادبية العربية قديمة ومعاصرة بسرعة تعليمية او تأن نقدي اكاديمي في مقالات عبد العظيم أنيس ، محمد امين العالم ، حسين مروة ، غائب طعمه فرمان ، عبد الملك نوري ، علي الشوك .. وكتاب مجلات الفكر اليساري المناضل .

وكان الرواد المجهولون المرتدون دون بدبل أنضج : (لويس عوض) والرواد المنسيون بسبب الكبت الفكري (محمد حسين الشبيبي) وبضعة كتاب ديمقراطيين يساريين ، قد مهدوا لكل هذا بمراجعة

الادب الانكليزي وفق فهم ماركس : (الادب الانجليزي الحديث : عوض) أو بأرساء الخطوط العامة للمبادىء النقدية الجديدة : (مقالات الشبيبي) أو بأضاءة عيون التراث الادبي الاوربي او العربي بضوء جديد .. وسرعان ما توالت جهود جيل من كتاب ونقاد وباحثين ماركسيين عرب وعراقيين لتصل بنقد الواقعية الى مرحلة النضج اللائق (اسهامات الدكتور صالح جواد الطعمه وغير واحد من النقاد العرب) ، تلك المرحلة التي حملت نقادا مخضرمين غير ماركسيين على تعديل ارائهم او تطويرها اللاحق ، وسمحت فيما بعد ـ بتأثير مباشر من الكبت السياسي ـ بمراجعة نقدية صارمة لتراث هذا التيار : (الواقعية الاشتراكية في النقد العربي المعاصر : غالي شكري) ثم مهدت لظهور جيل جديد من النقاد الشباب اكثر نضجا وخبرة وحرية و (صبرا) وديمقراطية : (محي الدين محمد ، سامي خشبة، صبري حافظ ، غالب هلسا) يواكب ادب الواقعية الاشتراكية في مرحلة نضجه واستقراره و (احزانه العربية) ويضيء الاثار الادبية بأضواء مراجعة اهدأ واسطع واعمق .. وانعكس تأثير ذلك كله في ادب ونقد ادباء ودارسين مخضرمين وجدد لا يلتزمون الفكر الماركسي ، لكنهم لا يتنكرون لانجازاته الادبية او النقدية ، بل ويستلهمون مبادئه النقدية الاساسية الصحيحة ، وقد باتت بدهيات لايمكن انكارها ، وينتفعون بانجازاته النقدية الناضجة قديمة او جديدة ، ما دامت ادوات مسعفة في الرصد والتحليل والتقييم والتوجيه تستوي عندهم الانجازات الروسية والاوربية والعربية .. لقد باتت الواقعية الاشتراكية جزءا اساسا واضحا او متخفيا ، مقتبسا او معدلا ، لا من أدبنا الحديث ونقدنا الحديث فحسب ، بل ومن جهود الدارسيين التقدميين على اختلاف في مستوى الفهم والتمثل والمعرفة والانجاز ..

وهكذا عاد نقد الواقعية الاشتراكية في ادبنا العربي يستقبل تأثيرات وخبرات ومراجعات مختلفة ، من تراثه العالمي والعربي ومن تراث النقد والدراسة الادبية عالمية وعربية ، ليعود ـ بعفوية ـ مرة اخرى عودة النضج الى ينبوعه الاول الرحب : غوركي .. عبر رحلة شاقة من الكبت الفكري والمراجعة الذاتية والانفتاح الرحب او الضئيل على مصادر ثقافية جديدة مختلفة والانتفاع الذكي او البطيء من اعمال واقعيين اشتراكيين أوربيين اغنوا الاصول باضافاتهم المقبولة او المنحرفة (برشت ، لوكاش ، فيشر ، غارودي ..) ولم يتحقق كل ذلك بمعزل عن مصاعب وتجارب النضال السياسي والمعارك الفكرية التي خاضتها الماركسية على اكثر من صعيد ، واسهم فيها كتاب وفنانون اوربيون معروفون ادعوا لانفسهم ماركسية جديدة اكثر (دقة) من الماركسية الكلاسيكية (سارتر ، كامي ...) واتاحت الترجمة للجميع ان يعرفوا جذور ومصادر وعثرات الواقعية الاشتراكية في الادب والنقد .. مما عجل ببدء مرحلة النضج الجديد ، ورسخ الايمان بفكرة ان (الامل الثوري صورة محركة قوية ، وبحرض الفن اندفاع حياة حار وبطولي ويسنده فينطلق بدوره الى غزو عالم افضل ويسلك بعزم طرقا جديدة) كما يقول هنري ارفون .

ولكن .. لنعد الى موضوع هذه المقالة ..

ـ ٢ ـ

وفاضل ثامر واحد من نقاد جيلنا الذي انفتح ـ في ظل مرحلة شاذة صعبة ـ على مشكلات وتجارب الواقع والادب ، وأسهم منذ البدء ، عبر تجارب خاصة عامة متباينة الجذور والاثار ، في صياغة ملامح نقدية جديدة منفتحة على انجازات الادب والنقد الحديث اوربيا وعربيا وعراقيا .. فلم تتح له الظروف اليومية الصعبة ان يعرف بدقة تراثنا النقدي ، القديم منه او القريب الرائد المتناثر في الكراريس والمجلات والجرائد التقدمية منذ العشرينات . ان اثار الادب الحديث مترجما او موضوعا ، لا التراث النقدي العربي والعالمي كانت في الاغلب (خلفية) النقد الشاب ، فلم يتح لاي من نقادنا الشباب ان ينتفع حتى بكتابات : أيوب ، محمد حسين الشبيبي ، نودي ، فرمان ، حسين مردان .. بل أفادوا من النقد الصحفي المعاصر الناضج الذي كان في متناول الايدي ، والمتنامي في ظل الصراع وجهود المؤسسات : نقد : الطاهر ، صلاح خالص ، نهاد التكرلي ، فؤاد التكرلي ، علي الشوك ، أمجد حسين ، صالح جواد الطعمه ... وأضافوا الى ذلك الاستفادة من المترجمات وعيون النقد العربي الحديث ، وعالجوا ـ بجهود فردية مخلصة متعثرة او موفقة ، مشكلات وظواهر ادبنا الحديث المتنامي منذ أواسط الستينات ، في ظل مرحلة سوداء متناقضة .. أتيح لهم فيما بعد ان يتجاوزوا (الانغماس اليومي) في ادبها ومشكلاتها ، فراجعوا تراث نقدنا التقدمي الحديث على تفاوت في المعرفة والتمثل والاستفادة .. وعمقوا من معرفتهم للتراث القديم .

ولم يكن الناقد الشاب فاضل ثامر بعيدا عن هذا الجو الرديء الملتبس والمتفتح البازغ ، بل كان في القلب من تجربة الستينات واقعا وادبا ، دون ان ينتهي به ذلك الى التخبط او الضلال .. واتاحت له معرفة الانكليزية خلل مرحلة الطلب الجامعي ان ينفرد عن نقاد جيلنا باقتراب واع من عيون النقد العالمي الحديث تأثرا او اقتباسا او استفادة ، فتضافر ذلك مع التجربة الخاصة العامة في صياغة ملامح نزعة نقدية اكاديمية مستندة الى تراث الواقعية الاشتراكية الحديثة عالمية وعربية وعراقية ..

ويكاد الناقد فاضل ثامر يتميز عن نقاد هذا الجيل ، وعن القلة القليلة من نقاد الواقعية الاشتراكية الشباب ، بصدق تمثله لتراثه النقدي المتطور والمنسجم والمتناقض ، وبصدق اسهاماته النقدية في معالجة الاثار الادبية العالمية والعربية والعراقية . فالعثرات في نقده عفوية ، هي عثرات تراثه ، وعثرات التوظيف المخلص للنقد في خدمة أدب مرحلة صعبة صاعدة ، وهي عثرات الصراع الخاص بين أحلام الناقد ومطالب الفكر ، أضافة الى العثرات المعهودة المنبثقة عن اللاانسجام بين الادب ، موضوع النقد ، وبين المعالجات النقدية .

ان الدور الايدلوجي السياسي المرحلي للادب والنقد ، والمجسد في فاعلية منهج واضح منسجم متكرر او متطور احيانا منبثق من قاعدة ايديولوجية ثقافية تتخذ الادب موضوعا لهدف لا أدبي ، دون ان تغفل شروط الادب وقوانينه ومشكلاته الخاصة ، وتغليب الحوار الفكري على (الجمالية) هو ما يميز نقد فاضل ثامر ويؤشر امتيازاته وسلبياته.

واسهامات فاضل ثامر النقدية نشطة متجانسة الفكر والمنهج غالبا .. متباينة الموضوعات والمستويات ، بسبب سعة الثقافة وامتداد الهدف عبر أثار لا متجانسة ، وبسبب تعاقب زاويتي الحب والرفض في الرؤية النقدية .

في (الباب الاول الخاص بنقد القصة العراقية الجديدة) نرى القصة عنده اداة ادبية اجتماعية فاعلة تأثرت بظروف المرحلة وينبغي أن تؤثر في مسارها لذا يحق للناقد ويجب عليه ان يحكمها بمنظور أيدلوجي واضح الطريق والغاية وازاء الاثار الناضجة المعبرة عن انشغال بشرط حضاري او هاجس فلسفي ، لابد للنقد الادبي من ان يكون حوارا فكريا لا يغفل دور الشروط الجمالية وعلاقتها بالرؤية (أزمة البطل في : الشحاذ ـ زوربا : صراع النموذجين الحسي والتجريدي) ، فعلى قدر تعاظم اهمية وتأثر دور الادب العظيم ، أدب الاعلام خاصة ، في المسيرة السياسية الاجتماعية ، وتغلب الضرورة الفكرية بعمد او بحماس عفوي ، في تعزيز رؤيا ما ، او رفض أخرى . ان الاكتشاف النقدي موظف لخدمة هدف الناقد الايديولوجي الادبي ، ويمسي الاثر موضوعا ، والنقد اداة .. وتغيير الواقع هدفا .

ولا يبتعد الباب الثاني (واقع الشعر الستيني) عن الباب الاول معالجة ومستوى وغرضا ، فالقصة الستينية والشعر الستيني نتاج مرحلة واحدة ، وجهد جيل ادبي متحمس مجرب مجدد متخبط متعثر متمرد ملتزم ، فلابد من تصفية تناقضاته الادبية في رؤية منسجمة موجهة تغفل اغلب السلبيات فتحيلها ريادة او جرأة او تجديدا ، وتجعل من شرط الوعي والاخلاص والانتماء الادبي امتيازا ومأثرة ، وتحيل أثار الضغوط السياسية المفروضة (رؤيا جديدة طرحها القاص)، والاندفاعة العمياء لدى اغلب القصاصين (اشكالا تكنيكية وتعبيرية استخدمها بجرأة وشجاعة) ، والتعبير اليومي السهل عن الاحزان اليومية الصغيرة ، احزان الضياع والحلم والخيبة (رؤيا فلسفية

شاملة) ، واللاتواصل بين الاجيال تطورا مدهشا جريئا ..

ان فاضلا في حالي الانكار والاعجاب ، ناقد متحمس منكر او منبهر، تقوده وحدة المنطلق والهدف وتشابه هموم المرحلة في معظم اعمال أدبائنا الشباب ، وبتأثير وحدة المنهج المنطوي على اخطاء موروثة وجديدة ، الى اغفال المراجعة الذاتية ، وتغليب الرؤية الوحيدة المفضية الى نقد الطريقة الوحيدة المستهلكة ، والنتائج المعدة سلفا دون تصميم مسبق . ان الطريق الوحيد المفتوح على الهدف الوحيد الكبير يحكم المعالجة النقدية ويكاد ينحرف بها دون قصد الى التزمت او الضبابية .. يستوي في ذلك نقده لقصص جمعه اللامي وعبد الاله عبد الرزاق ورواية (زوربا) وقصص موسى كريدي وغازي العبادي ، ونقده لشعر عبدالصبور واليوت وسامي مهدي وسلمان الجبوري . ان العثرات تتفجر في غضب هادىء او اعجاب ذكي ، حتى لو التقط الغضب مزية فنية هنا ، والاعجاب منقصة هناك : (نقد اعمال : فاضل العزاوي ، عائد خصباك ، موسى كريدي ، حسب الشيخ جعفر) .. وينتهي ذلك الى لغة نقدية جميلة رشيقة مجازية حين يفضي العشق المستغرق في رؤيا الشاعر حسب الشيخ جعفر وحسن تفهم مراحلها الادبية الى انجاز نقدي بكر ... لكنه ينحرف – في ظل الاسهامة المرحلية المنغمسة دون صمود في اخطاء المرحلة – الى لغة نقدية شائعة مستعارة دون ضرورة من قاموس النقد الفرنسي الحديث ، نقد ألبيرس في (التيارات الادبية في القرن العشرين) ، فنصدم بمجاراة سهلة واستخدام خاطىء لمصطلحات مثل : رؤيوية ، تشكيلية .. حسية دنيوية ، ميتافيزيقية صوفيه ، الرؤية التعبيرية ، الابعاد والمسافات المعمارية والتشريحية ، تشكيل معماري ... (ص ١٨٣ – ١٩٤) .. يمهد لهذا المزلق الخطر عمومية المسح النقدي ، وقسر التصنيف ، وانبهار بمعاصرة صادقة او كاذبة ، وحماس نفسي لفظي أيدلوجي نقدي ، وشغف بالمقارنة وتقصي جذور شعرية لم يحسن الشعراء فهمها .. وازاء هذا المزلق لابد من مكابدة الحماس ، والسيطرة على زمام رؤيا نقدية متبلورة ، كي نظفر بالدقة المطلقة ، دقة علم الادب في اللغة التي بدونها يضيع كل مكسب ، ويهدم كل بناء، وتغيب كل فائدة .. ان فاضلا اذ يخلط – بحماس – بين دلالات المصطلحات ، او يجتلبها دون ضرورة نقدية ، هو فاضل الذي عرف عيون النقد العالمي الحديث ، وادرك ، كما لم يفعل ناقد شاب عندنا ، الفروق الدقيقة بين مصطلحات نقد الواقعية الاشتراكية : الطريقة ، المنهج ، النظرة ، المدرسة .. الخ .

يملك فاضل ثامر – اذ يتحرر نقده من ضرورات المرحلة وتدفق الحماس المعيب – حرية اكبر وشجاعة في التفكير النقدي تغني القناعات الاساسية وتمنحها نكهة شخصية تومىء الى امكانات اصالة نقدية متكتمة وواضحة ، على استحياء وقلة ، ويملك طاقة الناقد المتمرس المخلص : استخلاص القوانين الادبية او تأكيدها عبر المعاناة الشخصية . انه في نقده لشعر حسب الشيخ جعفر وفدوى طوقان وصلاح عبد الصبور وفوزي كريم ، ناقد انطباعي واقعي معاصر مثقف يلتقي بانضج ممارسات نقادنا المعروفين .. يجمع بين الشرح والتحليل والتقييم السديد . انه ناقد عاشق او متفهم لا يسمح للتوجيه في النقد ان يقصيه عن اسرار الرؤيا الشعرية وخط التطور الداخلي للتجربة الشعرية ، وبخاصة اذا كانت كرؤيا حسب الشيخ جعفر رؤيا ناضجة معاصرة وحضارية ومنتمية بطريقتها المتفردة ، او كرؤيا فدوى طوقان متطورة من الغنائية الرومانسية الى شعر المقاومة ، او كرؤيا فوزي كريم تبدأ من الاشياء اليومية الى عالم محايد محبط منحاز حالم ، او كرؤيا عبدالصبور ثرية بهاجس غنائي درامي انساني موزع بين الغنائية والدراما وجامع بينهما في مسرح شعري يضع الناقد المثقف يده على تأثره بمسرح اليوت .. فهو هنا ناقد موجه ، لكنه في الوقت ذاته ناقد اكاديمي مدقق لا يعبر الحيثيات الى النتائج ، بل يحتشد بتفاصيل وادوات اكاديمية ويحسن أغناء عمله بها .. بينما كان في دراسته لقصص الستينات يخلط ، بتأثير المطلب الايدلوجي ، والفهم القاصر الموروث لعلاقة الادب بالواقع ، بين الفكر والانجاز الفني ، بالرغم من محاولته الصادقة – لكن التوفيقية الملفقة – أن ينسق بينهما عبر التشجيع والتحفظ ، الفهم والانكار ، وعبر مقولة وحدة الشكل والمضمون .. وهي مقولة لم تعد ذات جدوى في النقد الحديث ، لان العمل الادبي الناضج ليس شكلا ومضمونا متحدين ، فهذا تكرار لمقولة اللفظ والمعنى القديمة الرثة .. لكن العمل (حقيقة فنية داخلية مركبة منسجمة عبر جدل حي) ، ثمرة انصهار وتفاعل سيكلوجي جمالي بين عدة عوامل موضوعية وذاتية ، وينتهي هذا التفاعل – بسر الموهبة الخاصة الناضجة – الى بناء لغوي ذي جمال داخلي خاص وقوانين متفردة تعيد تشكيل حقيقة ما فتمنحها وجودا جديدا ، وجودا ادبيا موضوعيا .. واذا يتألق فاضل ثامر في دراسته لشعر حسب الشيخ جعفر يقدم دليلا اخر على ان الافكار الايدلوجية في النقد تعجز عن ان تكون بديلا عن الحس الجمالي المرهف القادر على التقاط سر العمل او قانونه ، لانه حس مثقف مشبع بفهم شعري صادق لمسار حركة التاريخ وحركة الجمال في تواصلهما الذي يصنع تاريخ الادب العظيم ..

وحين يلجأ الناقد في معالجته لادب عبد الصبور وفدوى طوقان ، ودراسته لفن الحكاية الشعرية الى اسلوب المقارنات والاقتباسات والتداعيات المنهجية المنضبطة بخطة اكاديمية موسعة يؤكد انه في اخلاصه لهدف التوجيه والتعليم ، وبتأثير الماضي الجامعي وشيوع النزعة الاكاديمية لدى اعلام النقد في اثارهم الكبيرة ، لا يتردد ، من اجل ان يومىء الى مستقبل يقترحه للحكاية الشعرية مثلا ، ان يرث محاسن الاكاديمية النقدية التراثية التاريخية ، وليدل احيانا – اذ يقتبس دون طائل – على عناصر ثقافية ادبية لم تهضم بعد ، لذا تتطرح مع مختلف الاعمال المنقودة بيسر لا مبرر له .. يسر كنا نجهل ضلاله يوم كنا ما نزال فتيانا نهمي القراءة قريبي العهد ببحوث الجامعة ومحاذيرها المشروعة وشروطها الاكثر مشروعية ..

يؤكد فاضل ثامر في افضل مقالاته ان نقد الواقعية الاشتراكية الذي يمثل انصع صورة في نقد القصة والرواية ، ليس نقد الطريقة الواحدة ، ولا حتى المنهج الثابت ، فالاولى مستكرهة ذميمة في ارقى الاوساط النقدية السوفيتية ذاتها ، بله العالمية الحديثة .. والمنهج المنبثق عن فلسفة متجانسة غنية يمكن ، بجهد الناقد الذكي المخلص المتمرس ، ان يعدل ويطور لصالح (رؤيا نقدية متجانسة) ، فلا ينتهي الى الجمود ، ولا يسقط اذ يساعد فهمه واستغلاله ، في التخبط والبدائية .. فالرؤيا النقدية – وان لم تستند الى خلفية فكرية موحدة – تجد ضرورة مسعفة ان تستفيد من اكثر من منهج دون ان تنحرف الى الفوضى . ان المهم – يقول بورسوف – هو (الحقيقة الفنية) لا الافكار .. وتقدم الاثار النقدية الاشتراكية الجيدة الدليل تلو الاخر على ان الرؤيا النقدية الحقة هي التي تلتقط هذه الحقيقة وتضيفها دون عسف الى تراث الادب والنقد ، فلا تبدأ بتقديم نظري صحيح لتصل الى تحفظ فني يخفي تحفظا فكريا عبر تطبيق قاصر ملتو مقنع بالفطنة النقدية ، ولا تبدأ كما في دراسة (زوربا) بالثناء على المجد الفني لتنتهي عبر التحليل الفكري او الجمالي الى ادانة الرؤيا في العمل بدلا من ان ترى فيه تفسيرا ادبيا لموضوع انساني .

ان الجدل في حركة التاريخ والواقع والطبيعة والتراث ينصهر في النقد المبدع – وان لم يحدد بهدف او منهج – بفهم دقيق حساس لحقيقة الجدل في الابداع الفني .. ان الخبرة الجمالية لا تعود تعني شيئا في النقد الادبي حين نكون ذيلا لجمل المضمون او صحة الرؤية او وضوح الفكر فيصلا وهدفا ، كما ان الحماس الفني ، وأن يكن صادقا ، مهلكة في النقد حين يفضي الى الخلط والوهم والعمى والاجتلاب والحشر والاقتسار ..

وما زال الناقد فاضل ثامر موزعا متباينا في كتابه ، ليشير الى تجدد مساوىء الواقعية الاشتراكية لاكثر من سبب . ان الجرأة والثقافة والاكاديمية ونبل الغاية ليست شيئا اذ تباعد بين الناقد وبين الاصغاء الى اسرار وقوانين الادب ، واذ تبقى المعالجات النقدية متباينةبتغير الاهداف والزوايا. ففاضل اذ يدين العمل منذ البدء ليجعل التحليل المستفيض دعما قانونيا للحكم : (أزمة البطل في الشحاذ ، زوربا) ، واذ يدين العمل على مستوى الفشل الفني واللاأصالة المفضية الى كثرة أو رداءة التأثر ... فهو في فصله عن شعر حسب

الشيخ جعفر وريث واقعية انطباعية شعرية تحيل تناقض الشعر انسجاما ، والفوضى وحدة داخلية ، وما هو حلمي أسطوري الى واقعي تأريخي ، وتستثمر ما تحتاجه من انجازات الادب والنقد لصالحها دون قسر أو تعالم لامتلاك اكبر رقعة من الحقيقة الادبية .. لكنه - بعد هذه الرحلة الخصبة ، رحلة تراثه النقدي وتجربته معا يعود الى تغليب الهدف والفكرة المسبقة ، لينقد كاتبا مثل نجيب محفوظ في (حب تحت المطر ، الكرنك) من تهمة الصورة القاتمة وهوة اليأس والسقوط السياسي والفني . انه في مقالته الاخير (الاديب المعاصر - تشرين اول ١٩٧٤) قاض منحاز يبدأ بمناقشة التكنيك الكاشف عن تناقض الشخصيات عبر الاقنعة والتفاصيل المعقدة لينتهي الى ان الروايتين تكتفان قانونا جدليا تأريخيا لم يكتشفه في الروايتين ناقد آخر : انهيار جيل الهزيمة وولادة جيل ثوري جديد بين الانقاض .. فالروايتان في وهم الناقد المشفق من فساد رؤيا نجيب السياسية تكشفان عن رؤية فكرية عمادها فضح عوامل الهزيمة ونتائجها لنقف مع المؤلف أمام قوى المستقبل النامية بثقة وتفاؤل . . هكذا يعود الخطأ القاتل باستسلام الناقد لضرورة لا ادبية ، فيوجه الممارسة النقدية توجيها خاطئا مسرفا لينقد الكاتب التقدمي المعروف ، وربما دون قصد مسبق ، من الاتهام والسقوط والتخلي ، حتى لو تم ذلك بذبح الاعمال الادبية وقتل الحقيقة التأريخية والفنية . .

ومع ذلك ، يبقى في افضل فصول : (معالم جديدة في ادبنا المعاصر) ما يؤكد ان فاضل ثامر ، لو واجه عمله بأرادة متحررة لا تضحي بالتزاماتها الفكرية ولا بقوانين الادب ، قادر على ان يؤدي في نقدنا الادبي الحديث ما لا يؤديه ناقد آخر في اتجاه الواقعية الاشتراكية الحديثة ، فهو ناقد صادق مخلص مثقف متمرس توفرت له عناصر الابداع النقدي ، ولا ينقصه الا ان يكون ابدا اكثر حرصا على الاقتراب من اسرار الادب وقوانينه ، اي اكثر قربا من المعاصرة في النقد ، ونقد الواقعية الاشتراكية ذاته ، في تراثه الكلاسيكي وانجازاته الضخمة الجديدة . .

بغداد

رشدي العامل

مرثيـــة

وداعـاً . اجـل ان العيون كريمـة
اذا ما استدرت. نبعها شـفة الذكرى
تمرين بي حلمــاً يراود في الدجــى
وتنأين عن دربي ، اذا ما الدجى يعرى
شراعك ، في ليلي ، يعانـق مرفـأي
ويرحل عنه الفجر ، للضفة الاخـرى
تعبت مـن الاحـلام ، أي مليحــة
يشير لها وجــه جديد ، ولا تغـرى
اردت شـراء الحب وهو ميسّــر
ولكنما العمـر المـراوغ ، لا يُشرى

* * *

توهمـت أنـي والهــوى يستضيفني
فامنحه عمـري ، ويملأني سـحرا
بأنـي غـريب عـاد بعـد طوافــه
الى واحةٍ تزجى لـه الظـل والعطرا
فكان نصيبي منــك قبضــة نائـم
وجهشة مخـدوعٍ ، واكذوبةٌ كبرى
عنـاناً اذن كانت ســحابة عمــرنا
بلا مطــر يسـتنبت الورد والزهـرا
وهبتـك صبري اذ تعجلت. رحلتـي
وأودعت في كفيك عمري الـذي مـرا

وناغبت احلامي فقـال لي الهــوى :
رويدك فالاحـلام انثى من الشـعرى
روبـدك ذاك الحقـل انت زرعتـــه
وسـاقيته ناراً ، واطعمتـه الجمـرا
وانت الذي كالطفـل يصنع لعبــةً
تحطمها كفــاه ، في اللحظة الاخـرى

* * *

تروحـــين ، لا برد الصباح يضمنـا
ولا تذكر الايــام ايامنــا الغـرا
تروحين ؟ هل ينسى السفين شـراعه
على الرمل مرمياً اذا استقبل البحرا ؟
وتنأين ؟ أي الجـرح يطلب ثـأره
جبينك ينسى ، أم فمي يعلك المـر
وايـــن مـــن الجرحـين ،
جــرح مطـــامن
وجــرح اذا مــرَّ الضياء بـه يفرى

* * *

وداعـاً . اجل كل الدروب قصـيرة
اذا بدأ الفادون بالخطـوة الصغـرى

بغـــداد

محمد خالدي

هموم من الشارع المنسي

من الذي علم هذا القمر الحزن وغربة الرحيل ،
الشاعر الذي يعود من غربته يرحل في القصائد ـ
النبيذ كل ليلة ، يكتب في دفاتر الحزن أغاني
السفر الطويل ... أيها المهاجر ، المدائن القديمة
التي تهرم وحدها تآكلت . على قبابها ترتسم الوجوه .
قيل ذات ليلةٍ سقطت (كان في قلبك حبهم وكانت
الطقوس عادة سرّية) ... عظام موتانا تضج ،
تنحني ، تصير هودجاً ملطّخا بطحلب المقابر .
الجدار قام بيننا . أفقت كان بيننا الجدار . هل
تسلقت جدار هذه الجبّانةِ الحُبلَى وهل رسمت
أوجه الذين هاجروا في الزمن المنهدمِ . الموتى
يصيحون وحارس المدينة الوحيد كان مُتعَباً
يهيم في أغانيه القديمة . المصابيح تجوس ،
يهجر الضوء مساحةً تضيع بين وجهِ الحارس الليلي
والمقهى يضج فيه آخر السكارى . مر من من هنا : يداه
كانتا فزّاعتينِ ثم غابَ ...

في الازقةِ المضاءةِ .
النوافذ التي تطلّ أطفأت

يجوس في الزقاق وحده . الكلاب هاجرت . يغادر
المسافر الوحيد ، ترتمي على خطاه آخر الاغاني .
أمسِ نام عندها . احتوته في سريرها . يذكر شهوة
الحريق وارتعاشة المصابيح يغيم ضوؤها ....
يذكر لون مزهريةٍ ودورة اسطوانة قديمه
حين قرعت بابها ، تقوست معارج الضوء ،
وددت لو حضنت وجهها ، لكنني قرأت في عيونها
الخوف وشهوة البكا .... هذا أنا أجيئك
الليلة مفتوناً . حنيني هودج وموسمي مواكب
ظمأى . فهل فتحت بابك القديم . عاشقاً كنت

ولم أزل مسافراً تلوكني الطريق ، ينبت الحزن
على فمي ويورق الحنين دوحةً . كان هواك
مرفأي اغتسلت في مياهه . توسدت ذاكرتي
الرحيل والفراقَ مذ عرفت وجهك الصبي ذات ليلةٍ ..
خرافي رحيليَ الطويل

. . . .

أمس عندما التقتيه بكى . أحبها قال السكارى مرة لكنها
وغرقوا تلفهم معارج الدخان . هاتها مضى أحبتي . الليل
يطول والمواعيد خواء

ـ هل عرفتَ من أحب
ـ أذكر التي اذا مشت
ـ تضوّعت خطاها عنبراً
ـ شباكها مطفأة أنواره
ـ ستائر الحرير أين هي ....

تهزني خطاي كل ليلة
لحانة قديمة
أسمعهم يثرثرون :

وجه سلمى قمر
يا ليتني ..

* * *

في الشارع القديم
تدور اسطوانة قديمة في حانة قديمة :
(شكونا الى أحبابنا طول ليلنا

فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا

وذاك لان النوم يغشى عيونهم
سراعا ، وما يغشى لنا النوم أعينا)

مصطفى بركات

شظايا من الحقيقة

انه لا يعرف شيئا عن الموت في صحراء سيناء ولكن خيل اليه انه قال شيئا عن الموت في صحراء سيناء وان صوتا ضعيفا اتاه من بعيد ـ من الاعلى ومن الناحية الشمالية ـ يقول : « انه يهذي » .

وقبل أن يجتمع حوله الناس ، تجمع حوله المطاط والحديد والزجاج ..

لم يذق من قبل طعم المطاط ولا طعم الحديد ولم يعرف شيئا عن طعم الموت ولا عن طعم التراب . ولكن المطاط والحديد والزجاج تجمعوا ليأكلوا من لحمه ، انقضوا على جسده النحيل كالحيوانات المفترسة .. وشربت الارض من دمائه ما استطاعت أن تشرب .

لم يقترب من قبل هذا الاقتراب من الموت ، لم يعش ابدا في جوار هذه الحدود بين الظلام والنور ، بين الصمت والضوضاء ، بين السكون والحركة .

لم يكن يظن أن الزمان يمكنه أن يتباطأ ويمتد بهذه الصفة حتى تصير الثواني شبيهة بالسنين وحتى تصير الدقائق قرونا .

عاش الحوادث بوضوح مدهش منذ ان برزت الشاحنة عن يمينه ... خرجت من ذلك الشارع الضيق الصامت وسدت نصف الطريق الرئيسي وضغط هو بدون جدوى على دواسة المكبح وأدار المقود نحو اليسار ..

في ذلك النصف الثاني من الطريق تظهر سيارة ثانية تتجه نحوه بسرعة فائقة . أحس ان الخناق يضيق عليه : بعد لحظتين او ثلاث سيسد الطريق تماما وسيصل رغم محاولاته الى نقطة تقاطع مسيرات العربات الثلاث .

*

كانت الحمامة البيضاء تتنقل فوق سطح مبنى كلية الحقوق ، ذاهبة ، راجعة في مسيرة كانها غير قابلة للنهاية أو الانفصال ، متجهة تارة نحو عين الشمس التي بزغت منذ لحظات وتارة نحو البحر الذي لا تظهر منه ، فوق العمارات والاشجار ، الا حاشية زرقاء .. وفجاة تطير الحمامة ويمر ظلها المتموج فوق جماعة من الطلبة ، كانوا ملتفين حول جريدة يفكون اسرار رموزها بالحاح ، ثم بجنب فتى وفتاة جالسين على مقعد من حجر ثم فوق الطريق الرئيسي ، بعد ان خففت من سرعتها كي تتوقف فوق شجرة . وارتسمت اذ ذاك لمدة لحظات ، مع السماء الزرقاء وبعض الاغصان والاوراق ، صورتها في زجاج السيارة فوق الصورة الداخلية : السائق او ما يظهر منه ،جزء من المقود ، جريدة نصف مطوية فتحت الريح اوراقا منها وأخذت تعبث بها من حين الى اخر .

لم يكن يظن انه يمكن للزمان أن يفقد تواصله واستمراره وان يتقطع ويتمزق ويصير شظايا ملونة مرسوما في كل واحدة منها قصة او جزء من قصة .. اوراق مبعثرة كأوراق الخريف ينظر اليها بنوع من الاطمئنان والهدوء .

الطلبة وقد زال الآن اهتمامهم بالجريدة كأنهم في جدال حاد تارة وفي صمت يائس تارة اخرى ..

« انهم يخفون علينا الحقيقة » : كلمات تأتي من بعيد بعد ان حدثت لها تغيرات عديدة : تمديد ، تحريف ، بتر .. ثم كلمات أخرى يغطيها تصفيق أجنحة الحمام أو يمزقها دوي سيارة تمر ، بحيث أنه لا يفهم منها الا القليل .

« البعض يحكي حكاية والبعض الآخر يحكي حكاية اخرى » .

تتوقف الحافلة الضخمة مع ازيز مطاط العجلات فوق الاسفلت، تنزل امرأة ويصعد ستة رجال ، ثم تنطلق من جديد مع دوي المحرك الذي يغطي صوتا كأنه صياح : « اين الحقيقة ؟ » انزلاق الحافلة يزيح من جديد الستار على مشهد فناء الكلية ، الطلبة لم ينته جدالهم ولكن الاصوات كأنها خفت والابعاد بين الاشخاص كأنها ازدادت والجريدة التي كانت مركز اهتمامهم هي الان فوق الارض ممزقة تلعب الارض باجزائها .

هذا الصباح من شهر اكتوبر يبسم له بصفة غير عادية . الجو معتدل ، السماء صافية ، بعض السحب المنحلة ملونة من جهة الافق بألوان الفجر .. يقول بائع الجرائد بأن الجرائد بيعت كلها فور وصولها ، فيلح هو ، فيخرج البائع نسخة قائلا : « هذه نسختي» ثم يضيف : « الجرائد صارت أهم من الخبز » .

كل صباح خميس تأتي الفتاة مع صديقها ، يجلسان على ذلك المقعد يأكلان قطعتين من الحلوى وتأتي الحمامة البيضاء عند رؤيتهما وتقترب منهما وتمد الفتاة كفها فتأتي الحمامة لتلتقط ما فيه .

*

ضمن اختلاجة من الضوء وبين تسلسل لحظتين تظهر جاكلين ، لابسة قميصا احمر وبنطلونا من نوع الجين ، ثم تختفي داخل دكان الخباز ..

جاكلين ، الاستاذة المساعدة في الجامعة ، عرفها منذ عشرة أيام، رآها لاول مرة وهي تخرج من مكتب رئيس القسم فسألها : « أنت استاذة هنا ؟ » قالت : « لماذا ؟ »

يحاول الآن أحد الطلبة أن يقنع الاخرين : « انها مجرد عملية انتحارية سيقضى عليها عن قريب » .

ـ لانني ظننتك طالبة .

علت وجنتيها حمرة زادت وجهها جمالا .

« مجرد عملية انتحارية » .

كانت جاكلين تتنقل من مكان الى آخر كشعاع من الشمس ، كانت خفيفة الحركة ، دائمة الابتسام .

« يقال انهم مهددون بالابادة » .

تخرج جاكلين من عند الخباز وتتجه نحوه باسمة كعادتها .

ـ محمود ! انت هنا ؟

ـ أين تريدين أن اكون ؟

ـ ولكن ماذا تفعل في هذا الصباح الباكر ؟

ـ وانت ؟

ـ أنا انهض دائما مبكرة .أما انت فانك من النوع الذي يحب البقاء في الفراش حتى منتصف النهار .

ـ نهضت لاستمع لنشرة الاخبار ثم لاشتري الجريدة قبل أن تباع كل النسخ .

ـ لماذا تقلق نفسك هكذا ؟

ـ لا استطيع أن انحكم في نفسي .

ـ ميدان القتال بعيد .

داخل دكان الخباز حوار نأنيهم منه اصداء : « ان الاذاعات الغربية تقول ان الوضع تغير » وصوت كأنه يردد شعارا : « انها عملية انتحارية فقط » . وللبرهان على ذلك ...

تقول جاكلين من جديد : « آلاف الكيلو مترات تفصلك عن ميدان القتال »

ـ ولكي كان ميدان القتال هنا . وراء هضبة من تلك الهضاب. يمر بجنبهما قط اسود ،

ـ كان ميدان القتال هنا داخل صدري .

... القط الاسود يدخل عند بائع الجرائد ثم يخرج بسرعة

ـ كأن كل هذه الحروب فصلتنا عن ماضينا .

ظل يقطع بساط الضوء ببطء وصدى خطوات .

ـ في كل مرة تتحطم الاسطورة .

حكايات القصاصين تموت في افواههم .

يأتي صوت غاضب من الدكان : « شربناها سما قاتلا » وصوت آخر : « كانوا يمجدون السيف عندما كان غيرهم من الامم .. » .

ـ لا تقلق نفسك . اني متأكدة أن هذه المرة ..

وتميل قليلا رأسها محدقة فيه ، باحثة عن طرفه : « لو أتيت لنتناول الفطور معا » ؟

فيتبعها صامتا راضيا .

عند ركوبهما المصعد تقول : « اخبرك ان شقتي تسودها فوضى رهيبة » .

ـ اني أحب الفوضى .

❋

صار كل شيء بسيطا اليوم . بعد فنجان الشاي وبعد السيجارة الاولى ، تضع رأسها فوق كتفه وعند اقتراب شفتيه تتفتح شفتاها مثل بتلتي زهرة دون امتناع . صار اليوم كل شيء بسيطا ومباشرا بالنسبة لهذه الامور : لم ترتعش أدنى ارتعاشة ولم تظهر ادنى تردد عندما فتح ازرار القميص .

الحمامة البيضاء كأنها تنفعل من تلك السحابة الخفيفة التي بدأت الريح تبددها اشكالا تشبه اشكال حيوانات مألوفة .

تئن قليلا .

كان كل ضياء الشمس اختزن بين جناحي الحمامة التي تمر ذلك الحين امام النافذة .

ـ اريد ان انام .

امتداد الجناحين يبعثر النور من جديد .

في المستطيل من الضوء الذي تمدده النافذة تظهر أوراق الاشجار ولونها الاخضر لم يتغير الا قليلا . تقول جاكلين : « غريب .. انتم لا تعرفون الخريف هنا . في هذا الوقت عندنا ، اوراق الاشجار كلها صفراء ونصفها واقع على الارض . خريفنا حزين ، وخريفكم لا يختلف كثيرا عن الربيع » .

يشعل سيجارة . المذياع الصغير حامت اصداؤه في زاوية من الغرفة كأنه يحمل في بطنه ملايين الاسرار .

ـ الطبيعة هنا لا تعرف الحزن .

ثم ، وكأنها فهمت رغبته في أن يمد يده نحو المذياع ليستمع الى الاخبار من جديد ، تضع رأسها فوق صدره وتقول : « نم ولا تفكر في شيء » .

ذلك المستطيل من الشمس الواقع على الارض يدنو منهما في انسحاب خفي ، يصعد فوق السرير ويغطي جسديهما بمعطف من الدفء ويضيف الى صمتهما صمتا أعمق لا تشوبه الا الاختلاجات المتموجة لحركتهما النفسية .

جرس يرن بعيدا .

❋

لم تسمع منه وهو ناهض الا اصواتا خفية وعندما أحست بالباب يفتح قالت : « أنت ذاهب؟ »

ـ سارجع بعد ساعة . نامي .

تلبس من جديد معطف الشمس وتغمض عينيها فيصير العالم صفحة قانية ترقص داخلها خيوط سود تحيا وتموت مع تسلسل الزمن . صوت محرك سيارة . تنهض فجأة متجهة نحو النافذة .

كان يشعر بنوع من الارتياح وهو يتجه نحو السيارة . جاكلين تطل عليه من الشباك وكأنها تعرفه منذ امد بعيد . الاذاعات الغربية تزرع الهلع في جراحنا . لن يستمع اليوم الى الاخبار . لن يترك في فمه الا ذلك الطعم الغريب العذوبة ، لن يجعل في اعماق عينيه الا تلك الصور الهادئة .

الحمامة البيضاء تتنقل فوق سطح مبنى الكلية ذاهبة ، راجعة ، في مسيرة كأنها غير قابلة للنهاية او الانفصال ، متجهة تارة نحوالشمس التي تصعد الان ببطء نحو كبد السماء وتارة نحو البحر الذي لا تظهر منه فوق العمارات والاشجار الا حاشية زرقاء . وفجأة تطير الحمامة ويقطع ظلها المتموج فناء الكلية ، ثم الطريق الرئيسي ، وترتسم لمدة لحظات ، مع السماء الزرقاء وبعض الاغصان والاوراق ، صورتها في زجاج السيارة فوق الصورة الداخلية ، يدان فوق المقود وشفتان عليهما نصف ابتسامة .

تبرز الشاحنة عن يمينه وتسد نصف الطريق ، وفي النصف الثاني تظهر سيارة تتجه نحوه بسرعة فائقة .

داخل السيارة ، في ذلك الفضاء الذي كان هادئا والذي صار رهيبا ، مع الحركة الخارجية المتوقعة : التقاء العربات الثلاث وسط الطريق وتغيير اتجاهاتها مع دوران وانسحاب وانقلاب ، تنشأ حركة داخلية : المقود يتاخر نحو المقعد ، جزء من السطح ينزل الى الاسفل والزجاج يتفجر جاعلا الهواء يتسرب بعنف .

لم يذق من قبل طعم المطاط ولا طعم الحديد ولم يعرف شيئا عن طعم الموت ولا عن طعم التراب ولكن المطاط والحديد والزجاج تجمعوا ليأكلوا من لحمه ، انقضوا على جسده النحيل كالحيوانات المفترسة ، وشربت الارض من دمه ما استطاعت أن تشرب .

احس ان جسده ينقسم الى الاف الاجزاء .. يداه مفتوحتان تحملان ضمن الكفين بقايا من ذكريات جسد جاكلين . شفتاه تختلجان بصفة غير محسوسة حاملة كل التساؤلات ، بطنه مفتوح . قلبه ينبض تحت ضوء الشمس ، تحت هبات النسيم ، بصفة هادئة ، متواصلة. أذناه في بطن الارض تسمعان نبض المدينة حيث تستمر الحياة في تسلسلها المعتاد مع شيء من الكآبة الهادئة .

... وكأن عينا منه تخرج من محجرها وتقذف بعيدا وتبقى هناك منفصلة عن جسده ، على حافة الطريق فوق الكلأ الاخضر تبعد كل شيء : جذوع الاشجار ، عجلات السيارات التي تدور الآن ببطء ، ارجل الناس ، وجاكلين التي تخرج من باب العمارة وهي تجري حافية الرجلين .

يسع وجهها كل صفحة العالم ، يشير اليها أن تدنو منه .

يقول في أذنها : « لم اكن اتخيلك قادرة على الحزن »

انه لا يرى العالم الا بعين واحدة ،عينه الاخرى وسط جرح عميق.

ـ كنت سعيدة معي ؟

ـ جدا .

في ذلك الشريط الضيق ، بين النور والظلام ، بين الحياة والموت ، ترجع الحمامة البيضاء خافقة الجناحين ويمر ظلها فوق الحديد المحطم ، فوق الدم القاني الذي لطخ العشب الاخضر ،فوق رؤوس الناس الذين التفوا حوله .

يحس فجأة انه خريطة جغرافية مزقت في ناحية من نواحيها ، ويتكلم اذ ذاك عن الموت في صحراء سيناء وهو لا يعرف شيئا عن الموت في صحراء سيناء ، ويقول أحد « انه يهذي » ويقول اخر كأن الحادث لا يهمه في شيء : « لقد أعلن عن وقف القتال » . فيأتي صوت فيه كثير من العتاب : « ان الرجل يموت امامكم » ..

« وقف القتال من جديد » .

يشير الى جاكلين ان تدنو منه ويهمس في أذنها : « اريد معرفة الحقيقة » فتفهم منه انه يريد معرفة الحقيقة بالنسبة الى جروحه . تقول : « حالتك ليست بخطيرة » .

فيلح هو : » اريد معرفة الحقيقة» .

ـ حالتك ليست بخطيرة صدقني .

ـ ما هي آخر الانباء ؟ هل توقف القتال ؟

ـ لا ترهق نفسك . ستصل سيارة الاسعاف بعد قليل .

ـ ارجوك . اريد معرفة الحقيقة .

في ذلك الشريط الناصع البياض الذي يقطع صفحة الظلام والذي يتضاءل عرضه من لحظة الى اخرى ، تمر من جديد الحمامة ، خافقة الجناحين وتقول جاكلين شيئا لا يعرف مدى قربه من الحقيقة، تقول كلاما لا يفهم منه شيئا لانه صمت ضمن صمت العالم .احس فقط بحركة شفيتها عند نشأة الكلمات .

ثم تقترب الشفتان من شفتيه لتميتا كل التساؤلات .

تحت الشعر المهتدل يظهر الان وجهما ملطخا من دمه .

تحتضن راسه بين ذراعيها وتسقط شفتاه فوق صدرها الذي كان يظهر جزء منه بين زرين من ازرار القميص الاحمر .

الجزائر

حاتم صكر

البـــوابـة

تغير كل شيء ..
ها أنا أغري الرياحَ تقيم مملكةً
أفاوض بآسمك القدسي أسرابَ النوارس كي تبايعَني
فلا ألقى سوى عينيك تقترحان بدءَ الدمِ ..
أقرأ فيهما :
الموتى واسماء الصحابة
.. ثم يغلق دوني الحراس أبواباً
فأنفذ من مسامات بجلدك
ـ كنت أعرفها كوجهي ـ
كلما هَربت رؤاك أتيت ملتحفاً قميصك
ناشراً رايات شعرك في الهجير مظلةً
تدني لي الاقمار في عزّ الظهيرة
.. ثم يغلق خلفي الحراس أبواباً مشرّعةً
لها منك استدارة حدقتيك اذا
تماوج في قرارتها النخيل
او ارتسمت قصائداً خجلى على شفتيّ ..
... هذي أنتِ (دودولا) *
تغطي في رداء العشب عينيها
وتنمو في مفاتنها الوعود بموسم المطر
تدورين الشوارعَ ..
تزرعين على نوافذ صمتنا شجراً
يطاول سور مملكةٍ تدفق من محاجر أهلها العسس
... الخلافة أورثت أبوابها الصدئات أجناداً
تَخفّوا في سمائك سرب غربانٍ
فمدّت خلفهم أفياءها الاشجار ..
وابتنت العصافير
بيوتاً تستضيف بظلها الفقراءَ
.. والغرباءَ

.. والريح التي حطّت على الابواب ..
تنشر وجه (دودولا)
سنابل تومىء الاعناق منها للأكفّ ..
.. العشب ثوبكِ
والرياح تدور في الطرقاتِ
توشم في مفارقها
عناويناً لمن ماتوا
بلا اسمٍ على الاسوار :
(كنا كلما جئناكِ
فرّ الطيف ..
لاحقناه
فاصطدمت خطانا عند بوابات سورك ..)
.. انهم يبنونَ مملكةً
تسيّجها الخسائر
لم تباركها سوى الاشـلاء ..
تعبرها السحائب دونَ اذنٍ غير وشمكِ ..
حيث ـ سيدتي ـ
تقيم الريح مملكة اليتامى
في ندى عينيك
تحترق المسافات
فأقرأ عبر صحوكِ وجهيَ الابدي مبتلاً ..
وابصر في مداخلها ..
قيامةَ وجهِ من ماتوا ....

بغـــداد

(*) في (الغصن الذهبي) : كان الصربيون يجردون احدى الفتيات من ملابسها تماما ثم يغطونها بالحشائش والاعشاب والازهار كما يخفون وجهها بخمار من الخضرة النضرة ويطلقون عليها اسم (دودولا) وتمر في شوارع القرية ومنازلها مغنية ....

محمد سمارة

ثلاث قصص قصيرة

١ ـ الساعة

داخل غرفة صغيرة مربعة ، كان شاب يرقب برهبة عقربي الساعة الجدارية الضخمة ، وهما يقتربان من الخامسة ، ولم يكن يدري ما يتعين عليه ان يفعل . ترك رأسه على الطاولة وقد خيل اليه ان كل شيء يتجه نحو ما كان قد رسم له مسبقا ، وان الفتاة التي ينتظرها لن تأتي ، وهذا ما جعله يحدق في البندول اذ هو يتراقص كما لو كان مشنقة . وقال في نفسه : ما معنى ان تتركني وحيدا في غرفة خانقة ؟ واردف يائسا : ذلك ما كان يتحرك في رأسي تماما ، وها هي الطرق تتوضح لاكتشف انها ذات نهايات مغلقة .

وضرب الطاولة بغضب ، وجار ، وتجول في مساحة الامتار الثلاثة ، وكانت عيناه معلقتين بالساعة اذ هي تكاد تعلن الخامسة تماما.

وهو يذكر جيدا تلك الاشياء الغامضة التي طالما تحركت في رأسه بالحاح دون ان يدرك لها سببا ، ودون ان يدري ما عليه ان يقوم به ، حتى اذا ما مر وقت ، رأى ما كان يتحرك في رأسه كحقيقة ، وهذا ما جعله الان يقف مأخوذا مندهشا ، وقال : والان .. تدور في رأسي اشياء غامضة ، وهاهي تتضح شيئا فشيئا لتكشف لي ما غمض علي وهو انني سأموت اذا ما دقت الساعة خمس دقات دون ان تأتي الفتاة التي انتظرها .

وحملق في البندول اذ هو ينوس ـ دونما صوت ـ الى جهة اليمين واليسار ، غير ان الشاب كان يسمع له رنينا هائلا ، ما كان بقدرته ان يقف ازاءه هادئا .

وقال : لم يبق بين عقربي الساعة والرقم الخامس الا القليل ، فهل في نية الفتاة ان تأتي ؟ وشخص ببصره الى البندول ، وخطر له انه سيدق عما قليل دقاته الخمس ويسقط هو على اثرها ميتا وينتهي كل شيء .

واطل من النافذة برهبة ، وفي اللحظة التي كان يتركها سمع ـ لدهشته ـ الدقة الاولى من الدقات الخمس ، فانتفض جسده ، وتقلص وجهه ، وما لبث ان سقط على الارض ، ولم يكن قد اطل من النافذة جيدا ليرى الفتاة وهي تقترب من الباب الرئيسي بمرح وتغني .

٢ ـ رصاصة اخيرة

حين كان الطير يرفرف مقتربا من شجرة وارفة ضخمة ، كانت عينا الرجل الواقف على مبعدة امتار ترقبان الجناحين الابيضين وهما يختبئان بهدوء بين الاغصان التي تحولت بفعل البرودة الشديدة الى كتل ثلجية بيضاء وقال مندهشا : هل باستطاعة هذا الطير ان يصمد بين هذه الاغصان المثلجة ام انه سيتجمد هو الاخر ؟ وفكر ان كل شيء في هذا الخلاء ينذر بعاصفة شرسة ربما تكتسح الاشجار والطيور والاعشاب ، وهذا يعني كما تراءى للرجل انه سيغفو عما قليل وسط كتل من الثلج وحيدا الا من بندقية عتيقة ، واضاف بضجر : هل بقدرة هذه البندقية ان تصطاد شيئا ، سيما وانها لا تحتوي الا على رصاصة واحدة ، وربما كانت فاسدة ؟ وبحث بعينين مجهدتين عن الطير وقد بدا كل شيء حوله ساكنا الا من نسمات باردة كانت تمر بالقرب من اذنيه ، غير انه كان يدرك ان ثمة عاصفة ثلجية تنتظر .

رفع البندقية التي كان قد ركنها الى جانب، فاكتشف انها تحولت الى قطعة من الجليد ، وقال : كم رصاصة ذهبت هدرا هذا النهار ؟

وفتح مكبس الامان ، ونظر الى الطير الذي لم يكن يدل على وجوده أي شيء ، مترقبا ظهور حركة ما ، وكانت العاصفة قد بدأت تشتد وذوائب الاشجار الصغيرة تنثني مع حركة الريح وتلامس الارض .

اقترب من الشجرة ، ورأى الطير وهو يتحرك بين مجموعة اغصان متشابكة ، وقد خمن ان الطير رآه ، ومعنى ذلك انه ما ان يرفع بندقيته حتى يرفرف الطير ويضيع كل شيء . وقال ساخرا : ومن يقول انني سأصطاده ؟ لقد هدرت نصف هذا النهار بين الركض وراء الطيور، والسقوط فوق كتل الثلج دون ان اصطاد حتى حرذونا. وقد ادرك الرجل انه سيعود الى البيت هذا النهار وحيدا الا من بندقية فارغة . وراقب الطير الذي شرع يتململ في مكانه ويجيل فيما حوله عينين خرزيتين ، وقال : لو كنت قد اصطدت طيرا واحدا مقابل ما هدرت الرصاص لكنت قد ربحت على الاقل شيئا . واضاف : وهل بامكاني اصطياد هذا الطير برصاصة واحدة ؟ وحملق في الطير الذي لم يكن يبعد عنه سوى مقدار ثلاثة امتار ، ورأى الريش الناعم الابيض وهو يتموج مع حركة الريح ، واستعاد اللحظات التي هدرها متسللا بين الوديان والثلوج ، وهمس بغضب : وماذا بقدرة رصاصة اخيرة ان تفعل ؟ ونظر الى الطير الذي فوجيء به يرفرف فوق الاغصان ، وينشر جناحين ابيضين ويطير .

٣ ـ النافذة

لم تكن الفتاة المطلة من النافذة على الفتى الواقف على رصيف الشارع لترى العصفور وهو يرفرف لصق نافذتها بجناحين لحميين ويزغرد . لوح الفتى بورقة زرقاء مطوية ، فالتهب وجه الفتاة ، ورسمت في الهواء اشارة فهمها الفتى للتو .

زغرد العصفور وقفز بمرح الى احد الاسلاك الكهربية الملاصقة للنافذة ، غير ان احد جناحيه اشتبك بكتله من الخيوط الدقيقة الملتفة ، وكان ثمة صبي صغير يرقب ذلك . تراجع الفتى ، والتقط حجرا صغيرا ، وضمه داخل الرسالة ، وما لبث ان القى به الى النافذة . التقطت الفتاة الرسالة ، وقرأت ما فيها ثم مدت رأسها من النافذة لترى الفتى وهو يلوح لها بعصبية ، ففكرت انه لا شك قد انتظر في الشمس طويلا . للحظة تفوه بكلمات لم تستطع الفتاة سماعها لكنها رأته وهو يرسم في الهواء اشكالا مبهمة ، استطاعت الفتاة اخيرا ان تميز منها شكلا على هيأة سهم يتجه بشكل عكسي ففهمت الفتاة هذه الاشارة . اغلقت النافذة ، ونظرت في المرآة ، واتجهت الى الباب ، وكان العصفور لايفتا يرفرف بين الخيوط الملتفة بذعر ويزغرد .

بغداد

نجمان ياسين

تجربة البحث عن التفرد والخصوصية في « من قتل حكمت الشامي » ؟

تمتلك مجموعة – من قتل حكمت الشامي ؟ القاص جمعة اللامي اهميتها من خلال عدة اعتبارات منها ان اغلب قصص المجموعة قد كتبت في الستينيات وجاءت متجاوزة في الشكل والمضمون لاغلب تلك المرحلة ، ومن قدرتها الاقتحامية في محاولة التفرد وطرح صوت موحد خاص اضافة الى الحس التجريبي والبحث عن لغة جديدة تستوعب ثقل وعمق تجربة القاص الكثيفة والمتداخلة ، الغريبة بواقعيها وشاعريتها القاسية .

وسط ركام القصص التي كتبت في الستينيات والتي سقط اغلبها في افتعال التجربة والكتابة من الخارج دون ادراك لقانون الضرورة، تبرز قصص جمعة اللامي لتتفرد وتطرح سماته الذاتية وطابعه الخاص المرتبط بعذابه الجاد في خلق نمط متفرد ، ومن هنا تمتلك تبريرها كشهادة ابداعية رائدة في مجال التجريب والبحث عن الغريب والمثير دون ان تسقط في لعبة الشكل المجردة او تخفي المضمون المشحون بالتوترات النفسية والوعي الاجتماعي .

ان اهم ملامح عوالم جمعة اللامي في هذه المجموعة يمكن ان نجملها في :

١ – الحس التجريبي المغامر الذي يريد ان يقيم ربطا دافئا بين احتدام المضمون والشكل بحيث لايحدث التنافر بينهما او يسبق احدهما الاخر ، وهذه الرغبة في ايجاد علاقة متناغمة تستوعب تجربة القاص تنم باشكال ثرية وجديدة .

٢ – محاولة خلق عالم خاص بديل لعالمنا ، عالم تتعانق فيه الاشياء وتشف لتكشف عن قانونه الداخلي وتعري الزيف واللاانساني في عالمنا ، عالم تتفرق الاحداث فيه وتعود لتلتم مكونة جوهر الواقع .

٣ – استبطان التاريخ والغوص في دهاليزه المظلمة كمعادل لتاريخ الانسان المعاصر وتحقيق جدل الثورة الممتدة في كل العصور والتي تتفجر في التاريخ والانسان معا .

٤ – استيحاء الاجواء الدينية والتراث الشعبي وادخالها في طبيعة العمل القصصي مما يمنح بتجربته نكهة ذات طقوس ومراسيم مدهشة .

٥ – الموقف التمرد عند البطل ورفضه لقسوة العالم الخارجي والمتاني من حدة الوعي والادراك لصعوبة الوضع البشري ، اي ان محرك التمرد عند البطل هو رفض نفاق الحياة الانسانية وهذا الفهم يتفق مع البيركامي الذي يقول : « لئن كان هناك تمرد فلأن الكذب والظلم والعنف تصنع جزئيا وضع التمرد » .

٦ – ظهور الموقف العبثي من العالم والاشياء والذي يشكل بداية التمرد عند البطل اذ ان التجربة العبثية – كما يؤكد روبير دولبيه – تمنحني بديهية وحيدة واولية : تمردي « وهذا الموقف العبثي يقترن احيانا بالقلق الوجودي والرعب من العالم والاحساس بعدم جدوى الفعل الانساني،وهذا الموقف الوجودي لا يقع في خطيئة اليأس والعدمية عند البطل بل يتطور الى تمرد يرتبط بالثورة . ذلك ان « حركة التمرد تبدو في اصلها قصيرة فهي ليست الا شهادة مضطربة ، اما الثورة فهي على العكس تبدأ من الفكرة ، بل على وجه الدقة ادخال الفكرة في التجربة التاريخية ، في حين ان التمرد هو فقط الحركة التي تفضي من التجربة الفردية الى الفكرة » .

٧ – التقاء الجانب الرمزي بالواقعي واختلاطهما بالحس الاسطوري الشعبي مع الاحتفاظ بقدر كاف من الشاعرية .

٨ – ابتكار لغة متجانسة وجسورة للتعبير عن الوضع النفسي للبطل اذ تكون تارة لغة توراتية او صوفية او لغة واقعية بحتة ، او تكون لغة مهشمة موزعة تارة اخرى بما ينسجم مع طبيعة الموقف والوضع النفسي .

٩ – ارتباط الموقف الطبقي الحاد بالموقف الوجودي القلق .

بعد هذه الملاحظات نبدأ الدخول في تفاصيل عالم جمعة اللامي لتأكيد الاستنتاجات السابقة .

في القصة الاولى من المجموعة – اهتمامات عراقية – يضعنا القاص امام اضاءة للتاريخ ، اضاءة تستوحي الجانب المشرق والمضيء من التاريخ والتي تمتد بايولوجيا منه الى تجربة الانسان المعاصر ، فاستشهاد الحسين وموت فقراء الزنج سابقا يلتقي في ظروف القمع المتشابهه مع تجربة الانسان حاليا ، واذ تتداخل الاصوات في القصة وتتعقد فانما لتشير الى صعوبة وتعقد التجربة الحضارية ، هنا الفقراء نفس الفقراء ، والموت ذات الموت ، وحدة التجربة واحدة ، واذ تختلط الاسطورة بالتاريخ والحكاية الشعبية الاسرة فان القصة تجرنا الى الانشداد ، بيد ان القاص يتدخل عقليا ليخلق مشاركة ذهنية بعيدة عن الانفعال العاطفي والقصة باصواتها العديدة ووقفاتها المدروسة تنجح في تحقيق الهدف وتلقي بنا في قبضة التاريخ – العصر لتراجع الكثير من الموروثات القديمة .

وفي – الغرفة – تلمس تجربة الانسان المحكوم بالحرية والذي يرى من الاشياء ما لا يراه « مؤكد أن هذه المدينة عمياء » ولهذا يسعى الى تحطيم المألوف والاعتيادي في الحياة ، وتضج القصة بالرموز – الجياد البشرية ، الغرفة السجن ، الملكة ، اشارة للامل وحب القمر المرتبط بالحكاية الشعبية مع الحنين الى الطفولة – والوضع الانساني في الغرفة غامض ومعقد ، كذلك هو الوضع في الخارج : وضع يقسر الانسان ويضطهده : « صاح في وجهي رجل ضخم : انت اسمك يوسف ، ولكننا سندعوك نوح ، هذه انظمتنا. هنا يتحول الانسان الى رقم ، لايختار حتى اسمه فالنظام هو القانون الاوحد ولا بأس ان يستلب الانسان .

وتبدأ الليل تعرية الاشياء وكشف الاقنعة في قصة « الليل في غرفة الآنسة «م» – حيث تختلط التجربة الجنسية الشاذة بالجريمة وبالعلاقات المتناقضة – فضيلة عبدالصدوق – والفتاة التي قتلت من قبل الشاب المثقف بحكم ان الاضطهاد الخارجي الذي لايسمح للداخل بممارسة التجربة هو المسؤول عن هذا التشكل الشاذ للانسان ودفعة للقيام بفعل التعويض تخلصا من اعراف المجتمع ، ولذا يسود الانحراف وتبدأ طقوس الزيف ضمن الدائرة وضمن الداخل الانساني الذي يقرر اننا نمارس الاشياء الممنوعة دون ان نجزؤ ونتحدث عنها لانها ترتبط بالقدسية المتأتية من المجتمع .

وتبدأ قصة « من مذكرات طائر الليل » بتقديم تقرير علمي يمتزج بالاسطورة الغريبة والمحتملة الحدوث ونكون امام فانتازيا معادلة لصلابة وخواء الواقع الذي يشير الى احساس حزيراني قاس بعدم جدوى التحرك والسقوط في الرتابة والايمان بان الحياة لعبة مسلية وغبية تدفع الى الالية في التعامل من خلال عدم اتخاذ موقف من قبل البطل الذي لا يملك الا ان يكرر : نعم .. نعم .. نعم .. دون ان يمتلك القدرة على الرفض ، انه هنا كائن مدجن له احساس عبثي جارح وليس له الا ان يساير الاخرين . وفي قصة « التحول » التي تحمل نفس عنوان رائعة كافكا العظيمة نبدأ رحلتنا

مع قصة تأملية تشبه السياحة الفكرية ذات الطابع المرعب عن الوجود ومصير الانسان من منظار ميتافيزيقي ، القصة كابوس رهيب تقرر فقدان معقولية العالم : الطفل الذي نبتت شواربه بفتنة ، وتؤكد ان الحياة تورث الرعب والحزن للانسان رغم احتجابه اللامجدي عند سقوطه في العالم : وعندما يحتج الطفل لا يجد الا الصراخ وسط جحيم العالم :

هذا العالم اخرس
هذا العالم ابكم
هذا العالم اطرش
هذا العالم دنيء
من يعطيه البراءة والحلم ؟..

ولان البطل يدرك ان الانسان يمنح الوجود المعنى في محاولة للكذب على الذات « طوال قرون لم نفهم منه الا الوجوه والرسوم التي كنا نكسبه اياها مقدما ولان القوى تنقصنا بعد الان لاستعمال هذه الحيلة » لانه يدرك خداع الانسان لنفسه وعدم قدرته على المواصلة في الكذب ، يتمرد فيفصل من العمل ويتهم بالجنون لكنه يظل مصرا على تفسير العالم بالحدس الباطني ويظل خارجا على الاعراف والتقاليد والرغبة بالا يصنعه الاخرون ، بينما تقف زوجته لتؤكد ان العالم عاقل وشجاع « الرياضيات الدامية التي تنظم وضعنا البشري » اي تصنع العقل والمنطق البارد لتفسير العالم « الشجرة هي الشجرة » وامام المنطق الصارم للزوجة لابد للبطل بموقفه الداخلي الحدسي الذي يحطم العقل أن يرفض المهادنة والسقوط في تجربة الكذب ، والكذب على النفس ، وهنا يتشكل المعادل في القصة ليمنحها القدرة على اثارة اكثر من سؤال عن العالم ومصير الانسان .

ويوزع القاص قصته « ابراهيم العربي » على اربعة مقاطع يربطها خيط سري وخفي ، فماجي العجوز المنفية في البار تلتقي بالهم المشترك مع ابراهيم العربي الذي يعيش تجربة النفي والاضطهاد في السجن وفي ذات الوقت يعيش تجربة العلاقة التاريخية مع عبيد المأمون الفاتحين « وقود الثورة في كل مكان وزمان » فتجعله احزان النبوءات الجديدة والحالات الانسانية في حالة وجد ثوري يتجسد واقعيا في « الهجرة » عندما يقف قرب « نصب الحرية » ليلتحق من جديد « بالشحاذين والعمال والجنود الذين كانوا يملأون شوارع بغداد في ذلك اليوم » البطل هنا يحقق تبرير وجوده الانساني في المشاركة الجماعية والاغتسال في نهر الثورة وينفض عنه حس القلق عن طريق الالتقاء الحميم بانسان الثورة التي تفيض وتمتد في روح الاشياء .

وتبدأ قصة « من قتل حكمت الشامي ؟ » بسؤال يتضمن اكثر من معنى ويحتمل اكثر من اجابة . هل هي الثورة « ونسه » ؟.. ام الذين خانوا الثورة ؟ وتتنامى القصة في بناء عضوي جميل وعالم ثري خصب متداخل العلاقات الحلمية والطقوسية حتى تكاد تتحول الى سمفونية عذبة ابان لقاء البطل بالثورة ، سمفونية مناجاة بلغة توراتية ذات جلال وشموخ يذكرنا بنشيد الانشاد وبراءة الثورة التي تتشكل بين الحضور والغياب ، بين جدل الحياة والموت لتصل بنا الى حضور البطل الشهيد امام العالم كقضية تبشر بميلاد جديد تنبي دينه : الحب .

وبين الولادة والموت واصوات النذير والبشارة يتاكد حضور الثورة ، وحضور البطل الشهيد عندما يسأل الحلاق : من قتل حكمت الشامي ؟..

وفي ـ ساعات من زمن الآني حكمت الشامي ـ يندغم الزمن الداخلي والخارجي في عناق اثيل ليشكلا القصة التي تجسد جانب البراءة عند الطفل المسكون بالموت اولا ثم تنعطف لتصور العلاقة المأساوية في البار بين المحقق وهرمز والاب والتي تكشف غباوة المحقق والقانون الصارم المسلط على الرؤوس من جهة ، وتنير شخصية البطل عن طريق هرمز : « من الارض جاء ، غرة في جبينه ، صامت حتى في كلامه ، وهادىء في صخبه ، ابيض اللسان والقلب ، تتجه عيناه الى دروب ابن الله » .

وتستمر اللغة الرائقة الشفافة بحسها الاسيان والاليف ومفرداتها الصوفية ، تستمر كلغة تجل وكشف تنفق والموقف الثوري الصوفي لتفسر اشكالات الوضع : « اجيء كالحلم وامر على بيوتكم ، وليس لي الا الحب اوزعه عليكم فلقد اماتني ان اراكم متفرقين » .

فالبطل هنا يحضر في الاشياء ويتجول في الشوارع ويتأكد حضوره في شهادة الفتاة ، شاهدت رجلا يغسل وجهه بالماء الربيعي » .

ويتأكد في حضوره قرب الام : واقترب منها ناعما كالحلم » .

حلم هو وواقع ايضا ، شهيد كالحلاج وحاضر حضوره الثوري في العالم وشهادة « حورية » تأكيد اخر لديمومة الثورة : « رغم ان زوجي لم يطأني منذ شهر فقد شعرت ان احشائي بدأت تثمر » .

وبهذا تحل الثورة في الاخرين وتصبح الشهادة بمثابة ولادة قادمة مثلما جسدت القصة عن طريق الجانب الصوفي ، الواقعي ، الملحمي والرمزي فجاءت قوية مدهشة وذات ضربات موسيقية نفاذة .

وتتحول المرآة في « تاريخ القتلة » الى رمز والعلاقة معها تصبح علاقة عذاب ونزيف داخلي في الحاضر ازاء عذاب التاريخ ، وشموخ التاريخ وتزييف وجه الصادق يولدان الاحساس بملاحقة التاريخ وعدم التواصل مع المرآة ، فقدان بريق ونار الوجه العربي يسبب التوتر بين الماضي والحاضر « نفقت الجياد ، في البحر الجياد تنام .. وعبد الرحمن فقد زيه العربي .. غرق في البحر .. سافر في الموجة المتجددة الى الداخل » .

هنا يتم الالتقاء في الغربة الوجودية والاجتماعية ازاء الرمز التاريخي : الداخل منفي والبطل هو الاخر منفي .

لكن كليهما يروم الخلاص من اسر الواقع ، يريد الابحار الى الداخل ، الى الاكتشاف ، الجوهر ، ومن الاعماق تبدأ تجربة الجدل في التشكل من جديد وصولا الى استمرارية الثورة .

وفي « امرأة في خطوات رجل قتيل » نقف امام بداية قصصية واقعية تتنامى عبر الحلم لتصل الى حالة فانتازية تقيم جوا بشعا للقتل والارهاب اذ ترسم صورة لمحاصرة وملاحقة الانسان وقتله بشكل وحشي في ظرف غامض يرسخ معنى عدم ضمان الحياة الانسانية وترتد القصة الى الواقع ثانية ، وفي الواقع يتحقق حلم القتل الرهيب فيتاكد لنا : ان كل شيء محتمل الحدوث في هذا العالم .

اما القصة الاخيرة « يوم في تاريخ مدينة منسية » فهي من قصص جمعة اللامي الجديدة عن مدينته الاسطورية ـ الواقعية « اليشن » والتي نشر بعضا منها في المجلات العراقية والعربية . القصة تجربة جديدة شكلا ومضمونا اذ يعمد القاص الى خلق تاريخ خاص ، سري وغامض ، مركزا على التركيب والبناء الشعري المتداخل الذي يتعمق بومضات واقعية ذكية . وفي تقسيمه للقصة يطرح شخصية متعب المطرود ـ المجنون ـ رمزا للنبوة والمبشر بموت الجواد ، بينما يؤرخ للجواد من خلال وصف تاريخ وطبيعة مجتمع مدينة ـ اليشن ـ هذا التاريخ الذي يطرح شهادة سليمة : انتم القتلة . ويوضح اجواء الخيانة وموت الشيخ ، اما المقاطع التفسيرية والهوامش « ما فاتك من دهاء النساء » و « من رسالة مطولة وجدت لدى امام المسجد » فتقدم الكشف والاضاءة من الداخل وتنير عالم المدينة السري بضربات موحية ذات تركيز شديد ، وبهذا يحقق القاص شكلا للقصة يقربها من بناء القصيدة الحديثة التي تتشكل من خلال الاجزاء دون ان تمنح نفسها بسهولة وللوهلة الاولى ..

ان مجموعة « من قتل حكمت الشامي ؟ » اضافة رائدة وشجاعة للقصة القصيرة الحديثة في العراق واسهام جيد في عالم القصة العربية ، مجموعة تحقق بداية ثورة في الادب وتقتحم دروبا غير مأهولة ، دروبا ستتضح حتما في التجارب المقبلة الجديدة لجمعة اللامي .

الموصل

هشام توفيق الركابي

الصـــــدأ

« ١ »

رن جرس الباب . رن رنينا متواصلا ومرعبا . كصرخة استغاثة ، أو كعواء مخيف . استمر ذلك لبرهة لم يعلم امدها ، ولكنها كانت كافية لتشيع الهلع في أرجاء البيت كله .. وعمه السكون .

المرأة هي التي انتفضت في البداية . جلست مهزوزة على طرف الفراش . واعقبها الرجل في الجلوس . وللحظات طويلة جلسا وجها لوجه ، متلامسين تقريبا ، من غير أن ينبسا بحرف . ثم برامقت عيناهما في نظرات متوجسة حائرة ونهضا واقفين .

كان صوت الرصاص لا يزال يلعلع في السماء . ككل ليلة مضت . وكانت تسمع بين الحين والحين فرقعة الصواريخ والقنابل والمدافع في دوي هائل يهز الجدران والسقف ويحطم زجاج النوافذ . غير ان هذه الامور لم تعد موضع دهشتهما او استغرابهما الان . بل لم تعد تثير حتى مجرد ذلك الاحساس الفطري بالخوف . فهكذا كانت بيروت منذ اكثر من تسعة اشهر .. ولكن الجرس كان له رنين آخر ، رنين مشوش مزدحم جافل .

خطا الرجل عدة خطوات قبل ان تنتبه المرأة اليه . ثم جذب نفسا عميقا . وانفلت من باب الحجرة . تبعته المرأه بصمت . وفي الردهة كان الليل لا يزال يحتفظ بلونه في زواياها وفي بعض الاخاديد والمنعطفات البعيدة عن مصباح النوم . وبدت الاشياء هشة الحدود ، متحللة في كثير من الاماكن ، وكاشفة عن نفسها في اماكن اخرى قدر ما يسمح به الضوء الضعيف .

اعاد الجرس رنينه المتضخم الملتاع . أكثر طولا هذه المرة.واستشعرت المرأة اللحظة شيئا ، كما لو تسلل عبر دمها احساس كريه بالدوار . ولامست صدرها وجبينها دون وعي . وعلى الحائط المقابل لها كانت الساعة تدخل الثانية ما بعد منتصف الليل .

قال الرجل :

— لا تخرجي انت . سأتأكد من الطارق قبل ان افتح .

زفرت المرأة وهي تحاول السيطرة على نفسها . ونمتمت بضعف :

— يا الهي ..

— ارجوك . حاولي ان تكوني اكثر هدوءا .

تسلقت نظراتها الجدران بصمت . وبدت عاجزة عن أن تجيب .

تابع الرجل :

— انتظريني هنا .. لن اتاخر .

ودخل الحجرة مرة ثانية . وخرج . ولثانية جمد بصرها على فوهة البندقية الى يمينه . كانت كنقطة كبيرة سوداء . شبه تماما حدقة عين جاحظة ، أو جرحا ما ، ملطخا بالسخام . وبانتباه شديد لاحظت التقلص اللانساني في وجهه . التقبض البهيمي الذي يرتسم عادة على وجه حيوان في حالة افتراس . فتأوهت بحرقة :

— لا .

عوى الجرس من جديد .

— من الافضل ان يستعد المرء لمواجهة شتى الاحتمالات .

— ارجوك . لا تنس ان ولديك يوسف واحمد في الخارج ايضا ..

— لن انسى أي شيء .

وتهدج صوتها .

— حاذر ان تضغط الزناد .. اتوسل اليك ..

— قدر استطاعتي ..

وتركت عيناها النظر اليه .. ومع ذلك كانت خطوانه وهو يخترق الحديقة واضحة الوقع في سمعها ، واضحة كل الوضوح رغم اختلاطها باصوات المدافع والرشاشات والصواريخ ..

ومن باب الردهة المفتوح هجم سيل من الهواء ، سيل كيثف ، يحمل رائحة الموت والبارود والدمار واللحم البشري المحترق ..

« ٢ »

كان الليل قاتما . شديد الحلكة . اسود . بشعا . يتوامض بين الحين والحين نتيجة انفجار صاروخ بعيد ، أو ارتفاع نيران الحرائق في بعض المنازل والمخازن والعمارات . الشوارع ذاهلة . مهجورة . مقفرة من الوجوه والاقدام والضجيج والضحكات . لا شيء يتحرك .. لا شيء سوى صوت الدمار والموت .

رفع يوسف رأسه عن الباب لحظة ، وحملق في صدر اخيه المضطجع الى جواره على الجدار . كان الجرح لاينفك ينزف . وبدت البقعة الواسعة على ثديه الايمن تتسع كما لو كانت في سبيلها الى ان تشمل كل شيء .. الشارع والبيوت والعمارات والبحر .. وبيروت كلها . وكان لون وجهه يتذبذب بغموض .

قال لنفسه « سوف يموت قريبا .. »

وصوب نظرات محرقة اخرى الى الجرس اللعين . ومن جديد دقه بعنف . ضغط الحلمة البيضاء في وسطه بكل قواه وانتظر ، ثم زفر في وجه الليل .

هبت ريح عاتية . سفت الارض . واكتسحت اوراقا وعلبا من « الكارتون » المحروق والملطخ بالطين . ودمدمت بلا مبالاة وهي تتمسح بسور الحديقة القليل الارتفاع ، وبالاشجار والظلمات . وكان الليل لا يزال يسقط باردا . مشبعا برائحة البارود .

فكر يوسف .

« لا ريب انهما خائفان بشدة ، ولهذا لا يقدمان على الاقتراب من الخارج » وجمع شتات نفسه دفعة واحدة . ولطم بكل قواه الباب الحديدي . رن الباب بدوره رنينا مكتوما ، ثم صمت . وتراجع خطوات اخرى ، وبكل ما تبقى له من قوى خائرة اندفع في حركة سريعة ولطم الدفتين المطبقتين باحكام . استيقظ في كتفه ألم شديد . غير ان الباب كان اشد ثباتا من قبل .

فجأة . ومن نهاية الشارع تناهت الى سمعه صيحات وحشية متلاحقة . وراح وميض الرصاص يتطاير عن قرب . وارتفع خيط من الضوء الاحمر الى قلب السماء . وعوى انسان .

« لعلهم يتعقبون اثري . وقد يصلون بين لحظة واخرى . »

وتصاعد في اعماقه دخان من الرعب القاتل . ود لو يصرخ . يعول . يملأ اسماع والديه بزعيق مجنون . أن افتحا الباب . انا يوسف .. ابنكم .. وهذا احمد ، يوشك أن يموت .. انه ينزف دما ايها المجنونان .. افتحا الابواب .. الابواب . غير ان احساسا مقرورا وقاسيا ملأ حنجرته فصمت .. وصمت الكون من حوله للحظة واحدة ، ثم عاد الضجيج .

تراخت ذراعاه ببطء . وزايلته قواه . وانهار على ركبتيه الى جوار اخيه .

« ليس ثمة من أمل الان » .

زحفت الاصوات اكثر . وومضت رصاصتان بالقرب منه . وتذكر لحظة سقوط أحمد . كان ذلك قبل اقل من نصف ساعة . وكانا وقتها قد حوصرا من قبل القناصة خلف متاريس في مدخل زقاق ضيق . وكان أحمد الى جواره . وكان الرصاص يهطل . ثم سمع صوت ارتطام ما . سقوط جسد . وما أن استدار حتى وجده ممددا على الارض .. حدث كل ذلك في ثانية واحدة ، ثانية واحدة ليس غير . وبقي هو كالمصعوق . لا يفهم . ولكنه في النهاية تراجع . حمل جسد اخيه وهرول الى البيت ..

عن بعد ، وفي اقصى المدينة ، كانت الاشجار والحشائش والاعشاب تلتحم فيما بينها . غافلة عن كل شيء . تتشابك في وجه الليل الندي المضبب ، وتتهامس على سفوح الجبال . وكان البحر ايضا ينعقد قليلا في وجه الهواء ، ولكنه سرعان ما يعود الى التسطح الناعم وقد طفت على ظهره ، في الاماكن القريبة من الساحل ، بعض شظايا خشب المخازن والبيوت المحترقة . وبعض العلب البلاستيكية ، أو دمى للاطفال .

جذب يوسف وجه اخيه . واحتضنه بحنان . واختلط بصدره اختلاج انفاسه المضطربة . وكان خرير حنجرته لاينفك يتصاعد . يتصاعد كما لو كان في صراع خفي عنيف .

ـــ أحمد ...

وتناهى اليه انينه المتقطع . انه انين يبكي . يتوسل . يتضرع اليه « اللعنـة »

وقفز واقفا . « لا بد من عمل شيء » . وجمد لحظة يفكر . وواتته فكرة . وتلمس أعلى السور . « ان بامكانه ان يقفز » وزحف شيء دافيء لبشرته . « يا الهي . لماذا لم افكر بذلك من قبل . » ونظر تلقائيا في عمق الشارع الميت . « لا احد يبدو بعد » . احتضن اخاه ثانية . وحمله . وبدفعات متتالية استطاع ان يرقده على الحافة الكونكريتية العريضة . وقفز بدوره .

« ٣ »

ترك الرجل زوجته وسط الردهة . وخرج . استقبله وجه الليل الحزين الباكي . وكان الجرس لا يزال يئز بقوة . ولفترة من الوقت ظل واقفا على عتبة الباب ، يشخص بعينيه في الظلام والاشجار والفراغ القاتم . ثم تنفس بعمق . وضغط ماسورة البندقية بحرارة ، وتقدم صوب الحديقة .

كان الهواء شديد البرودة . وكان يحرك الاشجار السوداء من حوله ببطء . فينبعث من اغصانها صوت همهمة خافتة يتسرب الى اذنيه كأنين جافل لانسان معذب ثم يختلط بانفجارات الدمار .

بتوجس انعطف عن الدرب المستقيم الموصل الى الباب الخارجي . ودخل بين الاشجار . ومشى على العشب الرطب . وراح ذهنه يعمل صافيا على نحو غريب .

« عليه ان ينتظر زمنا هنا . يراقب بريبة وحذر كل شيء . الباب . والاشجار . والسور ، والارض والسماء .. قبل ان يهم بأي عمل . كل ما خارج حدود الجسد في هذا الوقت ، ووسط هذه المدينة ، من الممكن ان يكون قاتلا ، عدوا ، سهما مرديا الى القلب . »

وتقلصت عضلات يديه ، وصعد البندقية الى صدره . وغرس اخمصها في كتفه اليمنى . وحرك اصبع الامان . وانتظر ..

« انه يعرف خططهم جيدا . سمع بها . وشاهدها في اكثر من مكان . في البداية يطرقون الابواب . أو يقفزون من الاسوار المنخفضة . وما ان يصبحوا وجها لوجه مع صاحب المنزل حتى تنهال الرصاصات كالمطر . قد يقيدون افراد العائلة ايضا ، يأخذونهم .. هكـذا .. الى اية جهة يرغبون بها . ولا يتركونهم الا جثثا مشوهة كذلك . »

وطرقت ذهنه صور شتى لحوادث وقعت بالفعل . هنا . قريبا من منزله . قتل . نهب . اغتصاب . وتصاعدت الى قلبه موجة من الغضب الملتهب . لا . لن يدعهم يفعلون ذلك معه . لن يفعلوه ..

في تلك اللحظة ارتطم جسد كبير بالباب . هزه بعنف . وسمع الرجل أزيز الجرس المتواصل داخل ردهة المنزل ايضا . فانسحب خلف احدى الاشجار . ومن مكانه راح يتصنت الى الليل .

ثمة صيحات وحشية تتعالى عن كثب . وثمة لعلعة للرصاص يتطاير قرب البيت . وامتد عبر السماء خيط من الضوء الاحمر الكامد . وعوى انسان ..

تراجع الرجل قليلا واصبح خلف جذع الشجرة بالضبط . وببطء مرتبك امتدت سبابته الى الزناد ، وشد البندقية على جسده بصورة اقوى .

خيل اليه لوهلة قصيرة ، انه سمع صوتا . وتحفز . وبعينين متالقتين مفتوحتين أخذ يحدق أمامه .

كل شيء لا يزال قفرا . ولم تسمح الظلمة السائدة في ارجاء الحديقة بالرؤية كما يجب . وانتظر متوترا . وعاد يرهف السمع . ومرت برهة من الصمت الكثيف . واعقبها هدير المفرقعات كالعادة . ومرة ثانية تناهى اليه صوت قريب . وشعر بكفيه على البندقية تعرقان ، رغم برودة الجو ..

وفي لحظة شاهدهما هناك . على أعلى السور . كتلتين من الظلام الحالك . في البداية تمكن من تحديد شبح واحد . ثم تبين حركة الشبح الاخر . ماجت الاشياء في عينيه . وتوضحت ثانية . وغمره احساس غامض . مزيج من العواطف المتناقضة . شيء كالشجاعة والجبن في آن واحد . او كالاقدام والاحجام معا . وارتفع وجيب قلبه . وجاهد ان يبقى ثابتا اكثر وقت ممكن . غير ان اللحظات كانت تأخذه بعنف . حتى أحس بانه في سبيله الى ان يتجمد في مكانه ، الى جوار جذع الشجرة ، من دون ان يستطيع تحريك ساكن .

وفي ومضة عين . لا يعرف كيف . تحركت السبابة قليلا الى الوراء . مسافة قليلة جدا . ربما أقل من جزء من السنتيم الواحد . ولكنها كانت كافية لتهز كتفه بشدة ، وتضيف صوتا آخر الى آلاف الاصوات المعلقة في السماء . ثم سقط جسدان من أعلى السور في الوقت نفسه ..

بدرة ـ العراق

الندوة الثالثة للكتاب العربي

عقدت في طرابلس بالجمهورية العربية الليبيـــة بين ١٧ و ١٩ نيسان (ابريل) ١٩٧٦ الندوة الثالثة للكتاب العربي بدعوة وزارة الدولة والشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان .

وقد حضرها عدد من ممثلي وزارات الاعلام والثقافة واصحاب دور النشر العربية والمؤلفين والادباء العرب .

وصباح يوم ١٧ نيسان ، افتتح الندوة الاستاذ الطاهر عياد المفوض العام للشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان بالكلمة التالية :

يطيب لي باسم الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان ان ارحب بكم شاكرا لكم تلبية الدعوة لحضور افتتاح الندوة الثالثة للكتـــاب العربي على ارض ثورة الفاتح العظيمة .

سبقت ندوتنا هذه ندوتان ، الاولى عقدت في بلاد المليون شهيد ارض الجزائر والثانية كانت في تونس عام ١٩٧٥م وهذه الان تعقد في مدينة طرابلس . في الندوتين السابقتين طرحت عدة مواضيع للنقاش كان من ابرزها مشاكل توزيع الكتاب وحركة الكتاب وتنشيطه ، وقد راينا في ندوتنا هذه ان تطرح للنقاش القضايا النشرية وقضايا الشباب المعاصر ، على اعتبار ان الشباب عماد الامة ووقودها عند اللزوم ، وبالتالي كان لزوما علينا ان نخصه وان نعطيه عصارة فكرنـــــا وحصيلة تجاربنا . والموضوع الثاني يخص كتاب الطفل والطفل في وطننا العربي مستهدف عن قصد او عن غير قصد من بعض الاخوة العرب وللاسف بكتابات وبكتب لا لزوم لها ان تكون بيننـــا ومعظمكم يعرف ما تطرحه المطابع من كتب تمثل فكرا غربيا معينا ، من مثل تان تان ، سوبرمان ، وميكي ماوس ، وسواها ، والموضـــوع الثالث يخص مشاكل توزيع الكتاب في الوطن العربي وتيسير تداوله وانتشاره بين مواطنينا اينما كانوا .

ايها الاخوة : ان الجمهورية العربية الليبية وهي تعيش مرحلة الثورة الشعبية ترى ان الثورة الثقافية ركيزة للثورة الشعبية ، ودعامة من دعاماتها وتؤمن بقدسية الكلمة الهادفة البناءة لبنـــاء الانسان ، وبالتالي قامت ثورة الفاتح بانشاء الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان لتخدم قضايا الثقافة وقضايا الكتاب وحرية الكلمة ... اننا اليوم مطالبون بان نثبت للعالم اجمع ان الفكر العـــربي قادر على التطور والتفاعل والتأثير والتأثر وان الكاتب العربي لـــه القدرة على العطاء ولا تنقصه الكفاءة ولا المقدرة في انجاز ما يكلف به او ما يؤمن به عن طواعية .

كلمة وزير الدولة

ثم تكلم الاستاذ محمد الزوي وزير الدولة ، فقال :

ايها الاخوة اننا اذ نلتقي اليوم في هذه الندوة اود ان ارحب بكم بين اهلكم وعلى جزء من وطنكم العربي . انكم اليوم وانتم تجتمعون هنا لتتدارسوا مشاكل الكتاب العربي نود ان نقول لكم وبكل صراحة اننا نعلق على اجتماعكم هذا امالا ونرجو ان تقودنا اجتماعاتكم هذه الى وضع اضاءات في طريق نشر الكتاب والثقافة العربية .

اننا نؤمن بان هدف الوحدة العربية ليس هدفا خياليا وانما هو هدف تدعو اليه الضرورات الكثيرة المتعددة والتي تعرفونها .

من اجل هذا نحن نقضي كل ساعاتنا وكل ايامنا نضالا من اجل الهدف واننا لن نلقي السلاح حتى تتحقق الوحدة العربية .

هذا الامل قامت به ثورة الفاتح من سبتمبر على هذا الجـزء من وطنكم العربي ، وقامت طلائع من شبابكم العربي في هذا الجزء بالتصدي للواقع الفاسد ، للواقع الرجعي الاستعماري ، مستلهمة امال وطموحات الشبيبة العربية في كل الامة العربية ، وقامت هذه الطلائع الشابة بتفجيرها ثورة حقيقية وشاملة تصدت لكل الوان القهر والتعسف التي مورست على الشخصية العربية وعلى الثقافة العربية، وكانت هذه اللحظات الاولى قد اوضحت انها عربية اسلامية تستلهم الماضي وتستشعر الحاضر وتعي المستقبل ، تعيه جيدا ولذلك فانها ستضحي بكل غال ورخيص حتى تتحقق امال الشباب العـــربي في ان يعود هذا الوطن الى دور الصدارة ، دور الفاعل وليس دور المتلقي .

ان الدور الذي قام به العقل العربي معروف لديكم جميعا ، قام هذا العقل بدور عظيم اثرى الحضارة الانسانية وقدم اليها ايـــادي بيضاء لا زالت تذكر بكل الاعجاب من اعتى اعداء هذه الامـــة ولكن مرت سنون القهر وسنون العسف على هذه الامة بواسطة الحقـد الاستعماري ، الحقد العنصري الذي ابتلينا به من الاستعمار الغربي ولكننا اليوم ليس امامنا الا النضال والاستماتة حتى نستطيع ان نعيد العقل العربي الى مكانته الحقيقية ، مكانة الصدارة والريادة .

اننا هنا في الجمهورية العربية الليبية عندما اعلنا الثـــورة الثقافية لم نكن نستورد هذا المفهوم من اي امة من الامم ، وانما كنا نستلهم ماضي امتنا وحضارة امتنا وديننا الاسلامي . كنا نستلهم كل هذا ونستشعر بالاخطار التي تحيط بنا والتي تحيط بعقولنا والتي استطاع الاستعمار ان يستخدمها حتى يستطيع ان يستمر في استنزافنا مدة طويلة ، كنا نستلهم تراث امتنا وديننا ، وكنا نعني بالثـــورة الثقافية الاصالة العربية والعودة الى المنابع الحقيقيـــة للثقافـــة العربية في ديننا الحنيف . لم نكن نستورد النظريات وانما كنا نعـــود الى التراث ، والحقيقة ان العودة الى التراث هي عودة الى الاصالة حتى نستطيع ان نزيل كل ما علق بثقافتنا وباذهاننا حتى نحصـــن عقول امتنا وبالتالي نستطيع ان ننطلق الى الامام نبني ونشيد ونثري ونقدم للعالم خدمات جليلة كما قدمناها سابقا .

***

وننشر « الآداب » في الصفحات التالية أهم ابحاث هذه الندوة ومناقشاتها وتوصياتها .

د . حنفي بن عيسى

بعض جوانب من التزوير في الانتاج الفكري

سوف اعالج موضوع التزوير اولا ، على مستوى الاديب المنتج ، ثم على مستوى الناشر .

اولا : عندما نتناول موضوع التزوير في الانتاج الفكري نتساءل بادىء ذي بدء عن مدلول هذه الكلمة . فالتزوير يعني ، أول ما يعني ، الادلاء بشهادة الزور . المسألة اذن متعلقة بالشهادة : فاما ان يصف الاديب الامور كما شاهدها من غير تدليس ، واما ان يتنكر للحق ، ويتبع الباطل ، فيدجل ، ويحرف الكلم عن مواضعه. والمسالة بعد هذا متعلقة بالشجاعة ، والالتزام ببعض المبادىء ، والايمان ، والصبر على المكاره . وذلك ان الادلاء بالشهادة ليس بالامر السهل ، في عالم كثرت فيه المغريات والفتن والمذاهب ، فبات لزاما على الانسان ان يرجع الى ضميره في كل ما يقول ، لكيلا يبيع الكلمة بابخس الاثمان ، ولكيلا يتعصب لاخيه آن ظالما او مظلوما ، ولكيلا يتحيز للاراء والمذاهب ، سعيا وراء المجد الزائل ، او طمعا في نيل المنصب المرموق .

وبناء على هذا ، فان الشرط الاساسي بالنسبة للاديب او المفكر، هو ان يدلي بشهادته في ما يراه ويسمعه ويحسه ، وان تكون هذه الشهادة خالصة لوجه الحق ، وان يكون صادقا في ما يقول . وذلك ان الاديب يتنازعه دائما ميلان قويان : الميل للصدق ، والميل للكذب .

وربما صح للبعض ان يقولوا بان الاديب ميال بطبيعته للتزوير والكذب ، والدليل على ذلك ان القرآن الكريم حذر مندجل الشعراء عندما قال : « والشعراء يتبعهم الغاوون الم تر انهم في كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون » كما ميز « الذين هم بشهاداتهم قائمون » واثنى على « الذين لا يشهدون الزور ، واذا مروا باللغو مروا كراما » وحث على الصدق في الشهادة : « واجتنبوا قول الزور » .

والحقيقة ان تعاطي صناعة الادب مظنة للسوء ، لانها تتعلق بمجال خطير من مجالات الحياة الا وهو : وضع الانسان في الحاضر ، ومصيره في المستقبل . ولذلك فان الاديب قد تسول له نفسه ان يتشبه بالانبياء ، والمرسلين ، وان يدعي بان له صلة بالغيب ، وانه يدرك ببصيرته مالا يدركه الناس بابصارهم ، فكم من اديب ، وكم من مفكر ، يعتقد اليوم في قرارة نفسه بانه « يحمل رسالة » لا تقل خطورة عن الرسالة التي حملها من قبله الرسل والانبياء ، وان بني قومه اذا تنكروا له ولم يعرفوا قدره ، فلان النبي ـ كما يقول المثل الفرنسي ـ لا ينجح ابدا في نشر الدعوة بين ابناء قومه .

ولا ينبغي ان ننسى بعد هذا ان الكلمة في نظر الناس مقدسة ، ولها اصل الهي . وهذا ما يستفاد من قوله تعالى : « وعلم آدم الاسماء كلها » .. فلا عجب اذا وجدنا من ينسب الى الكلمة قوة لا تعدلها قوة ، وهي قوة السحر. وقديما قيل « وان من البيان لسحرا » وبما ان الاديب يتعامل بالكلمة ، فانه مظنة للسوء ، لان تلك الكلمة سلاح رهيب ، يمكن به ان يكشف عن امور قد تضر ابناء قومه او تنفعهم .

وقد جاء في « العمدة » لابن رشيق ما يلي :

« وكانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيها شاعر ، اتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الاطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعون في الاعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ، لانه (اي الشاعر) حماية لاعراضهم ، وذب عن احسابهم وتخليد لمآثرهم ، واشادة بذكرهم . وكانوا لا يهنئون الا بغلام يولد ، وشاعر ينبغ فيهم ، او فرس تنتج » .

فالاديب اذن عظيم القدر بين بني قومه من جهة ، ولكنه من جهة اخرى مرهوب الجانب ، ومظنة للسوء ، لانه معرض لان تتزلق به القدم في دروب الفكر الملتوية ، فيتاجر بالكلمة ويؤول به الامر الى الحالة التي وصفها المتنبي بقوله :

وشغل النفس عن طلب المعالي ببيع الشعر في سوق الكساد

وبذلك يصبح كغيره من المشعوذين ، ومعنى هذا ان تسخير القلم في الافتراء وتزوير الحقائق لا يقل مضرة عن الشعوذة والتدجيل وربما صح القول بعد هذا ، بان تزوير الحقائق ، اذا تعمده الكاتب لغرض في نفسه ، وبقصد تضليل بني قومه ، ليس خطرا على مستقبل الثقافة فحسب ، بل هو كذلك جريمة نكراء يجب ان يعاقب عليها .

على انه لا يجوز ادانة الكاتب والمفكر بمثل هذه السهولة. وعندما نسمع الشاعر البحتري يقول :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغني عن صدقه كذبه

عندما نسمعه يقول هذا ، قد نتوهم ان الكذب والتزوير والافتراء من الصفات اللاصقة بالشعر ، لان الشاعر لا يحكم العقل ولا المنطق ، بل ينساق للعاطفة ويستجيب لها ، ولذلك قيل بان اصدق الشعر اكذبه ، والحقيقة ان كلام البحتري يحتاج الى تاويل ، والى تفسير على ضوء نظرية الاعلام . فهذه النظرية تقول بان الخبر ، مهما توخينا الدقة في نقله وتبليغه ، لابد من ان يطرأ عليه شيء من التغيير (او التزوير) .

والسبب في ذلك ان طبيعة الخبر تقتضي ان يكون مجهولا لدى المخاطب ، ولو كان معروفا لديه ، لكان من العبث توصيله اليه . فالنحاة مثلا يشترطون في الخبر ان يكون نكرة ، ولا يجوز عندهم ان يكون معرفة . ويمكن القول بان الخبر يزداد اهمية لدى السامع او القارىء على قدر جهلهما به . والسؤال المطروح بعد هذا هو السؤال التالي : هل الاخبار التي تم نقلها من مكان معين هي نفس الاخبار التي وصلت الى مكان آخر ؟ ام انه يطرأ عليها في الطريق شيء من التغيير والتزوير ؟

انالاديب ان هو الا صلة الوصل بين الواقع بما يجد فيه من اشياء واحداث وصفات ، وبين القارىء الذي يتلقى عن ذلك الواقع صورة صادقة او كاذبة ، واضحة او باهتة ، امينة او بعيدة كل البعد عن الاصل الذي اشتقت منه . ولما كانت هذه الاشياء والاحداث والصفات مجهولة لدى القارىء اي ان ذهنه خال منها ، فان الاديب سوف يجد نفسه ـ بصورة مقصودة او غير مقصودة ـ ميالا الى التغيير في بعض العناصر المؤلفة لها ، بقصد تشويق القارىء ، واثارة اهتمامه ، وجعله ينسى وطأة الواقع البغيض ويتشوق الى المستقبل المأمول . فهل نلوم الاديب اذ ينمق الكلام ويزخرفه ويضيف بفنه واسلوبه لمسات سحرية تجعلنا ننسى الهموم ، فيعاودنا الامل بعد اليأس ؟ هل نسمى ذلك تزويرا ؟ وهل نقول عنه بانه كذاب بعدما جعلنا نتوهم الجمال والهناء والسعادة ، حيث لا يوجد سوى القبح والهم والشقاء ؟ الحقيقة ان الاديب حتى

ولو فرضنا انه يكذب ، الا ان كذبه مقبول ومستساغ ، بل هو كذب يرتاح له القارىء ، لانه ينقله الى عالم اقل بشاعة واكثر عدلا . واذا كان الاديب لا يحكم المنطق احيانا ، ويرجح العاطفة على العقل فلان العالم الدنيوي الذي نعيش فيه لا يخضع دائما للمعقول ، ولان الاحاسيس المرهفة والهواجس الخفية لا يمكن ان تصاغ في قوالب المنطق الجامدة . ولهذا يمكن القول بان « كذب » الشعراء ، على حد تعبير البحتري ، مقبول ، وان « التزوير » في الاعمال الادبية مقبول ايضا اذا كان لاغراض بلاغية ، ومنحصرا في نطاق الصناعة اللفظية وكان القصد من ذلك كله هو الترفيه عن القارىء و « الامتاع والمؤانسة » كما قال ابو حيان التوحيدي .

لم يتسع نطاق التزوير عند القدامى ، لان طريقة التسجيل الوحيدة عندهم كانت هي الكتابة باليد . غير ان الكتابة باليد ان هي الا طريقة من طرق التسجيل . وكلما اهتدى الانسان الى طريقة توفر له الوقت والجهد والنفقات ، فانه يتخلى عن الطريقة القديمة. فلقد يستعيض عن الكتابة بنوع من انواع الاختزال ، او بالتسجيل على شريط ، او بالضرب على الالة الراقنة او بالسحب على ورق الحرير ، او بالطباعة ، وما الى ذلك من طرق الاستنساخ الاخرى . وقد يستغنى تماما عن الكتابة بنفسه ، فيستعين بغيره من الكتبة لينوبوا منابه .

على ان الكتابة باليد لها فضل على سائر الطرق الاخرى . وذلك انها ـ بعد الصوت ـ الصق طرق التبليغ بنفس الانسان . ان القلم الذي نمسك به بين الانامل ان هو في الواقع الا امتداد لليد . انه ـ وهو يخط على الورق ـ يصدر بصورة مباشرة عن القلب والعقل معا . ولذلك كان للمخطوط عند مختلف الشعوب حرمته بل قدسيته ، ولذلك ايضا نجد ان بعض الوثائق الهامة لا يمكن ان تعتمد الا اذا كانت بخط اليد ، ولعل السبب هو ان الخط ، بتقلباته وتموجاته وتبدلاته ، مرآة لشخصية صاحبه ، فمن الصعب اذن تزويره . اما الكتابة بحروف المطبعة ، فانها تنسج على منوال واحد ، لان جميع الحروف واحدة ، ولذلك يصبح التزوير ممكنا .

وليس معنى ذلك ان القدامى لم يعانوا من آفات التزوير . فلقد كان الادباء في مختلف العصور يشتكون دائما من الانتحال والسرقة والسطو على انتاجهم . غير ان الداء لم يستفحل الا في العصور الحديثة عندما دخل الانتاج الفكري مرحلة التصنيع .

ان انتاج الاديب يظل في حكم العدم اذا بقي حبرا على ورق ، وسطورا سوداء . وذلك ان انتاجه في حاجة الى عملية لاحقة تخرجه من حيز الوجود ، وهذه العملية تسمى القراءة .

غير ان هذاالانتاج لا يصل الى القارىء الا بعد المرور بمراحل ، وفي كل مرحلة منها يتعرض للتغيير، والتحريف، والتشويه ،والتزوير، والنقصان ، واحيانا للنسيان والاهمال فيادراج المكاتب .

والتزوير يقع أول ما يقع على يد الرقيب الذي يقيد حرية الكاتب في التعبير عن آرائه ، ويمارس نوعا من الوصاية على الثقافة ويضع معايير لتقييم الانتاج لا علاقة لها بالفكر . فكم من كتاب حكم عليه بالاعدام ، وحرم منه القراء ربما الى الابد ، بدعوى ان صاحبه تقدمي أو رجعي ، أو يميني أو يساري ، أو مستهتر بالاخلاق ، او مناوىء للنظام السياسي القائم .. وقد يمنع الكتاب لا لسبب سوى لان الرقيب لم يفهمه حق الفهم ، فيضع عليه العلامة الحمراء ، لان ذلك أسلم على أية حال ، وادعى للراحة والاطمئنان .

والحقيقة أن « الرجعية » و « التقدمية » و « النزعةاليمينية» و « النزعة اليسارية » من الشعارات السياسية التي لا يجوز ان تتخذ معيارا في تقييم الانتاج الفكري . ومما لا يناقش فيه أحد ان الادب أصبح شديد الصلة بالسياسة ، وأن الاديب الحق هو من يلتزم بالدفاع عن قضايا الانسان العادلة حيثما كان .. هذا صحيح ، ولا يناقش فيه أحد .. أما وصف الاديب بانه « رجعي »فهذا امر لا يخلو من القدح في شخصه . ومعنى ذلك اننا ، عوضا عن ان ننظر الى فكر الانسان وأدبه بكل تجرد وموضوعية ، فاننا ننظر الى شخصه ، ونلتمس له الهفوات . ولا يسع الاديب في مثل هذه الظروف الا ان يتخذ موقفين : فاما أن يحطم قلمه ، واما أن يمارس نوعا من الرقابة الذاتية أو نوعا من « التزوير الذاتي » اذا صح التعبير ، فيستمر في الكتابة والتاليف ، ولكنه لا يعبر الا عما سيرضى عنه الرقيب .. وعندما نقول « الرقيب » فنحن لا نعني بالضرورة شخصا معينا يجلس وراء مكتب ، يامر وينهي ويتصرف كما يشاء في ميدان التاليف . بل نعني جميع أنواع الضغوط المادية والمعنوية التيءيتعرض لها المنتج من مختلف الجهات لتصرفه عن موضوع معين أو لتقترح عليه موضوعا معينا ، أو لتشعره من طرف خفي بان هذا الفصل أو ذاك من كتابه غير مناسب ، وأنه من الافضل أن يحذف ..

والادهى من كل هذا أن الاديب في كثير من الاحيان لا يختارالمرتقى الصعب ، بل ينساق وراء الحلول السهلة ، فتسول له نفسه الاقتداء بالتاجر والمهندس والطبيب والمحامي ، وغير هؤلاء من أصحاب المهن الحرة . فلقد يقول في نفسه : ان مهنة الادب تستلزم من الذكاء والعناء ما تستلزمه مهنة المهندس والطبيب ، فالى متى أظل محروما من نعم الحياة ؟.. والغريب انه يجد من المجتمع حوله تشجيعا على المضي في هذا السبيل : فاغلب القراء لا يميلون الا لما يسمى بالمطالعات الخفيفة .. والناشر سوف يقنعه بأن الكتب المبسطة ، وروايات الجيب ، والقصص البوليسية ، ومغامرات الجواسيس ، وكتب الجنس والطبخ ، اكثررواجا من المؤلفات التي لا يزال بعض «المتزمتين» يكتبونها ، فلا يجدون من يقرأها .. ورجال الصحافة والاذاعة والتلفزة سوف يشعرونه بانه لا سبيل الى قبول انتاجه الا اذا توفرت فيه بعض الشروط ، وكتب على نمط خاص مقرر سلفا .

اضف الى كل هذا ان الادب اصبح « مصنعا » تماما . فقد تسربت اليه أساليب لم تكن تستخدمالا في مجال النشاط الاقتصادي، كاصدار النشرات المبسطة ، والاقتباس ، والاختصار وما الى ذلك من الاساليب الاخرى .. بل أصبحت تعقد اتفاقيات لشراء حقوق الترجمة قبل صدور الكتاب في اللغة الاصلية ..

ان المبدأ الاساسي الذي ينبغي أن تتقيد به دور النشر هو احترام الشهادة التي ادلى بها الكاتب .. ينبغي أن تظل تلك الشهادة نقية طاهرة لم يمسها انس ولا جان .. غير ان ادب الارتزاق للاسف الشديد هو الادب السائد اليوم . وقل نفس الشيء بالنسبة لصنوه ونظيره ، ادب الاستهلاك ... ولذلك فان انتهاك حرمة هذه الشهادة اصبح من الامور المعتادة التي لم تعد تثير الاستغراب .

ويقع التزوير في شهادة الكاتب :

أولا ـ باستعجال الكاتب ، وفرض شروط مجحفة عليه في التعاقد ، ومطالبته بدفع المخطوط قبل موعد محدد ، مع تهديده ـ ان لم يفعل ـ بالحرمان من حقوقه ، او بفرض عقوبة مالية عن كل تأخير .

ثانيا ـ بالاقتباس أو باصدار نشرات مبسطة أو مختصرة ، سواء من أجل السينما أو المسرح أو التلفزة او غير ذلك من وسائل الاعلام والتبليغ . فلابد في كل هذه الحالات من استئذان المؤلف ، لكيلا يستغل اسمه في ترويج طبعة قد تكون ممسوخة ومشوهة .

ثالثا ـ بالترجمة من غير أن يستأذن المؤلف . وهنا نقع على مشكلة الفوضى السائدة في عالم الترجمة . فهذه المهنة أصبحت في أشد الحاجة الى تنظيم ، والى وضع قوانين ، لكيلا يكثر فيها الدخلاء الذينيقوّلون المؤلفينما لم يقولوا، لانهم يجهلونأسرار هذه المهنة . وحبذا لو يتم انشاء اتحاد المترجمين العرب ، على غرار الاتحادات العربية الاخرى ، وعندئذ يتأتى للجامعة العربية أن تحصي الكفاءات الموجودة في هذا الميدان ، وأن تضع قائمة الكتب التي تستحق الترجمة ، وأن تضع « الدليل العام للترجمات الصادرة في البلاد العربية » لكيلا تتكرر الترجمة ، ولكيلا تضيع الجهود .

رابعا ـ باستخدام مطابع أكل عليها الدهر وشرب ، والاستعانة بمصححين وتقنيين غير أكفاء .. فانتاج الاديب كثيرا ما يصدر عن هذه المطابع في حالة يرثى لها ، هي حالة المسخ والتشويه . فالاخطاء المطبعية لا تعد ولا تحصى، والاسطر منقولة او «مزحلقة» عن مواضعها ، والصفحات مقلوبة الخ ..

خامسا ـ اصدار نشرات خاصة بكل بلد .. وذلك أن بعض الناشرين وأصحاب المجلات يسمحون لانفسهم باقتطاع هذا الجزء أو ذاك من المقال ، واخراجه في الثوب الذي يلائم نظام الحكم في هذا البلد أو ذاك . وهذا هو السبب في أن الباحثين الذين يتتبعون الحركة الادبية والفكرية في البلاد العربية يهتدون في أبحاثهمالى نسخ مختلفة من المقال الواحد ، فيحتارون ، ولا يدرون ما هو الاصل .

سادسا ـ بالاستهتار بحقوق المؤلف المادية والمعنوية : فشروط التعاقد بين الكاتب والناشر تملى من طرف واحد ، وليس للكاتب الا أن يذعن ويخضع لهذه الشروط ... وكم من كتاب يتفق بشأنه على أن يطبع منه ثلاثة آلاف نسخة ، في حين أن الناشر يسمح لنفسه ، من غير حسيب ولا رقيب ، بطبع أضعاف هذا العدد ، مع حرمان المؤلف من حقوقه .

لقد تبين مما سبق أن التزوير يؤدي :

اولا ـ على مستوى الكاتب ، الى تنكره لفنه ، وممارسة نوع من الرقابة الذاتية على عمله ، فيشوه بذلك انتاجه ، ويتخلى عن الصدق في الاداء ، وينساق وراء أساليب الكذب والتزوير .

ثانيا ـ على مستوى الناشر ، الى افساد العلاقة الطيبة التيكان من المفروض أن تسود بينه وبين المؤلف .

ولكن الامر لا يقف عند هذا الحد ، لان التزوير يؤدي في آخر الامر الى افساد العلاقات بين الناشرين أنفسهم .

ويتخذ التزوير هنا أشكالا متعددة :

فلقد تصدر ترجمة جيدة لكتاب ، حتى اذا صادفت من القراء نجاحا كبيرا ، عمد المزور الى ادخال تعديلات طفيفة عليها، وقام بنشرها على هذه الصورة ، مدعيا بانه صنع ترجمة جديدة ، وأنه لا شيء يمنعه من أن يكرر الترجمة.

ولعل اخطر انواع التزوير هو ما درج عليه بعض قرصان النشر من استعمال مطابع الاوفست في السطو على انتاج الغير ، واخراجه مطابقا للاصل ، من غير زيادة ولا نقصان ، بقصد اخفاء هذه الجريمة النكراء . والاغرب من كل هذا أن هؤلاء يجترئون على المؤلف ، وهو لا يزال على قيد الحياة ، وكانه لا توجد قوانين لحمايته من جشعهم، أو ربما افترضوا بأن المؤلف لن يجرؤ على اقامة الدعوى عليهم أمام المحاكم بسبب التكاليف المالية ، والمماطلة في اصدار الحكم ، ومن المؤسف جدا اننرى بعض دور النشر تسارع الى اقتناء الآلاتالحديثة، لا لنشر الثقافة على أوسع نطاق ، ورفع مستواها في البلاد ، بل للاعتداء على ملكية الغير ، وتثبيط عزائم المؤلفين وخنق مواهبهم واسكات اصواتهم .

اننا نجتاز اليوم مرحلة اصبح الاهتمام فيها كبيرابالتراث العربي الاسلامي . وكان من المفروض أن تسود روح التعاون بين دور النشر ، من أجل احياء هذا التراث الذي أصبح من التراث الانساني . الا أننا نجد أن الفوضى السائدة في هذا الباب لا نظير لها . والسبب في ذلك ان روح الارتزاق هو الذي يتحكم في جميع الخطط والمشاريع التي تضعها دور النشر . فهناك مثلا تهافت على بعض الكتب ، كالعقد الفريد ، والاغاني ، ولسان العرب ، في حين أن كتبا أخرى لا تقل عنها اهمية لم تحظ الى حد اليوم بأية التفاتة من طرف دور النشر ، واذا استمر الوضع على ما هو عليه فسوف تظل العشرات من الكتب الثمينة في طي النسيان الى الابد ، وفي ذلك خسارة كبرى للبحث العلمي .

وكان من المفروض أن لا يقع التزوير في هذا الباب ، لان نشر التراث العربي الاسلامي لا يحتاج الى ترخيص من احد ، ولان هذا التراث لا يجوز أن يحتكره أحد . ومع ذلك فان التزوير يقع بالفعل، عندما ياخذ احد الناشرين نسخة حققها غيره ، فيدخل على ذلك التحقيق تعديلات بسيطة ، من حيث شرح المفردات وترتيب الحواشي، ليوهم الناس بانه قام بعمل جديد ، وان الدافع الاساسي لعمله هو احياء التراث والغيرة عليه .

وبعد ، فقد آن الاوان ان تسود روح التعاون بين المؤلفوالناشر، وبين الناشرين انفسهم ، ليس عن طريق عقد الندوات والملتقيات فحسب ، واصدار توصيات يظل اكثرها حبرا على ورق، بل لابد كذلك من اتخاذ خطوات بناءة على مستوى العالم العربي ، من اجل التعجيل بالوحدة الثقافية ، في انتظار الوحدة الكبرى . وهذه الوحدة الثقافية يمكن أن نعجل بها عن طريق عقد اتفاقيات للنشر المشترك ، وتنظيم شبكات التوزيع في جميع انحاء البلاد العربية ، وتبادل المعلومات بشأن الكفاءات المتوفرة في مجال التاليف والترجمة ، والقضاء على الفوضى السائدة في مجال احياء التراث ، وسن قوانين صارمة لمعاقبة المزورين بدون هوادة .

الجزائر

على حسين العبادي

الكتاب والثقافة القومية

يشكل الكتاب العامل الرئيس في التوعية القومية والسياسية لمكانته ودوره في مضمار الحضارة والمعرفة الانسانية ، وكونه رابطة من اقوى الروابط الفكرية التي تجمع شمل الامة وتنقل انتاجها الفكري بالاضافة الى انه المرآة التي نرى العالم من خلالها .

والحقيقة ان العرب رعوا الكتاب منذ زمن بعيد وهو امر تؤكده مجموعات الكتب النادرة التي امتلأت بها خزانات الكتب العربية من المحيط الى الخليج ، ويحتفظ عدد من دور النشر والمكتبات العالمية حاليا باعداد كبيرة منها وهي ثروة علمية ومكتبية لا تقدر بثمن ، وشاهد حضاري على تقدم العلوم عند العرب ، ومدى اهتمامهم بالمعرفة قبل ان تخترع الطباعة وتذلل الصعوبات ، وكانت الكتابة تلعب دورا بارزا في تطوير الحضارة العربية وتناقلها من جيل لجيل ومن بلد لاخر ، حتى غدت ذات اتساع عالمي بفضل العلوم المكتبية التي نشرها الرواد الاوائل للحركة الفكرية العربية ..

ان الوقوف امام هذه الحقيقة غايته الاولى ان نعيد قراءة تاريخنا وان نتذكر مستوى نهضتنا واثارها العلمية على الانسانية جمعاء ، وكمقدمة لاستقراء الواقع الثقافي الحالي بالمقارنة معه ، ثم معرفة مدى مقدرة الثقافة الحالية على مجابهة الفكر المعادي باتجاهاته الاقليمية والشعوبية من جهة ، ومقارعة الفكر الامبريالي والصهيوني من جهة اخرى ، ثم العمل على ايجاد الوسائل والمقترحات الضرورية للارتقاء بمستوى هذا السلاح الاساسي من حيث نشره داخل الوطن وربطه بالتراث القومي للامة والانسانية في العالم ، ووضع الوسائل والاساليب العلمية من اجل ترابط وتزاوج الفكر العربي الحديث وعصرنة هذا الفكر وتعميم واشاعة الثقافة لكل الناس ، وذلك من خلال الاسهام الرسمي العربي المباشر (المادي ، والمعنوي) ابتداء من الغاء الامية وحتى مجانية والزامية التعليم بجميع المراحل بالنسبة للاولى ولبعض المراحل بالنسبة للثانية ، وايجاد تعاون عربي في هذا المجال لان وحدة حركة الفكر القومي تشكل المقدمة الضرورية والاولية للوحدة القومية .

ان هذا التفكير يجعلنا نعي اوليات الطريق في مسالة اعادة احياء التراث القومي والبحث في كنوز الثقافة العربية ، ومتابعة الانجازات الحديثة في مختلف العلوم التكنيكية والانسانية، حتى نستطيع بالفعل مواكبة التطور، والا فان لقاءاتنا ستبقى في اطر المؤتمرات التقليدية، التي لا تعطي القضية الثقافية اكثر من قرارات متحمسة للعروبة والثقافة، وفي بعض الاحيان للنواحي الفنية والتسويقية. وفي تقديرنا ان هذه المسائل مع اهميتها فهي جزء وجيز وبسيط من الموضوعات التي يجب ان تطرح كمشروعات عمل .

في لقاء على هذا المستوى وتحت مثل هذه الشعارات القومية والتقدمية والمعاصرة ، فما هي اذا موضوعاتنا الاساسية التي نراها بمستوى الشعارات القومية والمصيرية للامة العربية ؟.

ان المدخل هو البحث الجاد ، العلمي والعملي ، في موضوع ازمة الكتاب العربي ، وهذا الموضوع يجرنا الى بحث ازمة الثقافة العربية المعاصرة . ومن خلال هذا المدخل يمكن ان نصل معا الى مركزة القضايا وبحث جزئياتها وابعادها وترابطها بموضوعية علمية لا نشك بقدرتنا مع بعض على ايجاد المخارج الصحيحة والعملية في قضية كلنا نشعر انها مهمة ومصيرية ، وانها تشكل اليوم اهم جبهاتنا الكفاحية ، في مرحلة تعتبر فيها الجهة الثقافية معيارا لتقدم الامم ، ومن خلال مكانتها وقوتها وصلابتها وعلميتها تستطيع مجابهة الاعداء القوميين ، من امبرياليين وصهاينة واعداء عنصريين للعرب والحضارة العربية والمستقبل العربي ..

ان مسالة بهذا الحجم تتطلب بالفعل ان تكون ميدانا اساسيا للبحث في هذه الندوة حتى وان اختلفت العناوين ، الا ان نتائج كل عنوان لابد وان تلتقي في الهدف المركزي الذي نعنيه جميعا في هذه الندوة وفي ندواتنا القادمة . ولاجل ان ندخل واضحين ، لابد ان نبوب الموضوع اعتبارا من مسالة احياء التراث ومرورا بمشاكل الكتاب والمعرفة والاساليب المتبعة في اقطارنا لمجابهة التخلف والشروط التي نطمح لتوفيرها مجتمعين لخدمة الثقافة العربية وتقدم الكتاب العربي في الميادين كافة ، وجعل هذا السفير في العالم والكادر المتقدم في مجتمعنا على مستوى لائق بامتنا وبالطموح الحضاري والعلمي الذي نريده لها جميعا وما مثلته في الماضي .

اولا ــ مسألة احياء التراث القومي للامة العربية :

ان موضوع احياء التراث يتطلب توفير وسائل عملية وتنسيقا شاملا بين اقطار الامة العربية من خلال الجهات الرسمية المعنية ودور النشر . في مقدمة هذه الوسائل البحث المتواصل عن المخطوطات العربية داخل الوطن وخارجه والعمل على تحقيقها ونشرها بعد تنقيحها والتعليق عليها ، بما يخدم الثقافة .

وفي هذا المجال من المفروض تشكيل هيئة عربية موحدة لجمع المخطوطات واعادة تحقيقها ونشرها ، وفي المقدمة الكتب التي توضح دور العرب التعليمي في طرق ابواب الاجتماع والتاريخ والفلسفة والطب والكيمياء والتراث الادبي . لان تاخر نشرها قد يؤثر على النشر بضياعها او تلفها ..

وفي هذا المجال نتبع منهجا موحدا لترتيب التحقيق في الموضوعات ويوظف جهد غير اعتيادي متعاون بين كل من تعنيه الثقافة العربية واعادة احياء التراث ..

والطريق الثاني لاحياء التراث بغير التحقيق الفردي هو باعادة كتابة التاريخ بمنهج معاصر وعلمي يتناسب والتطورات العلمية الحديثة وبما يخدم الثقافة المعاصرة ، ويؤكد تقدم المعرفة العربية ودورها في الحضارة الانسانية ، واهمية ذلك في تربية جيل الثورة العربية الجديد على ماضي أمته الخالد حتى يصبح جيلا يعتز بذاكرته القومية ويتمسك بثقافة تلتصق بلحم الارض وجسد التاريخ القومي لامته ، ومن خلال هذه التربية يعي تمام الوعي ابعاد الصراع مع الامبرياليين والصهاينة وتترسخ في نفسه مبادىء وقيم جديدة وذات صلة بتراثه ونضال امته ، من اجل الخير والانسانية وتقدم البشرية الحضاري والعلمي . وهذه اهم قضية يمكن ان نقدمها للجيل العربي الذي نريده جيل معرفة وعلم ورسالة ومبادىء حضارية وانسانية نبيلة ..

ثانيا ــ أزمة الكتاب العربي :

ان هذا الموضوع بالحقيقة ، يجرنا الى الموضوع الاساسي الذي يجب ان يكون محور نقاشنا وهو ازمة الثقافة العربية ، وكما قلنا ان جذرها الاساسي هو بداية فقدان الصلة بالتراث الثقافي القومي ، وعدم تكامل نشره وعدم اعادة قراءته وفق منهج معاصر ومتكامل ومنسجم مع التطور العلمي وصراع الامة مع اعدائها ، والشيء الاخر

هو ما تعرضت له الثقافة العربية من استلاب نتيجة الهجمة الاستعمارية وعصور التخلف والانحطاط وما افرزته تلك العصور والحالات على الثقافة القومية حيث نشأت قيم وعادات وتقاليد واعراف ، وبالتالي ثقافات سائدة دخيلة نقرها ونعتز بها وكأنها ثقافتنا وتاريخنا وعاداتنا بينما هي شواهد واوتاد استعمارية لا تمت لتراثنا وتقاليدنا بصلة ، وهي في كل قطر تختلف عن الاخر من حيث المنهج والمضمون رغم اتفاقها على طمس حضارتنا وتزييف اخلاقنا وارباك مسيرتنا ، ولا تجتمع على شيء مثلما تجتمع اليوم على هدم رسالة الامة الوحدوية وقيمها الانسانية واخلاقيتها ومحاولات جرها شيئا فشيئا الى شواطىء غير التي اعتدناها وسار عليها اجدادنا في كفاحهم من اجل الحق والتقدم الانساني .

وبحكم هذه الحالة من الضياع الفكري والتمزق العقيدي نشأت مدارس ومذاهب وقيم معرقلة ومعيقة لحركة الثقافة القومية الاصيلة ومنابعها المتقدمة ، وكان لابد ان ينشا عن ذلك التمزق حالات ثقافية في كل قطر حسب واقعه وقدرته على المقاومة من جهة والمدة الزمنية الاستعمارية وطريقة الاستعماريين واساليبهم الثقافية المضللة واهدافهم من وراء ذلك من جهة اخرى . بالاضافة الى الحالات التي تولدت بعد تشكيل الانظمة السياسية المحلية في الاقطار العربية في مرحلة ما بعد الاستقلال ودور هذه الانظمة في وضع اسس للثقافة القطرية ، اكثرها بعيدة عن الثقافة القومية الموحدة ، لا بل ان معظم الاساليب كانت ولا تزال لمنع تزاوج عناصر الثقافة القومية بين الاقطار العربية ، ولذلك نشأت مرة اخرى حالات ضياع وتمزق عقيدي ذي بعد قطري وسياسي واجتماعي واقتصادي ، وهذه اكثر خطورة من اي حالة تعرضت لها الثقافة في اية امة من الامم حيث اصبحت جزءا من تقاليد الانظمة السياسية في الاقطار العربية ، وبذلك فان معارضتها تقع في اطار معارضة النظام السياسي . وان العمل على بناء ثقافة موحدة للامة يعني الغاء الاساس الثقافي للقطرية والاقليمية وبداية شيوع ثقافة الوحدة العربية ، كما ان دخول المبادىء التقدمية والاجتماعية الحديثة ايضا ، لعب دورا في زيادة تمزق الثقافة لاختلاف المناهج ، واصبح الحظر على تنقل الكتاب اشد من اى مرحلة اخرى بالاضافة الى الاجراءات الجمركية والرقابة والنقل والطبع وحركة التوزيع .. الخ من العوامل .

اذن فان الازمة ازمة ثقافة وازمة الثقافة وليدة الاستعمار والتخلف ودخول الافكار والمبادىء الغربية على التراث القومي والمعادية للحضارة وتداخل خطة الثقافة في البناء السياسي والاجتماعي ، بالضرورة طبعا ، وهذا يعطي للانظمة المبررات السياسية والاجرائية لمنع حركة الكتاب وبالتالي وحدة الثقافة خوفا من نتائج الاتجاه التوحيدي والمعاصر للفكر العربي ، لانه لابد وان يحدث تغيرا في العلاقات الاجتماعية ويبلور اتجاهات وحدوية في صفوف الجماهير ويكون سدا ضد الافكار المعيقة وكل ما هو معارض للفكر العربي المعاصر والمرتبط بالتراث الاصيل للامة .. اذا كانت كل هذه الاهمية للثقافة في مصير مستقبل الامة ، وتقدمها ، فمن الاجدر ان نجعل لمسالة الكتاب ومستقبل عموم حركة الثقافة والنشر مستوى جديرا بها في ندوتنا هذه التي تبحث في الكتاب العربي من مختلف جوانبه . ذلك اننا لا نرى اى فصل بينه وبين الثقافة القومية المعاصرة والتراثية .. فبالاضافة الى الازمة الفكرية والازمة في اعادة نشر وقراءة التراث هناك مشاكل ومعوقات اخرى جديرة بالبحث ، بل هي جزء من موضوعاتنا هنا لابد ان نتداولها بعمق لنصل الى تحديد الهدف ووضع المؤشرات العلمية ولتجاوز ما يمكن تجاوزه في هذا المجال .

النقطة الثانية : ان ازمة الكتاب لا تزال في جزء منها بسبب الطبع حيث تعاني من التخلف في الوسائل والسرعة رغم دخول الطباعة الحديثة في عدد من الاقطار العربية ، بالاضافة الى القصور الفني في الغلاف والتصحيف والتبويب ونظافة الطبع ودقة الترجمة واعتماد النهج العلمي والبحث ، وفي هذا المجال يمكن ان يتم تنسيق طباعي عربي في الاقطار المتجاورة لتحقيق التكامل الطباعي ولتامين طبع الكتب العربية للاقطار التي تعجز مطابعها عن انجاز المطلوب والعمل على وضع توصيات عملية في هذا المجال ، ومنها الاطلاع على الطباعة ومستواها والتدريب عليها لدى الدول المتقدمة لاهمية ذلك في حل ازمة الطباعة التي يعاني منها الكتاب العربي ..

النقطة الثالثة : وسائل النقل ، اكثر من مرة تم اتخاذ قرار لتسهيل عمليات تداول الكتاب وخاصة في مجال نقل المطبوعات بالجو وتكاليف ذلك وما يجره ارتفاع الاجور على ثمن الكتاب العربي وبالتالي على عمليات التوزيع والتنقل بين الاقطار العربية .. وهذا يعتبر اكبر عائق لانه يحد من عمليات التصدير والاستيراد ويرفع الاسعار الى مستويات خيالية لا يستطيع المواطن العربي اقتناء الكتاب بسببها، ولهذا فان عمليات الشراء ستكون قليلة مما يؤدي الى حرمان المواطنين من القراءة ، وعرقلة توحيد الثقافة وتزاوجها بين الاقطار العربية ولذلك يجب ان يكون اتجاهنا مكررا لتخفيف اجور النقل الجوي على الكتاب لاهمية ذلك في دعم الكتاب العربي ووحدة الفكر القومي الحديث ، او بايجاد الوسائل الخاصة لتسهيل مهمة النقل وتخفيف اجورها .

٤ ــ الرقابة والاجراءات الجمركية :

نحن لا ندعي ان بالامكان الغاء الرقابة على المطبوعات العربية ولكن نرى جهدا مكثفا يجب ان يبذل في هذا المجال وخاصة على كتب العلوم التكنيكية والانسانية وكتب التراث والفنون والاداب والكتب التي تبحث في تاريخ الامة ورسالتها الحضارية وحركة القومية العربية ومعارك المصير القومية على الاقل كمقدمة لالغاء الرقابة على الكتاب العربي المتداول بين الاقطار العربية ، وكذلك الاجراءات الكمركية على الكتاب التي تضعها بعض الاقطار العربية او على مصادر الكتب كالورق والحبر الى اخره .

* * *

الكتاب في ظل ثورة ١٧ تموز في القطر العراقي

منذ ان بدات الثورة بتصحيح المسيرة الثقافية في القطر تبعت نهجا قوميا وتقدميا في مجال الثقافة ، وهذا النهج استهدف ارساء تقاليد ثقافية ذات بعد قومي وحضاري يهدف الى تقنين حركة الثقافة وفق الاتجاه القومي والانساني التقدمي .. اي بابعاد الافكار والمبادىء التى تعيق حركة تقدم الرسالة العربية الجديدة التي تهدف اليها الثورة ، وفي هذا المجال اعتمدت صيغ جديدة لاعادة صياغة الفكر العربي في العراق ، وهذه الصيغ تبدأ من اشاعة المعرفة وفق المنطلقات القومية والانسانية وتمتد اكثر الى الغاء اسباب التخلف وبناء اسس ثقافية ضرورية لنهضة العراق ولتدعيم نهضة الامة بشكل كامل ..

وفي هذا المجال اتخذت الثورة الخطوات التالية :

اولا : في مجال المؤسسات المسؤولة عن النشر والتوزيع :

اسست الدار الوطنية للنشر والتوزيع والاعلان لتقوم بمهمة دعم حركة التوزيع وتعضيد المؤلفين والاشراف على عملية عرض ونشر الكتاب العراقي وجلب الكتاب العربي للقطر ، كذلك الكتاب العلمي العالمي ، فقد سارت في هذا المجال بخطوات ملموسة لها أثر كبير على الشارع الثقافي في العراق وذات علاقة واسعة ومتطورة مع الاقطار العربية تمكنت بواسطتها من جلب أكثر من مليونين ونصف مليون نسخة خلال عامين فقط ، وصدرت ما يقارب الربع مليون نسخة من الكتب العراقية للاقطار ، تونس ، المغرب ، الجزائر ، مصر ، الخليج العربي ، لبنان ، سوريا ، الاردن ، واسهمت في وضع أسس سليمة لتزويد الكتاب وتصديره تتناسب ومكانته الثقافية والعلمية والحضارية ، وقد روجت للكتاب بعشرات المعارض المحلية واشتركت بمعظم المعارض العربية والعالمية وهي تعمل جادة على دراسة سوق الكتاب بآفاق متحضرة وجديدة ، وقد وقعت جملة من الاتفاقيات مع دور النشر العربية وهي مستعدة لتطوير علاقاتها بما يضمن تداول الكتاب العربي وتيسير وصوله الى القطر وايصال الكتاب العراقي الى كل طالبيه في الوطن العربي ، والاتجاه الاخير لدى الدولة والثورة هو حصر استيراد الكتاب بالدار الوطنية وكذلك تصديره لضمان سلامة خط التوزيع والاستيراد ولاخراج الكتاب من اطار المتاجرة الرخيصة التي يتعرض لها،

وتعمل في ذات الوقت على تخفيض اسعار الكتب العراقية والعربيـــة لاشاعة الثقافة ودعم حركة التاليف والنشر وتقدم المكتبات ، وهي في هذا المجال بصدد تنظيم المكتبات التجارية والاشراف عليها ومراقبتها حتى تستطيع تحويلها الى دور معرفة واطر صالحة لخدمة المجتمع والثقافة القومية التقدمية اجتماعيا وانسانيا ، وللحد من اساليب التزوير والتلاعب بالكتاب سعرا وطبعا وتداولا ، وقد وفرت للدار امكانيات مناسبة ودعم واسع من قبل الثورة لدعم الكتاب وزيـــادة الكميات المستوردة من الكتاب العربي والعلمي العالمي .

ثانيا : في مجال النشر :

ارتفعت معدلات النشر من الكتب غير المدرسية الى نسب تكاد تكون خيالية قياسا الى السنوات السابقة حيث تم طبع أكثر من الف وثمانمائة عنوان في هذا العام ، (٨٠٪) طبعت بمطابع الحكومة وبنسبة تزيد على النصف طبعت على نفقة الدولة أو مقابل تعضيد يزيد على (٦٠٪) من سعر الكتاب . وقد وزعت معظم هذه العناوين بواسطة الدار الوطنية ، كانت موضوعاتها تتوزع على العلمية والتراثية والادبية والسياسية والصناعة المكتبية والعلوم التطبيقية .. الخ، وكان أكثر من (٧٠) عنوانا لمؤلفين عرب من فلسطين ومصـــر وتونس والكويت واليمن وسوريا والسودان . وبالنسبة لمؤلفات الكتاب العرب طبعت على نفقة وزارة الاعلام ، وقد وضعت الخطة لتطوير الجهـــاز الطباعي العراقي حتى يستطيع الاضطلاع بالمسؤوليات الملقاة على عاتق العراق الطباعية وقد استحدثت مؤسسة آفاق للنشر والطباعة ووضعت المخططات للمجمع الطباعي التابعلوزارة الاعلام واصدرتقانون المطبوعات لحماية حقوق المؤلفين العراقيين والعرب من التزوير .

ثالثا : الكتب المدرسية ومجانية التعليم :

من أجل ترويج المعرفة والتقدم الحضاري والغاء التخلف وضعت مسالة مجانية التعليم موضع التنفيذ في العام الماضي وهذا العام ، حيث تم طبع ملايين الكتب والكراسات التي تحتاجها المراحل الدراسية من الابتدائية وحتى الجامعة ، قدمت الى الطلاب مجانا ، كما أعفي الطلبة من أي رسم خاص بالتعليم ووفرت كل الامكانيات لتقدم التعليم واشاعته ، كما تم تطبيق التعليم الاجباري للمرحلة الابتدائية فيعـدد من محافظات القطر للاطفال من (٧ الى ١٠) كمقدمة لمنع توســـع الامية وللارتفاع بمستوى المتعلمين . وقد لاقت هذه الخطوات في مجال المعرفة والتعليم صدى كبيرا لدى المواطن العراقي والعربي المقيم في العراق او القادم لغرض الدراسة فيه ..

رابعا : مكافحة الامية :

شنت الدولةحملة واسعة وجندت لهذه الغاية طاقات غير اعتيادية وامكانات مادية ومعنوية كبيرة وأجهزة ووضعت سلسلة من الاجراءات والعقوبات الادبية والمادية من أجل انجاح حملة محو الامية . وقـــد تم تعاضد جهود المؤسسات الشعبية واجهزة الدولة والشـــباب ومؤسسات التعليم في هذه المعركة وحظيت بدعم وبتوجيه أعلى سلطة في الدولة ومتابعتها بشكل يكاد يكون يوميا ومباشرا وقـــد تحققت نجاحات غير متوقعة رفعت نسبة التعليم الى حد يزيد عن (٤٠٪) بينما كانت النسبة لا تزيد على (٢٥٪) ولا تزال الوسائل الترفيهيـــة والاجراءات سارية المفعول لمحاربة الامية وازالة اسباب التخلف . وكل هذا العمل مترابط ومتداخل ويصب في قناة واحدة هي الثقافـــة والمعرفة . وبالتالي الكتاب وايجاد المجالات الواسعة له لانه الكادر المتقدم والمقيم في البيت لتربية الرجل والمرأة والاطفال بأحدث مبتكرات المعرفة الانسانية والعلمية والاجتماعية والسياسية ، ولكونه الاطار الاكثر استقرارا ونضجا في اطر الثقافة العامة للمجتمع .

خامسا : في مجال ادب الاطفال :

ان رعاية الامومة والطفولة تعتبر المقدمة الاساسية لبناء مجتمع جديد وان من اولى مسلمات الرعاية توفير متطلبات التربيـــة الحديثة للاطفال والقوانين التي تحمي الام وتمطيها المكتسبات العصرية وتقر بانسانيتها ، وقد قدمت الثورة في هذا المجـــال خطوات كبيرة حيث انشات مؤسسة لاصدار مجلات الاطفال وقصص وحكايات تتناسب ومستوياتهم وتعتمد للاتجاه القومي والانساني في تربيتهم ، كما اتاحت الفرصة للدار باستيراد الكتب التي تراها مناسبة من دور النشـــر العربية والتي تتوافق نظرتها للطفولة مع توجه الثورة العربيـــة ومسيرتها في بناء الانسان الجديد التقدمي . ومع انها لا تزال في اول الطريق ، الا انها قطعت اشواطا لابد وانها ستكون الاساس لميلاد ادب اطفال قومي وتقدمي ، وملخصا لكل ذلك كانت وجهة نظر وزارة الاعلام الاستفادة من الكد الهائل الذي ينتجه الفكر الانساني في معظم انحـاء المعمورة جهدا متصلا ومكملا بهدف الانتقال من الجهل الى المعرفة ،وفي هذا المجال اصبح أي جهد يبذل ، لابد وان يدخل في مجال نقلالانسان من الجهل النسبي الى المعرفة النسبية ، وبشكل تدريجي وبسلسلة متصلة الحلقات من الانتصارات اليومية على الجهل ومسبباته في كافة الميادين ، ولذلك نرى ان على ندوتنا ان تعمـل على الاستفادة مـن الجهد الانساني في مجالالمعرفة من جهة واحياء التراث من جهة اخرى، والعمل على وصل الحلقات بحركة فكرية جديدة ومعاصرة لخدمة حركة الثورة العربية .. وبناء الانسان العربي النموذج الذي نناضل من أجل ميلاده ليوحد هذه الامة ويقدم السعادة والعدالة لكل الكادحين .

علي حسين العبـادي

مدير العلاقات والمتابعـة في

الدار الوطنية للنشر والتوزيع والاعلان بالعراق

د . عمر التومي الشيباني

دور النشر العربية وميول الشباب

مقدمـــــة :

لقد اصبحت الكتب والمواد المطبوعة الاخرى في هذا العصر من اهم وسائل الاتصال الفكري ووسائل الاعلام والتثقيف العام ووسائل التعليم والتدريب والتربية المستمرة والتوعية الثقافية والاجتماعية والصحية والسياسية التي تلجأ اليها وتستخدمها وتدرك اهميتهـا الدول والمجتمعات الحديثة على اختلاف ثقافاتها ونزعاتها ومستويات نموها . واقطارنا ومجتمعاتنا العربية لا تخرج عن هذا الاجمـاع الانساني العام .

وفي اعتقادنا أن اهمية الكتاب والوسائل المطبوعة الاخـرى تزداد في العالم يوما بعـد يوم ، وذلك كلما تقدمت الشعوب ثقافيـا واجتماعيا واقتصاديا ، وملكت حريتها واستقلالها السياسيين ، وانتشر التعليم بين صفوف ابنائها واصبحت الكلمة المكتوبة وسيلة سائدة للاتصال الفكري فيها ، واصبح ابناؤها لهم مـن الوعي مـا يجعلهم يقدرون الثقافة والتعليم ويضفون على العلم والثقافة العامة القيمة الجديرة بهما . ولم يقلل من اهمية الكتاب والمطبوعات الاخرى كوسائل للاتصال والاعلام والتثقيف العام والتوعية والتنوير والتعليم والتدريب والتربية المستمرة ـ ما اتت به التقنية الحديثة من وسائل مرئية ومسموعة اخرى من صور وملصقات وشرائح ملونة واشرطـة واذاعة مسموعة واذاعة مرئية . فهذه الوسائل الحديثة بالرغم مـن انتشارها ورخص ثمنها النسبي ، وبالرغم من ان بعضها يستخدم الالوان المثيرة والصور المعبرة او يستخدم اكثر من حاسة من حواس الانسان كالاذاعة المرئية التي تستخدم كلا من السمع والبصر فانها لم تستطع ان تقلل من اهمية الوسائل المكتوبة والمطبوعة فضلا عن ان تقضي عليها . فالكتب والمجلات والصحف وغيرها من الوسائـل المكتوبة والمطبوعة لا تزال لها القدرة على منافسة ومزاحمـة وسائـل الاتصال الاخرى ولا يزال لها من الخصائص والمميزات ما يزيد من هذه القدرة ويمكنها من المحافظة على اهميتها . ومن هذه الخصائـص والمميزات ، رخص ثمنها وصغر حجمها نسبيـا ، وخفـة وزنها ، وسهولة استعمالها ، وصلاحيتها للاستعمال في كل زمان ومكان وفـي جميع الظروف والازمان ، وعدم مضايقة استعمالها لغير المستعمل لها وصلاحيتها كمصدر لكثير مما يسعى القاريء للحصول عليه من معارف ومعلومات وافكار وحقائق وتجارب وخبرات في شتى ظروف الحياة .

ضرورة الاهتمام بصناعة الكتاب والمواد المكتوبة الاخرى :

واذ كان للكتاب المواد الاخـرى ما ذكـرنا مـن اهميـة في الاعلام وتثقيف وتوعية وتعليم وتدريب المواطنين القادرين على قراءة واستعمال وفهم محتويات هذه الوسائل والمواد ، فانه من الضـروري الاهتمام بهذا النوع من الوسائل ، والعمل المستمر على تحسينه وتوجيهه الوجهة المرغوبة التي تزيد من فائدته وتأثيره الطيب ومـن الاقبال عليه من القادرين على الانتفاع به .

ومن اهم جوانب الاهتمام بهذا النوع من الوسائل التعليميـة والتثقيفية تدعيم صناعة الكتاب وحركة النشر والطباعة ، والتشجيع المادي والمعنوي لدور النشر والطباعة والتوزيع ، والتخطيط السليم لعملها ونشاطها ، والتوجيه والتقويم المستمران لهذا العمل والنشاط بما يضمن سيرها في طريق الاهداف التعليمية وحاجات وميـول واهتمامات ورغبات واذواق واتجاهات وقدرات مختلف فئات العمـر من القراء الذين تتجه لهم تلك الدور والمؤسسات بانتاجها المطبوع .

ضرورة التوجه الى كل فئة من فئات العمر بما يناسبها من الكتب والمواد المطبوعة الاخرى :

فدور نشر الكتاب وتوزيعه هي مؤسسات ثقافية واعلامية قبل ان تكون مؤسسات تجارية ، وما يقدم لمساعدتها وتدعيمها من مال وجهد وغيرهما يجب ان يعتبر نوعا من الاستثمار في مجال التنمية البشرية وهي لتكون في المستوى المطلوب لها ولتحقق لها « الوظيفة » فـي اعمالها لابد ان يكون عملها مرتبطا بالوظائف والاهداف التعليميـة والتثقيفية والاعلامية المرسومة لها ، كما انه لابد ان يكون عملهـا متمشـيا مع خصائص وحاجات وميول واهتمامات مختلف فئـات العمر التي تتوجه اليها بمطبوعاتها ومنشوراتها .

وبالنسبة للشق الثاني بالذات الذي يهمنا في المقام الاول مـن القضية السابقة والذي ينبه الى ضرورة تمشي ما تنتجه دور النشر من مطبوعات مع طبيعة القراء على اختلاف اعمارهم ومسـتويات نضجهم ، فانه لا يفوتنا التنبيه الى حقيقة من الحقائق التي اكدتهـا الدراسات التربوية والنفسية والتي مفادها : انه كلما كانت مواد وموضوعات القراءة متمشية مع العمر الجسمي والعقلي للقاريء ومع خصائصه الجسمية والعقلية والانفعاليـة والاجتماعية ، ومـع مستويات نضجه الجسمي والعقلي والانفعالي والاجتماعي ومـع مستوى تحصيله العلمي والثقافي ، ومع حاجاته النفسية والاجتماعية والعقلية ومع ميوله واهتماماته ورغباته كلما زاد اقباله على القراءة ، فالشخص يجد نفسه عادة مدفوعا الى قراءة ما يظن انه يساعد علـى اشـباع حاجاته وارضاء ميوله ورغباته وفقا لمرحلة العمر التي يمـر بهـا ، سواء أكانت هذه المرحلة هي مرحلة المراهقة والشبـاب او مرحلة الرشد او مرحلة الشيخوخة . فاذا ما اخذنا مرحلة المراهقة والشباب التي تمتد في الفترة ما بين سن الثانية عشرة والخامسـة والعشرين تقريبا وحاولنا ان نبحث عن الحاجات والميول العقليـة البارزة فيها ، فاننا نجد ان من بينها الحاجة الى تحقيق الاستقلال العاطفي التدريجي عن الوالدين والحاجة الى تحقيق الذات وتحقيق المكانة الاجتماعية والحاجة الى تحقيق القبول لدى الجنس الآخـر ، والحاجة الى التكيف مع التغييرات الجسمية والعاطفية السريعـة التي يمر بها الشخص في هذه المرحلة ، والحاجة الى التقـدير ، والحاجة الى النجاح ، والميل الى قراءة قصص البطولة والشجاعة ، والقصص العاطفية ، وكتب المغامرات والمغازي والفتوحات وتراجم الشخصيات والابطال ، واخبار الحروب والاكتشافات العلمية ، وما يعالج المشكلات العاطفية والدينية ، والفكرية التي يحس الشبـاب بمثلهـا . (1)

ومن اول مقتضيات التسليم بهذه الحاجات والميول لـدى الشباب ان تؤخذ في الاعتبار فيما يقدم اليهم من كتب ومطبوعات وفي عمليات التخطيط والتوجيه والمراقبة والتقويم لاعمال دور النشر .

ضرورة دراسة خصائص وحاجات وميول الشـباب العـربي :

والتسليم بضرورة مسايرة ما تقدمه دور النشر مـن كتب ومطبوعات اخرى لخصائص وحاجات وميول الشباب ، يجرنا الـى التسليم بضرورة اخرى ، وهي : ان تحاول هذه الدور باستمرار ان تكشف بنفسها بالطرق العلمية المقبولة او ان تتعرف علـى تلك الخصائص والحاجات والميول ، متعاونة مع المؤسسات التربويـة

والاعلامية الاخرى ومع مؤسسات البحث العلمي في البلاد في الكشف او التعرف على تلك الخصائص والحاجات والميول ومستفيدة من الدراسات المناسبة التي اجريت داخل البلاد وخارجها في هذا الميدان ، وبدون الكشف او التعرف على هذه الامور بالطرق العلمية الممكنة يصبح عمل دور النشر في خدمة الشباب رجما بالغيب وغير قائم على اساس علمي .

ومما يزيد من عملية الاساس الذي تبنى عليه دور النشر تخطيطها لنشاطها في مجال الطباعة والنشر من اجل خدمة الشباب ان تكون الابحاث والدراسات التي اعتمدت على نتائجها في تخطيطها لاعمالها ـ قد تم اجراؤها في الوطن العربي لانها ان تم اجراؤها خارج الوطن العربي لا تكون لها قيمة تخطيطية كبيرة ، لانها تمت في مجتمعات تختلف عن المجتمع العربي في درجة تقدمها الاقتصادي والاجتماعي ، وفي خلفيتها الثقافية ، وفي خصائصها الثقافية والحضارية ، وفي احتياجاتها ومطالبها وتوقعاتها من افرادها ، وفي قيمها وعاداتها وتقاليدها التي تسعى الى تخليدها والى نقلها الى اجيالها الناشئة والقادمة .

والدراسات النفسية التربوية تؤكد لنا ان الشباب في اي مجتمع يتاثر في خصائصه وحاجاته وميوله بالبيئة التي تربى فيها وبطبيعة وثقافة وقيم المجتمع الذي عاش فيه وعلى هذا الاساس فانه لابد من التسليم بأن شبابنا العربي يختلف في خصائصه وحاجاته وميوله وقيمه عن شباب اي مجتمع غربي ، او شرقي سواء أكان أمريكيا ، أو انجليزيا أو فرنسيا او يابانيا او صينيا .

وتسليمنا بهذا يقتضينا الا نقيس شبابنا العربي على نظرائه في الخارج ونغفل حقيقة اساسية وهي : انه ليس من الضروري ان يميل الشاب الى مثل ما يميل اليه الشاب الامريكي او الانجليزي ، فقد يتفقان وقد يختلفان ، وربما اتفقا في بعض النواحي واختلفا في البعض الاخر ، واي تخطيط لا يراعى هذا الاختلاف يكون تحليله غير صحيح رغم مظهره المنطقي .

قلة ما يوفر من دراسات عربية حول ميول القراءة لدى الشباب :

ولكن بالرغم من تسليم علمائنا العرب بضرورة اجراء الدراسات الخاصة بخصائص وحاجات وميول القراءة لدى شبابنا العربي ، وبالرغم من شعورهم بالحاجة الماسة الى نتائج مثل هذه الدراسات في تمثل الاوساط الاجتماعية المختلفة ، وبالرغم عن تجربة البحث والتخطيط العلمي السليم لرعاية وتربية وتثقيف وتوجيه ذلك الشباب وبالرغم من البساطة والسهولة النسبيتين للقيام بمثل هذه الدراسات فان حظ وطننا العربي من هذه الدراسات لا يزال قليلا ، ولا يزال معظم ما نقرأه عن خصائص وحاجات وميول الشباب في الكتب العربية المتداولة بين ايدينا يعتمد اساسا على دراسات وكتب عربية ليس للعرب من فضل فيها سوى الترجمة والنقل .

ومن الدراسات العربية القليلة التي اجريت على ميول واهتمامات القراءة لدى شباب بعض اقطارنا العربية ، تلك الدراسة التي قام بها في مصر الاستاذ محمد حامد الافندي منذ اكثر من عشرين عاما عن موضوعات القراءة التي يميل اليها الطلاب في المرحلة الثانوية .

وقد اختار الاستاذ الافندي لدراسته هذه عددا من مدارس البنين والبنات الثانوية في انحاء متفرقة من مدينة القاهرة بمصر ، (١٣٣٧) الف وثلثمائة وسبعة وثلاثين طالبا وطالبة . وقد كان عدد البنين (٦٩٧) طالبا ، اما البنات فعددهن (٦٤٠) طالبة ، وقد جاء عدد الطلبة من الفريقين موزعا على السنوات الثلاث من المرحلة الثانوية ، وكانت اعمار الطلاب تتراوح في السنة الاولى بين ١٤ و ١٧ ، وفي السنة الثانية بين ١٥ ، و ١٨ وفي السنة الثالثة بين ١٦ و ١٩ ، اما اعمار الطالبات فكانت تتراوح في السنة الاولى بين ١٤ و ١٨ وفي السنة الثانية بين ١٥ و ١٩ ، وفي السنة الثالثة بين ١٦ و ٢٠ .

ومعنى هذا ان المدى بين سن اصغر طالب وسن أكبر طالب في السنة الدراسية الواحدة هو ثلاث سنوات على حين كان هذا المدى أربع سنوات بالنسبة للطالبات ، وكانت توجد اقلية ضئيلة جدا تزيد في السن او تنقص سنة عن المدى ، سواء في البنين او البنات . وقد قدم الباحث للطلاب والطالبات الذين شملتهم عينة بحثه عددا من قطع القراءة في موضوعات مختلفة ، اختيرت بطريقة علمية معينة ، وقد حلل الاجابات التي نحصل عليها من الطلبة والطالبات بطرق احصائية مختلفة ومتعددة ، توصل في نهاية تحليله الى بعض النتائج المحددة بخصوص ميول واتجاهات المراهقين والشباب نحو القراءة في مصر .

وقد اسفرت نتائج هذا البحث على ان الطلاب الذكور في السنوات الدراسية الثانوية الثلاث الاولى والثانية والثالثة ، يفضلون قصص البطولة في المرتبة الاولى ، ثم الموضوعات العاطفية فالموضوعات الاجتماعية ، ثم الموضوعات التي تتناول العلوم والمخترعات ، ثم قصص المغامرات ، فالموضوعات الفكاهية ، فالموضوعات السياسية ، ثم الموضوعات التي تبحث في الفلسفة وما وراء الطبيعة .

واما بالنسبة للبنات فان دراسة الاستاذ الافندي قد دلت نتائجها على انهن اتفقن « في الميل الى بعض الموضوعات في السنوات الدراسية الثلاث ، واختلفن في الميل الى بعضها الاخر وذلك على النحو الاتي :

السنة الاولى : فضل البنات في السنة الاولى الموضوعات العاطفية وقصص البطولة في المرتبة الاولى ثم الموضوعات الاجتماعية ، فقصص المغامرات ، ثم الموضوعات الفكاهية ، فالموضوعات التي تتناول العلوم والمخترعات فالموضوعات السياسية ثم الموضوعات التي تبحث في الفلسفة وما وراء الطبيعة .

السنة الثانية : وفضل البنات في السنة الثانية في المرتبة الاولى : الموضوعات العاطفية ، وفي المرتبة الثانية قصص البطولة والموضوعات الاجتماعية ، وفي المرتبة الثالثة الموضوعات الفكاهية ، وفي المرتبة الرابعة موضوعات العلوم والمخترعات وقصص المغامرات ، وفي المرتبة الخامسة الموضوعات السياسية ، واخيرا الموضوعات التي تبحث في الفلسفة وما وراء الطبيعة .

السنة الثالثة : وفضل البنات في السنة الثالثة الموضوعات الاتية بالترتيب :

الموضوعات العاطفية ، فقصص البطولة ، فالموضوعات الاجتماعية ، فقصص المغامرات ، فموضوعات العلوم والمخترعات ، فالموضوعات الفكاهية ، فالموضوعات السياسية ، فموضوعات البحث في الفلسفة وما وراء الطبيعة .

وقد اجرى الاستاذ محمد حامد الافندي اختبارا بطريقة اخرى توصل منه الى ان الطلاب والطالبات في المدارس الثانوية يفضلون قراءة موضوعات اخرى على النحو التالي :

الموضوعات التاريخية : يفضل قراءتها د٩١٪ من البنين و٧٣٪ من البنات

الموضوعات الثقافية : يفضل قراءتها ٨٣٪ من البنين

الموضوعات الدينية : يفضل قراءتها ٨٠٪ من البنين و ٩٥٪ من البنات

الموضوعات البوليسية : يفضل قراءتها٧٨٪ من البنين ٧٦٪ من البنات

الموضوعات الادبية : يفضل قراءتها ٦٨٪ من البنين و ٧٧٪ من البنات

الموضوعات الدرامية : يفضل قراءتها ٨٧٪ من البنات

الموضوعات الخيالية : يفضل قراءتها ٨١٪ من البنات

موضوعات علم النفس : يفضل قراءتها ٨١٪ من البنات (٤)

الملاحظة التي قد تؤاخذ على هذه الدراسة :

والملاحظة التي قد تؤخذ على الدراسة السابقة هو قدمها حيث مضى على اجرائها ما يزيد على عشرين سنة ، فقد تطورت مصر نفسها في هذه الفترةتطورا كبيرا وتغيرت الحياة فيها وتغيرت معها بكل تأكيد كثير من ميول الشباب المصري واهتماماته القرائية ولا يستطيع احد ان يدعي أن شباب اليوم يحملون نفس الميول القرائية التي كان يحملها أمثالهم من الشباب ، حتى في مدينة القاهرة نفسها التي تمت فيها الدراسة السابقة ، يضاف الى هذا ان الدراسة السابقة لم يجر مثلها في اقطارنا ومجتمعاتنا العربية المختلفة التي كانت منذ ذلك الوقت مختلفة في درجة نموها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، وفي عاداتها وتقاليدها وفي مطالبها وتوقعاتها من افرادها وفي كثير من قيم حياتها . ومن غير شك ان هذين العيبين في الدراسة السابقة يقللان من قيمة نتائجها بكل تأكيد كركيزة من ركائز التخطيط لتكوين محتويات المكتبات المدرسية والمكتبات العامة ، ولوضع مناهج القراءة والمطالعة والثقافة العامة في المدارس الثانوية ولتحديد الموضوعات الثقافية المفضلة لدى الشباب في الصحافة ، ولتوجيه نشاط دور ومؤسسات الطباعة والنشر في وطننا العربي ككل . ولا اعتقد ان لها قيمة تخطيطية كبيرة في هذه المجالات حتى في مصر نفسها لقدمها اولا ولضيق المحيط الذي غطته من القطر المصري حتى في ذلك الوقت الذي اجريت فيه . فقد علمنا ان الدراسة السابقة لم تشمل الا مدينة القاهرة من مصر ، ولعلها لو اجريت على المدن المصرية الاخرى وعلى المناطق الداخلية والريفية في مصر خاصة في الصعيد لكانت نتائجها مختلفة كليا وجزئيا عما جاءت عليه في القاهرة ، لاختلاف المدن والمناطق المصرية المختلفة في كثير من مظاهر حياتها وفي كثير من عاداتها وتقاليدها ولانعكاس هذا كله على ميول واهتمامات واتجاهات الشباب المصري في تلك المدن والمناطق .

والذي نريد ان نخلص اليه من كل هذا هو : ان ميول القراءة لدى الشباب تتأثر بكل تأكيد بعامل الزمان والمكان . فقراءة ابناء المدن تختلف عن قراءة ابناء الريف ، وما يميل الى قراءته ابناء ذوي المهن الرفيعة يختلف بالضرورة عما يميل الى قراءته ابناء العمال وما يميل الى قراءته الطالب في المدرسة الثانوية يختلف عما يميل الى قراءته العامل المراهق وهكذا .

وقد اكد هذه الحقيقة نتائج كثير من الدراسات العلمية التي اجريت لقياس تأثير المحيط على ميول الشباب واتجاهاتهم ومن هذه الدراسات : الدراسة التي قام بها « جوردان »

والدراسة التي قام بها « تيرمان » و «ليما » وفي نظرة مقارنة الى نتائج هاتين الدراستين الغربيتين يلاحظ الشخص انه في حين تدل نتائج دراسة « جوردان » على ان ٢٥٪ من البنات اللواتي تتراوح اعمارهن بين « ١٤ - ١٦ » سنة يملن الى قراءة قصص المغامرات ، فان دراسة « تيرمان » و « ليما » تدل على ان بنات الرابع عشرة لا يقرأن قصص المغامرات الا لماما . والسبب في الاختلاف بين النتائج التي حصل عليها الفريقان ، هو انهما اجريا دراستيهما في محيطين مختلفين » (٥)

من نتائج بعض الدراسات الغربية حول ميول القراءة لدى الشـــباب :

ونظرا لقلة الدراسات العربية التي اجريت حول ميول القراءة لدى الشباب ، فانه لا مناص من الاطلاع على الدراسات الكثيرة التي اجريت في هذا المجال في غير الوطن العربي ، فهي لا تخلو من الفائدة للمخطط العربي في مجالات التربية والتوجيه والاعلام والنشر وتكوين المكتبات على اختلاف انواعها ومستوياتها ، خاصة اذا كان هذا المخطط واعيـا بالفروق الثقافية والحضارية بين الشعوب ، ملما بواقع مجتمعه العربي ، وقادرا على التمييز بين ما يتمشى مع وطنه العربي وما لا يتمشى .

ومن هذا المنطلق تكمن الاشارة المحدودة الى نتائج بعض هذه الدراسات فيما يلي : فقد دلت نتائج بعض الدراسات التي اجريت في انجلترا مثلا (على ان المراهقين اميل الى قراءة الجرائد والمجلات المصورة منها الى قراءة المجلات والجرائد الادبية او الجدية ، واثبتت هذه الدراسات ان معظم المراهقين لا يقرأون المقـال الافتتاحي او المقالات السياسية او المقالات الهامة ، وانما يقرأون (في حالة الفتيان) : اخبار الحروب والكاريكاتور ، والقصص المصورة ، واخبار الرياضة والسينما والنكات . اما البنات فيقرأن القصص المصورة ، واخبار السينما ، والكاريكاتور والاعلانات واخبار الحروب ورسائل القراء ، كما دلت الدراسات على ان اخبار ... المغامرات والقضايا جذابة بالنسبة للمراهقين من الجنسين) (٦)

وفي امريكا صدر العديد من الدراسات في هذا المجال ، وقد حاول كثير من كتاب الغرب والشرق ان يلخصوا نتائج كثير من هذه الدراسات ومن ابرز هؤلاء الكتاب عالمة المكتبات الامريكية « لوسيل فارجو » في كتابها القيم (المكتبة في المدرسة او المكتبة المدرسية) ومن النتائج والاحكام التي توصلت اليها السيدة (فارجو) بخصوص ميول القراءة لدى المراهقين والشباب استنادا على تلك الدراسات ما عبرت عنه بقولهـا :

(ويصل الاهتمام بالقراءة في سن الثانية عشرة الى القمة ويتسع مجال القراءة لدى البنين والبنات بمتعة كبيرة ، لان هذه السن هي سن تقديس الابطال ولكن يتحققالميل الكامل الى السير والتراجع فانها يجب ان تكون لاناس عمليين . . .

وقد يتجه الفتى ذو الميل الادبي الى قصص (ديكنز) و (دوماس) و (هيجو) دون التخلي عن الاساطير وقصص البطولة . وتميل الفتيات الى القصص عن الحياة العائلية ... ، وكذلك قصص المهن وقصص الحياة المدرسية ، مع الاحتفاظ بميل واضح نحو قصص المغامرات .... وميل الفتيات الى القصص الدينية اكثر من ميل الفتيان اليها ومن الواجب ان يكون للعلوم والمخترعات جانب شخصي حتى تستطيع السيطرة على اهتمام الفتيات ، بمعنى انها يجب ان ترتبط بالسير الذاتية او بالحياة العائلية . اما البنون فيتدرجون على منحنى القراءة في كل موضوع فيه . اما الخطوة الكبرى بالنسبة للفتاة في هذه السن فانها تتمثل في دخولها في ادب الكبار ، وكلما كان عاطفيا كان أفضل بالنسبة لهـا . . .

وتتكون في سن الثالثة عشرة اهتمامات قليلة جديدة . وفضلا عن هذا تزداد الاهتمامات القديمة عمقا ويبحث البنون عادة في هذه السن عن كتب تؤكد (اللياقة البدنية والتغلب على العاهات البدنية واكتساب المهارات العنيفة) .. كما انهم يجدون متعة في العلوم الاكثر تعقيدا وفي هوايات الركوب ، ولذلك يتذوقون متعة الاختراع - فعلا وتخيلا - من خلال مخترعات العلماء ، في حين ان الفتيات يواصلن اكتشافهن لعالم الكبار الخاص بالعاطفة والانفعال ، أما كون هذا الاستكشاف مفيدا او ضارا فان ذلك يتوقف اساسا على التوجيه الذي تتلقاه الفتاة وقد تستحوذ على اهتمام فتاة في هذه السن روائع الادب العالمي ، وكذلك الشعر والدراما وفي سن الرابعة عشرة تبلغ المراهقة اوسع مداها ، وتصبح الميول اكثر تخصصا ، وتجلب الروايات متعة غير متوقعة ويتميز اهتمام الفتى بالميكانيكا ، بالنزعة العلمية والتجريب متضمنا استخدام المراجع المعينة كما يستغرق بتلقائية في قراءة الكتب غير الخيالية ، وبخاصة العلوم والسير الذاتية والتاريخ والرحلات ، يأخذ دوره ايضا في الاستغراق في الروايات . . .

بعد سن السادسة عشر تصبح اهتمامات القراءة اكثر تميزا وتخصصا ، ولذلك لا تعود الاحكام العامة تنطبق ، شأنهم في ذلك شأن الكبار ويتفق هذا - في صلبه - معرأي امناء المكتباتالمتمرسين .)(٧)

ولهذا النضج النسبي الذي حققه طلبة وطالبات المرحلة الثانوية الذي تكاد تنعدم بمقتضاه الفروق بين قراءاتهم وقراءات الكبار ، فانه من واجب المكتبات العامة والمكتبات التجارية ، ودور النشر التي تغذيها ان تنوع ما تقدم من كتب ومطبوعات الى الشباب في هذه المرحلـة .

« ومن انواع الكتب التي يجب ان يفسح لها مكان في هـذه المرحلة : سير العظماء » تاريخ حياة المصلحين الاجتماعيين والفنانين ورجال الدولة والدعاة الدينيين والاخلاقيين » لان هؤلاء الناشئين لـن يلبثوا ان يخرجوا بدورهم الى الحياة العملية في خدمة الدولة والفن والانسانية فمثلا الكتب التي تعالج مثل هذه الموضوعات « كيـف تكسب صداقة الناس وكيف تصلح شخصيتك » لها مكانها البارز هنا وكذلك كتب علم النفس ذات الصلة المباشرة بالحياة اليومية وكتب التوجيه المهني والمؤلفات التي تصدر عن دعوة اخلاقية او دينيـة ، وكذلك الشعر والادب المسرحي وكتب علم الحياة وعلم الوراثـة .

اما في محيط الفتيات فنظراً لاتجاه ميولهن اتجاها منزليا فانهن يقرأن فنون الزخرفـة والتأثيث وكتب النقـد الادبي والمقالات عن الصداقة . اما الكتب عن المشاكل الاجتماعية والاقتصادية فيقرأهـا الجنسان اذا كان تناولها لموضوعاتها تناولا عمليا غير ممل .

وبالاختصار قل ان يوجد موضوع يقبل عليه الناضجون مـن الناس بصفة عامة ولا يقبل عليه الطلبة الكبار في المدارس الثانوية ، الا اذا كانت كتبا تتعمق في تخصصها الى حد تستعصي فيه علـى القاريء غير المتخصص او اذا كانت كتب بحث فلسفي بحيث تخرج عن نطاق واقعية الغالبية العظمى من الشباب .)

واذا كان المقام لا يتسع للاستمرار في عرض الدراسات والكتابات التي حاولت ان تحدد لنا الميادين والموضوعات الفكرية التي تتركـز حولها اهتمامات وميول القراءة لدى المراهقين والشباب واذا كـان كثير من الدراسات التي اشرنا اليها والتي لم نشر قد اجريت خارج الوطن العـربي وان اجراءها قد تم منذ مدة طويلة ، فانه لا اقـل من ان نستخلص مما اشرنا اليه منها ومما لم نستطع الاشارة اليـه ومن نتائج خبراتنا واحتكاكاتنا بالشباب في مجالات التدريس والتوجيه ورعاية الشباب ان شبابنا العربي اذا وجد التوجيه المناسب وتوفرت له الكتب المتنوعة الصالحة فانه يميل الى قراءة الكتب والموضوعات التاليـة .

١ ـ الكتب الدينية المبسطة والصغيرة في حجمها التي تعالـج مباديء العقيدة والقضايا الدينية وتحاول توضيح هـذه المباديء والتعاليم والقضايا والبرهنة عليها على اساس من الفهم السليـم لروح العقيدة والدين والمنطق السليم ، كذلك الكتب التي ترد على الشبهات التي تثار حول الدين تساعد الشباب على التغلب علـى ما يختلج في نفسه من شكوك دينية وتاخذ بيده الى شاطيء اليقين .

٢ ـ كتب الرحلات المثيرة ، وكتب التاريخ والسير الذاتية ، والكتب التي تصور حياة وثقافة الشعوب الاخـرى .

٣ ـ تراجم الابطال والقادة والدعاة والمصلحـين وكبار العلماء والاطبـاء والمخترعين والفنانين

٤ ـ الروايات التاريخية ، وقصص البطولة والفروسـية ، وقصص المغامرات والاكتشافات والاختراعات العلمية والجغرافية .

٥ ـ القصص العاطفية ، والشـعر العاطفي المعبر والقصـص الطويلة (الروايات) وخاصة ما كان منها مليئا بالحركـة والمغامرة والفنية بحوارها وتحليلاتها النفسية العميقة .

٦ ـ الكتب النفسية المبسطة التي تصور نفسية الشاب ومـا يمر به من تغيرات فسيولوجية وعاطفية والتي تساعده علـى تفهم ما يمر به من مشكلات شخصية واجتماعية مع نفسه ومع غيره ، وعلى مواجهة هذه المشكلات والتغلب عليها ، والتي تؤكد له ان ما يمـر به من تغيرات هو امر عادي يمر به كل مراهق ، والتي تبعث فيـه الثقة بنفسه وتأخذ بيده نحو الاستقرار والهدوء النفسيين والتـي تشبع فضوله عن مشكلات المراهقة ومشكلات الشخصية ، والتـي تفسر له كثيرا من التصرفات الشاذة التي يلاحظها في محيطه وتفسر له انماط السلوك الغريبة في المجتمع الذي يعيش فيه ، والتي تربط له بطريقة مبسطة واضحة حقائق علم النفس بمشكلات ومناشـط الحيـاة اليومية .

٧ ـ الكتب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية التي تعالج بتبسط وعمق وموضوعية المشكلات الاجتماعية والاقتصاديـة والسياسية والثقافية التي يمر بها مجتمعه وامته والانسانية بصورة عامة والتي تصور الاعمال الاجتماعية والانسانية الخيرة .

٨ ـ الكتب العلمية التي تعالج موضوعات علمية بطريقة مبسطة وتربط العلم بالحياة وتوضح اهمية مختلف فروعه في خدمة المجتمـع والانسانية ، وتعرف بما تم من اكتشافات علمية وتوضح قيمتهـا العلمية والاجتماعية وتطبيقاتها في شئون الحياة .
العامة وكتب علم الحياة وعلم الوراثة وعلوم الطيران والفضاء .

٩ ـ الكتب المتعلقة بالشئون العائلية والتدبير المنزلي والفنون الجميلة والاشغال اليدوية والهوايات المختلفة .

١٠ ـ الكتب التي تتصل بالموضوعات التي يدرسها في مدرسته او جامعته وتدعم الكتب المدرسية والجامعية والرئيسية وتساعـده على مايطلب منه من مقالات وابحاث ومشروعات . هذه في نظرنـا اهم الموضوعات والكتب التي يميل اليها شبابنا العربي بصـورة عامة اذا ما توفرت لهم وتيسر لهم أمر الحصول والاطلاع عليهـا واذا ما وجدوا من يوجههم اليها ويعرفهم بها ، مع التسليم بان هناك فروقا فردية واسعة بين المراهقين والشباب العرب في اهتماماتهـم وميولهم القرائية وذلك بحكم اختلاف جنسهم ، واختلاف اعمارهم واختلاف مستويات تعليمهم وتحصيلهم المعرفي وثقافتهم العامـة ، واختلاف مستوى اسرهم الاجتماعي والاقتصادي والثقافي واختـلاف البيئات التي تربوا فيهـا والمجتمعات التي نشـأوا فيها من حيث مستواها الاقتصادي والثقافي وقيمها وتوقعاتها من افرادها ودرجـة رقابتها عليهم .

وكان من الممكن ان يكون لما ذكرناه واستخلصنـاه من نتـائج قيمة اكبر في توجيه القائمين على انشاء المكتبات المدرسية والمكتبـات العامة والمكتبات التجارية والقائمين على تنمية وتدعيم هذه المكتبات جميعا باستمرار وفي توجيه دور النشر في الوطن العربي ، لو ان ما ذكرناه واستخلصناه قد تم التوصل اليه عن طريق دراسـة أو دراسات علمية حديثة وواسعة وشاملة في وطننا العربي لعدم توفر مثل هذه الدراسات في الوطن العربي ، فيما نعلم ، فانه لا مفر من الاستفادة مما استخلصناه ويستخلصه غيرنا من نتائج وتعميمات بناء على تجارب شخصية ودراسات محدودة داخل وخارج الوطـن العربي في التخطيط لمكتباتنا ودور نشرنا العربية وفي توجيه عملها بما يجعلها اكثر تمشيا مع حاجات وميول الشباب .

المباديء التي ينبغي أن تقوم عليها سياسة النشر في وطننا العـــربي :

وممـا اتيحت لنـا الاطلاع عليـه من دراسـات وكتابات تتعلق بنمو المراهقين والشباب وخصائص نموهم وحاجاتهم واتجاهاتهم وميولهم بصورة عامة وبميولهم القرائية بصورة خاصة ، ومـن ملاحظاتنا وخبراتنا الشخصية في عملنا مع الشباب ومما سبق لنا ذكره في الفقرات السابقة من هذه الورقة نستطيع ان نسـتخلص مجموعة من المباديء العامة التي ينبغي ـ في نظرنا على الاقل ـ ان تكون من المرتكزات الاساسية التي تقوم عليه سياسة النشر في وطننا العربي . وهذه المباديء هي كما يلي :

١ ـ ينبغي التأكيد على ان دور النشر ، حتى الاهلي منها والذي يخضع منها للقطاع الخاص هي مؤسسات تربوية وثقافية واعلامية في المقام الاول ، وان رسالتها الاولى هي مد الجماهير بالغذاء الفكري والروحي الذي لا يقل في قيمته عن الغذاء الجسمي ونشر الوية المعرفة النافعة والفكر الصحيح والذوق السليم والادب الملتزم والثقافـة العربية والاسلامية الاصيلة والفكر الانساني العالمي النزيه الـذي لا يهدم عقيدة صحيحة ولا قيمة اصيلة من قيمنا ، اما هدف الكسب المالي فانه ينبغي ان يكون هدفا ثانويا غير مقصود في المقام الاول بحيث لا يضحي في سبيله بالغايات التربوية والتثقيفية ولا بالقيم الروحية.

٢ ـ تنبغي النظرة ايضا الى العمل الذي تقوم به دور نشرنا العربية على انه عمل هادف يحتاج الى التخطيط السليم والتقويم المستمر في ضوء الاهداف المرسومة له .

٣ ـ ان مواد وموضوعات القراءة ينبغي أن تكون مساعدة للشباب على اشباع حاجاتهم النفسية ليزيد اقبالهم عليها وعلى ارضاء ميولهم واهتماماتهم الثقافية ، وعلى ملء الفراغ النفسي الذي يحس به بعضهم ، وعلى توسيع معارفهم وثقافتهم ومداركهم وخيالهم باستمرار ، وعلى فهم المشكلات التي يحسون بها وعلى مواجهة هذه المشكلات وعلى حلها ان امكن .

فالشباب يقرأون عادة ليشبعوا حاجاتهم المختلفة وليرضوا ميولهم واهتماماتهم القرائية وليوسعوا ثقافتهم ومداركهم وليشغلوا اوقات فراغهم بأمور نافعة وليفهموا جذور المشكلات التي يحسون بها ويصلوا الى الحل المقبول لها .

٤ ـ نظرا لان الشباب يعشق الحرية ويحس بعمق بحاجته اليها ويميل الى كل ما يساعده على الفهم الصحيح للحرية والى ما يحقق له حريته ونظرا لان اقبال الشباب لن يكون تاما على الكتب والمواد المطبوعة الاخرى الا اذا تم اختيارها بحرية وتمت كتابتها في جو من الحرية وبواسطة اشخاص يتمتعون بكامل حريتهم الشخصية والعلمية ، ونظرا لان الحرية هي الدافعة والمسيرة للحقيقة والمساعدة على ابرازه اوعلى الخلق والابداع ، فانه لا غنى عن توفير الحرية العلمية المسئولة للكتاب والقاريء على السواء .

٥ ـ نظرا لان الشباب يختلفون في انماط شخصياتهم وامزجتهم وفي درجات ذكائهم ودرجات نضجهم العقلي والانفعالي والاجتماعي وفي حاجاتهم وميولهم واهتماماتهم وهواياتهم فانه من واجب دور النشر والمكتبات المدرسية والمكتبات العامة ان تقدم الى هؤلاء الشباب ما يتمشى مع فروقهم الفردية وما يناسب ميولهم المختلفة ، فتقدم الى اصحاب الميول الخلوية الكتب والقصص المتصلة بعمل الرحلات وتنظيم المعسكرات ودراسة الغابات ، وتقدم الى اصحاب الميول الادبية الكتب والقصص الادبية ودواوين الشعر الجيد ، وتقدم الى اصحاب الميول الفنية الكتب الفنية ، وتقدم الى اصحاب الميول الميكانيكية الكتب المتصلة بالادوات كاصلاح السيارات وهكذا .

٦ ـ نظرا لان عادة القراءة والميول القرائية ليست أمرا فطريا يرثه الانسان بيولوجيا وانما هي أمر مكتسب يكسبه الانسان عن طريق التربية والخبرة والممارسة العملية المستمرة للقراءة في الاوساط المختلفة التي يتفاعل معها في مختلف اطوار حياته من بيت ومدرسة ومكتبة عامة وعن طريق التوجيه التربوي السليم الذي يقدم له في مختلف الاوساط التربوية وعن طريق اساليب التدريس ونظم الامتحانات التي تتبع معه اثناء فترة دراسته ، فانه من الضروري ان يتوفر للطفل والشاب كل الفرص الممكنة للخبرة القرائية المناسبة وان يتوفر لهما الكتاب الجيد والموضوعات الصالحة للقراءة وان يتوفر لهما التوجيه الصالح الفعال من القائمين على تربيتهم من اباء ومدرسين وموجهين وأمناء مكتبات وغيرهم لقراءة الاعمال الادبية والفكرية النافعة ولمتابعة الاخبار المفيدة ولاشباع فضولهم من المشكلات الشخصية والاجتماعية والانسانية التي تهمهم ، اذ بدون هذا التوجيه فان المراهق مثلا يقرأ اكثر ما يقرأ للحصول على الاثارة .

٧ ـ ان بناء الاتجاه الايجابي نحو القراءة وبناء عادة القراءة والمهارات الضرورية لها امران لا يمكن ان يتحمل مسئولية بنائهما الاشارة اليهم في المبدأ السابق وجميع مؤسسات واجهزة التربية وتمارس التأثير عليه ، بل يجب ان يساهم في تحمل هذه المسئولية كل من له صلة بتربية وتعليم وتوجيه الشباب من الذين سبقت الاشارة اليهم في المبدأ السابق وجميع مؤسسات واجهزة التربية والتعليم والاعلام والنشر . فبناء ذلك الاتجاه وهذه العادة والمهارات يجب ان تكون هدفا اساسيا من اهداف التربية المنزلية والتربية المدرسية والحركة المكتبية وحركة الطباعة والنشر واجهزة الصحافة والاذاعة بنوعيها ، اذ بدون مساهمة وتعاون هذه الجهات جميعا لن يتحقق الهدف المذكور بالصورة المرغوبة .

٨ ـ ان مهمة المؤسسات التربوية والثقافية والاعلامية لا تقف عند حد اكتشاف وتنمية ميول واهتمامات القراءة لدى الشباب ، بل ان عملها يستمر حتى بعد ذلك لتغذية هذه الميول والاهتمامات وتعهدها بالرعاية والتوجيه المستمرين وحمايتها من الانحراف نحو القصص الخيالية والعاطفية المنحرفة ، ولاثارة ميول واهتمامات جديدة وجعلها في حركة مستمرة ، وذلك عن طريق التعليم والتدريب والتوجيه والتشجيع على القراءة والتحميس لاهتماماتها وتوفير الحوافز التي تدفع الى القراءة ، وعن طريق تنظيم المسابقات الثقافية التي تدفع الى الاطلاع وعقد الندوات والمناقشات الهادفة الى التعريف بما يصدر من كتب جديدة ، وعن طريق نشر المراجعات لما يصدر من كتب جيدة ونشر الاعلانات ومقالات النقد الموضوعي عنها الى غير ذلك. من وسائل تنمية وتوجيه وتجديد ميول القراءة ووسائل التشجيع على القراءة والتعريف بما يصدر من كتب جديدة جيدة .

٩ ـ ان الكتاب لينال قبول الشاب ورضاه واقباله عليه وليستطيع منافسة ومزاحمة الوسائل التعليمية والتثقيفية والاعلامية الاخرى كالاذاعة المسموعة والاذاعة المرئية واشرطة الخيالة وغيرها فانه ينبغي ان يكون جيدا في موضوعه وشكله ينبغي ان يكون جيدا في محتواه وفي عرض وتنظيم وتحليل افكاره وفي لغته واسلوبه وشكله الخارجي وفي نوعية ورقه كما ينبغي ان يكون مناسبا في حجمه ، حيث ان حجم الكتاب من الامور التي ينبغي ان تنال العناية ، وخاصة بالنسبة للقاريء غير المتجاوب او عديم الخبرة ـ فالكتاب الصغير الحجم عاد ةيلقي اقبالا اكبر مما يلقاه المجلد الضخم الثقيل .

طرابلس ـ ج٠ع٠ل **عمر التومي الشيباني**

المراجع العربية للمقال

(١ـ٢) مدحت كاظم ، المكتبة المدرسية ص ٤٦ـ٤٧ و ٦٢ـ٦٩ .

(٣) محمد حامد الافندي ، موضوعات القراءة التي يميل اليها الطلاب في المرحلة الثانوية بحث اجرى على عينة من طلبة وطالبات المدارس الثانوية بمدينة القاهرة بمصر لنيل شهادة الماجستير في التربية في يونيو ١٩٥٥م .

(٤) كما لخصها د. مصطفى فهمي ، سيكولوجية الطفولة والمراهقة ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة : مكتبة مصر : ١٩٦٦ ص ٢٢٤ـ٢٣٦ .

(٥ـ٦) كما لخصها د. فاخر عاقل ، اعرف نفسك ـ الطبعة الثانية ـ ، بيروت دار العلم للملايين ، ص ٢٩١ـ٢٩٢ . سنة ١٩٦٨م.

(٧) لوسيل ف فارجو ، المكتبة المدرسية ، ترجمة : د. السيد محمد العزاوي ، القاهرة : دار المعرفة ص ٧٠ـ٧٣ .

(٨) مدحت كاظم ، المكتبة المدرسية ، ص ٤٢ـ٤٦ .

(٩) مراجع اخرى :

(أ) د. محمود ابراهيم ـ المطالعة وكيف نستفيد منها ـ مجلة رسالة المعلم السنة الثانية عسر العدد الثالث ، يناير وفبراير ١٩٦٩ ، ص ٣٣ـ٣٨ .

(ب) محمود الاخرس ـ الطلاب ومكتباتهم الخاصة ـ مجلة رسالة المعلم ، السنة ١٢ العدد ٤ ، مارس وابريل ١٩٦٩م ص ٣٦٣٣ .

بشير الهاشمي

مجالات التعاون في نشر كتاب الطفل

من ابرز معالم الوعي الحضاري في عالمنا العربي ومن أهم ملامح يقظته المعاصرة عنايته بشأن الطفولة واهتمامه المتزايد بها في مختلف مجالاتها ودأبه المتواصل من اجل خلق الوسائل الكفيلة برعايتها صحيا واجتماعيا وتربويا وثقافيا ، وهي عوامل ووسائل تتداخل وتتشابك في هدف مشترك واحد ، هو ايجاد الضمانات السليمة لمستقبل الطفولة السعيدة المرحة المستطعمة لمذاق طفولتها وهي تعيشها وتمارسها بلا مرارة ولا خوف في أن تتحول في مراحل متقدمة من العمر الى مجرد ظلال باهتة كئيبة تخزنها الاعماق وتستنطقها حسرة ولوعة .

الطفولة المعانقة ليوم طفولتها والآمنة المطمئنة لغدها المشرق المسبغ بدفق الحنان وتشوق الابتكار المتفتح للبراعم الصغيرة وتطلعات عالمها الطفولي البكر .

ولا اعتقده مبالغا ذلك التعبير القائل بان الطفل هو سيد العالم اليوم ، فهو الشغل الشاغل للمتخصصين والباحثين في أي مجال له شأن بالطفولة ، وهو مركز استقطاب الدراسات والتجارب النظرية والتطبيقية ، ذلك ان الطفولة لم تعد مجرد مرحلة مبكرة من مراحل العمر يتقاذفهاً الزمن ويطويها ليسلمها الى مرحلة أخرى متقدمة ، بل هي مرحلة هامة ودقيقة في تكوين انسان المستقبل وخلق مقومات بنائه ما يتوفر لها من وسائل وامكانيات من خلال معايير علمية متطورة تستهدف التوافق والتناسق بين الطفل وعالمه الصغير المشحون بالاحاسيس والرؤى وبين مجتمع الكبار من حوله وبما تنعكس عليه من مؤثرات ثقافية وتربوية واجتماعية يتلبسها الطفل ، سواء في محاكاته لها وهو يتشبه بالكبار او تشبعه بها وتأثيرها فيه مع تطورات نموه .

ومن البديهي أن النظر الى الطفولة على انها مجرد مرحلة عابثة من العمر قد نقابلها بالاستخفاف والضحك فحسب هي نظرة من شأنها أن تتلاشى وتزول أمام ارتفاع الوعي وتطور الادراك بأن نفسية الطفل وعقله يمثلان آلة بالغة الدقة والحساسية والرهافة في التلقي والتأثر وتسجيل الملاحظة بما يتطلب التعامل معه ببالغ الحذر وباستخلاص النتائج العلمية التي توصل اليها الباحثون والدارسون في مجالات الطفولة . وينبغي ألا يأخذك الضيق عندما يقال لك ليس من حقك الذهاب وحدك الى محلات بيع لعب الاطفال لشراء شيء منها لطفلك وانما ينبغي ان تسترشد بتوجيهات المربي المختص ليدلك على اللعبة المفضلة لطفلك والملائمة له ، ليس بالنسبة لاختلاف السن فحسب وانما أيضا لنوعية اللعبة من طفل الى آخر ، بما يتوافق وذلك الجهاز الدقيق الكامن فيه . وعلى هذا المنوال ومثلما تذهب بطفلك الى الطبيب ليحدد لك نوع دوائه وغذائه ، فأنت ملزم بتحديد اختياراتك في لعبه ولباسه وادواته التي يستعملها. وأخيرا وليس آخرا كتابه الذي يقرأه وأيضا ما يشاهد في السينما والمسرح وما يسمع من الموسيقى ..ومن أجل سعادة هذا السيد الصغير ازدهرت المؤسسات العلمية والصناعية وتعددت نوعيات اختصاصها وتفرعت ، ودخلت التجارة بدورها هذا الميدان واحتلت مكان الصدارة فيه ، وهي تحاول السيطرة على المنافسة في الكسب المربح وتتجاذب الطرف مع تطورات العلم . وآخر نتائج المختصين في شؤون الطفل . ومهما كانت المآخذ والمؤثرات فهو الرابح أخيرا بهذا الاهتمام المتزايد في توفير متطلبات عالمه الصغير وما يريحه ويرضيه وبما يوجد منه انسانا متكامل المقومات ، وهكذا عرفنا أن للطفل اشرطته السينمائية الخاصة ومسرحه الخاص الذي انتشر وتعدد في مختلف ارجاء العالم واسطوانته الموسيقية الخاصة وحتى مدنه السياحية والتعليمية ، وتشكلت مراكز الابحاث العلمية بشأنه وانعقدت المؤتمرات الدولية من أجل تنسيق الجهود المتعلقة بمجال من مجالاته .

ومع ذلك فقد ظل كتاب الطفل ومجلته من أهم مراكز الاستقطاب الحيوي في مجال العناية به ومن أنجع الوسائل المجدية في عالمه الصغير. ومن هنا كان مصدر الاهتمام المتزايد في العالم بكتاب الطفل ونوعية مادته وصياغتها واشكال طباعتها وحجمها مع اختلاف مراميها وغاياتها ووسائل مخاطبتها له بالحرف والصورة وحتى بالكلمة المنطوقة على اسطوانة مسجلة . ولم يعد في معارض الكتب الدولية مجرد شريك متواضع باسهامه ومشاركته بل صارت تفرد له المعارض الخاصة والملتقيات الباحثة لثقافته وسبل تربيته ، وسارعت وسائل النشر المتعددة الى وضع كتاب الطفل في مقدمة اهتماماتها ومشاغلها ومنها ما اقتصر نشاطها في مجاله وتخصصت فيه ثم اقتضتها ضرورات التوسع والتكامل الفني والمادي والعلمي الى التنسيق والمشاركة مع دور النشر الاخرى ، خاصة فيما يتعلق بالمشاريع الكبيرة مثل دوائر المعارف والموسوعات الخاصة بالاطفال والصبيان . وكان لهذا كله أثره وصداه في عالمنا العربي الذي ادرك بيقظته المعاصرة أهمية ما تتطلبه الطفولة من مستلزمات الرعاية والعناية والتربية السليمة وما تقتضيه هذه من وسائل وأدوات في مجال الكتاب خاصة حيث اقتصرت مراحلها الاولى على ريادة الاديب والكاتب العربي في اعداد النص وتقديمه للطفل .

ولعله من حسن طالعه أن يتحمل خوض غمار هذه التجربة في بدايتها البكر رعيل من رواد الفكر العربي المعاصر بما لهم من حصيلة فكرية عميقة وتجربة متعددة الاطراف والجوانب ، اضافة الى تشبعهم وامتلاء وجداناتهم بالروح القومي الزاخر وحماسهم الناضج مع تطور اليقظة القومية فلم تعدم تجاربهم من الاصالة والصدق ولم تقف عند حدود التقليد والمحاكاة لنماذج واشكال دخيلة عليهم . كان في مقدمة هذه الاسماء رفاعة رافع الطهطاوي والشاعر احمد شوقي وعلي فكري ومن بعدهم كامل الكيلاني ومحمد سعيد العريان وعند الاسمين الاخيرين كان النص الادبي المعد للطفل يستنبط سماته الفنية شكلا ومضمونا ويصنع من بداياتهما جسرا لادب الطفولة المرتقب في الوقت الذي يلفت فيه النظر الى مدى الحاجة الملحة لمثل هذا الادب وأهمية وجوده في مضمار ابداعات الفكر العربي ، وينبه الهيئات والمؤسسات العلمية والادبية الى تدارك ما فاتها ويثير رغبة العديد من دور النشر الى خوض غمار التجربة ولو في أضيق الحدود وأقصرها .

وعلى مستوى الوطن العربي انعقدت باشراف جامعة الدول العربية (حلقة العناية بالثقافة القومية للطفل العربي) في بيروت في ٧-٩-١٩٧٠م اسفرت عنها نتائج وتوصيات هامة ، وفي مؤتمر الادباء العرب المنعقد بالجزائر في أبريل ١٩٧٥م كانت الطفولة في الادب العربي من مواضيع المؤتمر التي قدمت بشأنها العديد من الدراسات والابحاث ومن توصياته الهامة اعتماد الطفولة كموضوع ثابت في المؤتمرات المستقبلية للادباء العرب .

هذه اللمحات العامة تسوقنا الى أن الطفل العربي قد اخذ يحتل مكانه البارز في مجال الكتاب خاصة ويتزايد بالتالي اهتمام الادباء

والباحثين بشانه وهو ما يعكس في النهاية عناية دور النشر ومؤسسات التوزيع بهذا اللون من المطبوعات واهتماما بالغا لما تقوم به من حركة ونشاط .

واذا كان للعديد من دور النشر اسهمها ونشاطها الجدير بالتنويه في هذا المجال فانه يتحدد في حقيقته عند النطاق الفردي لهذه الدور ، ويرتكز على جهودها الذاتية وهو ما يقيد تحركها ويربطها بمعايير تجارية مباشرة قد يؤثر على ما تقدمه من مضمون وقد تستغرقها ظاهرة التقليد والاقتباس المبالغ فيه تحت طائلة مقاييس الربح والخسارة لنماذج واشكال غريبة عن البيئة العربية ودخيلة على وجدانه ولا تولد في الطفل العربي روح الانتماء بقدر ما تستهلك فكره دوامة من الانبهار والاعجاب لهذا الغريب الدخيل . واذا كان الناشر العربي بحاجة الى تنسيق جهوده في خدمة الكتاب العربي عامة فان حاجته في مجال كتاب الطفل اكثر ضرورة واشد الحاحا من اجل تنشئة الطفل العربي عقلا ووجدانا وابراز مقومات التلاحم والتمازج القومي بامته وتربته وتراثه ، وذلك بتنسيق العمل المشترك بين دور النشر من خلال خطة مدروسة ومستوعبة للوسائل التربوية المطلوبة وواعية بالفوارق الجزئية الطارئة للطفل العربي بحكم بيئته من قطر الى آخر ، قادرة في الوقت نفسه على اذابتها واحتوائها بنظرة قومية شاملة تبني أسس الحاضر وتبشر بتطلعات المستقبل . وايضا فان مثل هذا التنسيق من شانه ان يغطي الاحتياجات الفنية والمادية المطلوبة وتبادل الخبرات والتعاون المثمر بمساندة المؤسسات والهيئات العلمية والثقافية في الوطن العربي حيث تكون قادرة على ايجاد البديل للاعتبارات التجارية التي لا ينبغي اغفالها .

وان المرأ ليقف متسائلا عن اسباب انعدام هذا التنسيق والتعاون في مثل هذا المجال الحيوي في الوقت الذي يشهد فيه محاولات غزو ضارية لعقل الطفل العربي من خارج حدوده ، متعمدة التركيز على تغريبه وابعاده عن مصادره الاصيلة ومنابعه الحقيقية وشد ذهنه الى النموذج الاجنبي القادر على صنع المعجزات واختراعات العلم وخوض المعارك وغزو الفضاء واختلاق البطولات وغيرها . ان هذا كله بمثابة جرس الخطر الذي يدق منبها الناشر العربي الى مثل هذه الظاهرة الخطرة حتى يسارع الى تداركها بتخطيط علمي مدروس لفائدة الطفل قبل ان يكون وسيلة من وسائل التجارة، ولكي يدرك انه بازاء رسالة تقتضي امانة تحملها تكثيف جهوده وتوحيد قواه من اجل تحقيقها وفقا لمعايرنا القومية والحضارية وحتى يحقق الحصانة اللازمة لطفلنا العربي من اي عنصر دخيل قد يبهره بريقه ويأمر خياله وذلك بالعمل على التبشير بالنموذج المستقى من الارض العربية وتاريخها الفكري والنضالي والحضاري والتركيز على توحيد اسلوب مخاطبة الطفل العربي بالكيفية التي لا تتعارض ومقتضيات التنويع والتشويق لمضامين الكتاب وأشكاله ، والحرص على التقليل من الاقتباس والنقل والتقليد ، والحذر والتدقيق في اختيار النوعيات المقتبسة والمنقولة بالدرجة التي لا تتحول فيها الى عبء ثقيل على وجدان الطفل العربي .

وعليه فأن من الزم الضرورات الحاضرة العمل على انشاء مكتبة عربية للاطفال تتعاون فيها دور النشر باسلوب منسق بين كافة وسائلها الفنية ، وبين المتطلبات التربوية والثقافية والعلمية المتمثلة والمعايشة لمنابع تراثنا القومي والمعبرة عن شخصيتنا العربية والمنطلقة في تلاحم وتكامل خلال خطة عامة تساهم فيها جميع الجهات المعنية بشئون الكتاب سواء عن طريق جهاز مركزي منبثق عن دور النشر والمؤسسات الثقافية ومرتبط باتحاد الناشرين العرب ، او باي كيفية اخرى مقترحة لتتولى مهمة الرشد الثقافي والفني في مجال كتاب الطفل بالدرجة التي لا تعتبر فيها اقحاما او تدخلا في صميمية العمل الفني ، مع اهمية موازنة الاعتبارات المالية والتجارية بما يضمن تغطية النفقات العامة ويحقق لكتاب الطفل الدعم المطلوب ويحميه من مؤثرات السوق التجارية برصد الاعتمادات المالية له من قبل الهيئات والمؤسسات وبالدرجة التي تجعله في متناول الطفل العربي في كل مكان . واذا كانت المهمة صعبة وجسيمة وتحتاج الى توفر دراسات موسعة بشانها فان الكثير من جوانبها الملحة تتطلب المبادرة الفورية والسريعة من قبل الناشر العربي وفق الاعتبارات التالية :

١ ـ وضع احصائية شاملة للانتاج المقدم للطفل العربي واستخلاص الصالح منه والمناسب لاهداف المكتبة العربية للاطفال والملائم لمعايره القومية وتراثه الديني والحضاري .

٢ ـ عدم الزج بكتاب الطفل الى صراع المنافسة التجارية بين دور النشر والحرص على اهمية المضمون وقيمته بمعزل عن حسابات الربح والخسارة .

٣ ـ الوقوف بقوة في وجه محاولات التغريب التي يتعرض لها وجدان الطفل العربي من خلال المسلسلات والكتب المترجمة التي تحاول شد انتباهه للنموذج الدخيل عليه .

٤ ـ الحرص في النقل والاقتباس والترجمة على ما له قيمة انسانية وفكرية عامة من التراث العالمي بما يعد اضافة جادة لثقافة الطفل ومنطلقا لاتساع مداركه .

وهذه في مجملها تتطلب بالضرورة اعتماد مقومات التعاون في مجالات نشر كتاب الطفل بوضع المشروعات المشتركة في مختلف منطلقاتها المحلية والقومية وطرحها للدراسة النظرية والعملية واستشراف مراميها القريبة والبعيدة الهادفة الى تغطية كافة الاحتياجات الثقافية والتربوية للطفل العربي .

ومثل هذه المجالات تعد مرتكزا حيويا لخدمة ثقافة الطفل العربي وتربية وجدانه ، ومن حقه على اجهزة النشر العربية المتعددة ان تستجمع جهودها وتتساند امكانياتها من آجل تحقيقها وانجازها .

١ ـ فما زلنا بحاجة الى دائرة معارف عربية للاطفال وهو مجال فسيح للتعاون بين اجهزة النشر لم تتطرق اليه بعد على ما يمثله من اهمية وخطورة . ومن غير المعقول ان تقتصر الجهود هنا عند الترجمة والاقتباس بل لابد من صياغة عربية للمعارف العامة لا تتعارض ووجدان الطفل العربي .

٢ ـ حاجة الطفل العربي للمعاجم العربية المصورة وقواميس اللغة للاطفال والحوليات المتنوعة التي تمنح عقل الطفل رسوخا ذهنيا ثابتا .

٣ ـ في مجال المعلومات العامة مثل كتابة تاريخ الوطن العربي للاطفال والاطلس العربي للاطفال بما يعطي لوجدانه القومي تفتحا ويقظة .

٤ ـ حاجة الطفل العربي الى مجلة للاطفال تعتمد الاصالة والجودة من خلال رؤية عربية سليمة دون مؤثرات خارجية .

ولن يكون هذا استقصاء شاملا لكل مجالات التعاون فذلك ما تتولاه الدراسات الموسعة بابعد من حدود هذه المحاولة المبتسرة لان غاية ما تطمح اليه ان تكون مصدرا ومنطلقا لحوار موضوعي في مجال كتاب الطفل يستكشف الطريق من اجل اعداد خطة عامة تستهدف تنسيق الجهود العربية في مضمار النشر ، بما يحقق الغاية المطلوبة من مقومات الثقافة الاصيلة والبناء السليم لطفلنا العربي العزيز وما يطمئن لهفتنا وتشوقنا لكل ما يحقق السعادة لهذا السيد الصغير .

بشير الهاشمي

طرابلس ـ ج. ع. ل

مناقشات ندوة الكتاب العربي وتوصياتها

بدأت الندوة الثالثة للكتاب العربي أعمالها بحفلة الافتتاح صباح يوم ١٧ ابريل ، فألقى كل من المفوض العام للشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان والاستاذ محمد الزوي وزير الدولة كلمتي الافتتاح. (ويجدهما القارىء في اول هذا الملف) .

وفي المساء ألقى الكاتب الجزائري الدكتور حنفي بن عيسى بحثا بعنوان « بعض جوانب من التزوير في الانتاج الفكري (وهو منشور في هذا العدد) ، وقد اشترك في مناقشته بعض أعضاء الندوة ، فرأى الاستاذ علي مصطفى المصراتي انه كان من الضروري ان يضيف الكاتب الى عنوان بحثه عبارة « مسؤولية المجتمع » باعتبار ان الكاتب صورة من صور المجتمع الذي يعيش فيه ، فاذا كان المجتمع فاسدا كان الكاتب فاسدا ، واذا كان المجتمع عظيما وقويا فالكاتب قوي وعظيم وهكذا.. ولاحظ المصراتي تداخل الموضوعات في بحث الكاتب بين الادب والفكر والاعلام ، وهو يرى ان الادب شيء والفكر شيء ، والاعلام شيء آخر . ويؤكد المصراتي ان الفكر اسمى شيء ، والتزوير أكبر جناية ، وهو موجود منذ القدم ، وتدخل فيه عوامل عدة . وفي الوقت نفسه ، فان الادباء لا يختارون المرتقى السهل بل المرتقى الصعب ، والا لماذا يسجن الادباء ويشرد الشعراء ؟

وتكلم الدكتور سهيل ادريس فخالف المصراتي في ان بحث الكاتب متداخل واكد ان البحث واضح وصريح ، ثم رد على المصراتي كذلك . فقال ان الكاتب ليس صورة من صور المجتمع ، بل هو فاضح للمجتمع وأكاذيبه ، والكاتب الحقيقي لا يمكن أن يجد لنفسه مثل هذا التبرير ، فيقول انه منافق لان المجتمع منافق .. والا فما هي قيمة الكاتب ؟ انه في الحقيقة يتحدى آفات المجتمع ، لان الاديب ليست مهمته تصوير الواقع تصويرا فوتوغرافيا ، بل هو « يصعّد » هذا التصوير بحيث يحمله رسالة معينة ويضيف اليه ما يريد أن يوحي بضرورة تغييره .

وتدخل الدكتور عمر الشيباني فذهب الى ان المجتمع مسؤول عن بعض جوانب التزوير ، حيث ان هناك بعض الحقائق التي لا يستطيع الانسان ذكرها بموضوعية كاملة ، أما بسبب العادات أو التقاليد ، واما بنوع من التقية السياسية ..

ورد ممثل العراق علي حسين العبادي بأن هناك ترابطا شموليا بين الادب والفكر والاعلام ، وان الاديب ابن بيئته ، فمن غير الممكن أن يتحدث كاتب من مجتمع رعوي عن الآلة والتطورات التي طرأت عليها .. والفكر الانساني فكر متكامل والثقافة العالمية ثقافة مترابطة ، وعلينا أن نتساءل عن أسباب التزوير لنستطيع القضاء عليها .

وتعليقا على قول الباحث ان الرقيب هو اول جهاز تبدأ به عملية التزوير ، تساءل السيد صالح الشريف : هل نحن نقر وجود الرقيب أم نترك العنان للكاتب ؟ وأجاب على ذلك بأن وجود الرقيب لا غنى عنه في كثير من الاحيان ، كما ان الناشر يجب ان يتدخل في كتابات الاديب ، لان الناشر يستوحي احتياجات المجتمع ..

وعاد الدكتور سهيل ادريس يعلق على ما قاله الدكتور الشيباني من أن حرية الاديب محدودة وان المجتمع مسؤول عن هذا وان الاديب لا يستطيع ان ينحني أمام بعض التقاليد ، فقال الدكتور ادريس : اذا كان الاديب يلتمس لنفسه مثل هذه المبررات فانه يتخلى عن واجبه ويخون رسالته ، والافضل له ان يصمت .. ذلك انه لابد من أن تكون للاديب حرية مطلقة في الادلاء برأيه ، حتى في أن يعارض النظام .. ولو تعرض للون من ألوان الاضطهاد او لكل ألوان الاضطهاد ، لاننا بحاجة الى ادباء رسوليين حتى يكون لنا ادب رائد يعمل على تغيير المجتمع.

أما بالنسبة لتدخل الناشر فيما يكتب الكاتب ، فقد رفضه الدكتور سهيل رفضا باتا ، خاصة اذا كان الناشر تاجرا وليس غير تاجر ...

وبعد ان ناقش الحاضرون محاضرتي الاستاذين بشير الهاشمي « مجالات التعاون في نشر كتاب الطفل » وعلي حسين العبادي «الكتاب والثقافة القومية » قدم السيد رحومة علي الجدي مدير عام ادارة التوزيع في الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلام في الجمهورية العربية الليبية ورقة عن المصاعب التي تواجه توزيع الكتاب العربي ، فلخصها بما يلي :

- عدم توفر المكتبات لتوزيع الكتاب على نطاق واسع ، فضلا عن انها موجودة في المدن الكبرى وحدها .
- عدم توفر الكتب المتخصصة ، ولهذا تبدو الامية طاغية في الكتب .
- مشكلات الشحن التي تحد من انتشار الكتاب .
- ارتفاع أسعار الكتب .
- ارتفاع العمولات على الكتب .
- عدم وجود تسهيلات ادارية وجمركية لشحن الكتاب .
- التوزيع بالبيع القطعي يحد من بيع الكتاب ، وعلاج ذلك يكون بغمر السوق بالكتب الخاضعة للمرتجع ولقانون العرض والطلب .
- عدم تشجيع الهيئات والمؤسسات العامة للكتاب .
- التاخير في اعطاء جواب الرقابة على الكتب المعروضة عليها .
- اخضاع توزيع الكتاب للعلاقات السياسية بغض النظر عن مضمون الكتاب .
- مشاكل التحويلات المالية .
- قلة معارض الكتب .
- عزوف القارىء العربي عن اقتناء الكتاب .
- كثير من الكتب ذات عناوين براقة ومضمون فارغ .
- ضرورة توحيد اتحادي الناشرين والموزعين .

وعلق الدكتور سهيل ادريس على ورقة مدير عام ادارة التوزيع، فذكر ان الاقبال على تزوير الكتب ، وخاصة في لبنان ، يحد من رغبة الناشرين الجديين بالنشر ، حتى ان بعض الناشرين اللبنانيين يتمنون ألا تروج الكتب التي يصدرونها خشية ان يغري رواجها بتزويرها ! وطالب بتخفيض اجور الشحن ولا سيما الجوي ، وقال ان من الاسباب الرئيسية لضعف توزيع الكتاب العربي ضعف التعريف به وقصور النقاد في تناوله ، وأعلن ان « الآداب » مستعدة لفتح باب خاص في اعدادها القادمة تنشر فيه تعريفا موجزا بأي كتاب عربي جديد ترسل دور النشر تعريفا موضوعيا به ، ويكون ذلك بمثابة اعلان مجاني عن هذا الكتاب (وكان مدير عام توزيع الشركة الليبية قد قال ان الاعلانات التي تنشر في الصحف الليبية يمكن أن تعفى من الاجور) .

وفي هذا السياق أعلن مندوب العراق عن استعداد الحكومة العراقية لاصدار مجلة خاصة للتعريف بالكتب ونقدها .

وتحدث الاستاذ خليفة التليسي عما يعانيه الكتاب العربي اجمالا من الرقابة والمراقبين ، كما تحدث الدكتور حنفي بن عيسى عن « امية المثقفين » الذين لا يقبلون على الكتاب ولا يعتبرونه سلعةضرورية .

توصيات الندوة

وفي اليوم التالي تشكلت لجنة من الاساتذة خليفة التليسي والدكتور سهيل ادريس وعلي حسين العبادي وبشير الهاشمي لوضع توصيات الندوة مقتبسة من أبحاث الكتاب ومناقشات الحضور واقتراحاتهم ، فوضعوا التوصيات التالية التي أقرتها الندوة :

بدعوة من الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان انعقدت في طرابلس بالجمهورية العربية الليبية ما بين ١٧ – ١٩ نيسان (ابريل) ١٩٧٦م الندوة الثالثة للكتاب العربي وتدارست مشكلات الكتاب العربي في التوزيع والنشر . وانطلاقا من ايمان المجتمعين بأهمية الكتاب في حركة الثقافة القومية والتطور الحضاري المعاصر وما يتطلبه ذلك من ايجاد السبل والوسائل اللازمة لدعم الكتاب وحركة نشره في الاقطار العربية كافة وافقت على التوصيات التالية :

١ – في نشر التراث

توصي الندوة بايلاء التراث العربي مزيدا من الاهتمام الذي يتناسب مع دوره في ربط الامة العربية بالجوانب المشرقة من تاريخها الحضاري وتقترح تشكيل هيئة عربية موحدة لاعادة نشر التراث .

٢ – في صناعة الكتاب

أ – توصي الندوة باقامة تعاون طباعي وثيق بين الاقطار العربية يقوم على النشر المشترك وتنسيق الجهود للارتقاء بمستوى الكتاب العربي طباعة واخراجا .

ب – التزام دور النشر بالرقابة الذاتية في نشر المؤلفات التي تخدم الاتجاه القومي والعلمي ، على ان يقوم تعاون مثمر بين دور النشر في هذا المجال .

جـ – اصدار كتب مطالعة تتناسب ومستويات المبتدئين تدفعهم الى حب القراءة والاستزادة من الثقافة .

٣ – في ترويج الكتاب

أ – اسهام الدول العربية في تدعيم نشر الكتب طباعة واخراجاوتوزيعا، واقتناء كميات منها في المكتبات العامة والتابعة للمؤسسات الحكومية .

ب – الاكثار من المعارض المحلية التي تجتذب القراء وتيسر لهم الكتب باسعار مخفضة .

جـ – عقد ندوات مرافقة للمعارض تساعد على حل المشكلات المرتبطة بالنشر والتوزيع .

د – اقامة معرض سنوي للكتاب العربي يقام كل عام في قطر ، وفق برنامج مخطط تشرف على تنفيذه أمانة عامة تتشكل محليا وعربيا والتوصية بالا تخضع اقامة المعارض لاية رسوم خاصة .

هـ – افراد عرض دائم في كل قطر عربي للكتب الحديثة الصادرة خلال عام .

و – الاهتمام بتعريف الكتب الجديدة ونقدها والعمل على اصدار مجلة عربية دورية تتابع ذلك وفي انتظار صدور مثل هذه المجلة ، تدعى المجلات الثقافية القائمة الى تخصيص باب للكتب الصادرة حديثا لتعريف القراء العرب بجميع ما يصدر في مختلف الاقطار.

ز – تخصيص برامج اسبوعية في اجهزة الاعلام العربية للتعريف بالجديد من الكتب .

حـ – تبادل النماذج من الكتب الحديثة وقوائم المطبوعات بين دور النشر العربية .

٤ – في الغاء العوائق :

توصي الندوة بالغاء جميع العوائق التي تحول دون انتشار الكتاب وترويجه في الوطن العربي ولا سيما الرقابة وقيود الجمارك وتعقيدات التحويل وما اليها مما يقيد حرية الكاتب والناشر والقارىء .

٥ – في تسهيلات النقل :

توصي الندوة بمتابعة الجهود الرامية الى تخفيض اجور الشحن وخاصة الجوي ودراسة ايجاد نقل خاص بالمطبوعات تتكفل به دور النشر العربية .

٦ – في مكافحة التزوير :

توصي الندوة بتشديد مقاطعة الكتب المزورة ومقاطعة الجهات التي تتعامل بالتزوير واتخاذ جميع التدابير اللازمة لذلك .

٧ – في كتب الاطفال :

تثني الندوة على الجهود التي تبذل في مجال تكوين مكتبة الاطفال وتوجيهها لخلق جيل جديد يعي مشكلات المجتمع العربي ويتهيأ للمشاركة في حلها ، وتوصي بما يلي :

أ – عقد ندوة سنوية تتدارس موضوعات كتب الاطفال في الوطن العربي.

ب – الاكثار من أصدار مجلات وكتب للاطفال في الاقطار العربية والتنسيق فيما بينها بهدى من توجيه الناشئة توجيها قوميا عربيا سليما .

جـ – تدعيم كتب الاطفال ومجلاتها وموسوعاتهم من قبل المؤسسات الرسمية لتجنيبها محاولات الاستغلال التي تقوم بها بعض دور النشر الاتجارية .

الندوة القادمة

تسجل الندوة الثالثة للكتاب العربي شكرها للحكومة العراقية على الدعوة التي وجهها مندوب الدار الوطنية العراقية بعقد الندوة الرابعة للكتاب العربي في بغداد في ربيع العام القادم .

برقيتان

كما قررت الندوة ارسال البرقيات التالية :

الاخ المناضل العقيد معمر القذافي – رئيس مجلس قيادة الثورة

الوفود المشاركة في الندوة الثالثة للكتاب العربي المنعقدة بمدينة طرابلس بدعوة من الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان تنتهز اختتام اعمالها لتحيي التجربة الثورية التي تخوضها ثورة الفاتح من سبتمبر الوحدوية وتؤكد التزامها الكامل بتوجيه الكتاب العربي في خدمة قضايا الثقافة العربية وتأصيل الفكر القومي التقدمي وتمكين الجماهير والاجيال العربية من النضال ضد عوامل التخلف والتجزئة . واذ تشيد الوفود العربية المشاركة في هذه الندوة بالمكاسب الثورية التي حققها الشعب العربي في هذا الجزء من وطننا الكبير بقيادتكم الملتزمة فانها تسجل تقديرها البالغ للمسيرة التي تقودونها في اتجاه العودة الى الاصالة العربية والافادة من تراث امتنا الفكري والتاريخي وتجديد رسالتها الحضارية .

الاخ محمد بلقاسم الزوي

وزير الدولة

ان اعضاء الندوة الثالثة للكتاب العربي اذ يحيونكم شاكرين رعايتكم للندوة وعنايتكم بقضايا الكتاب العربي وتطوير الثقافة في هذا القطر العزيز يتمنون ان تحظى توصيات الندوة باهتمامكم وان تترجم الى وقائع عملية تدفع بالكتاب الى احتلال مركزه المرموق في حياة الامة العربية .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
(٢٦١ لسنة ١٩٧٦)